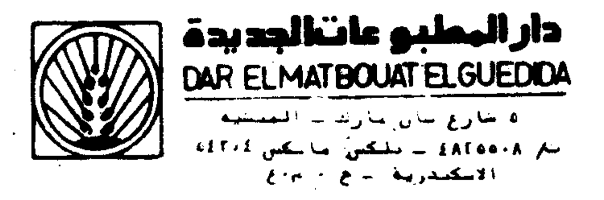
المقال الاجتماعى

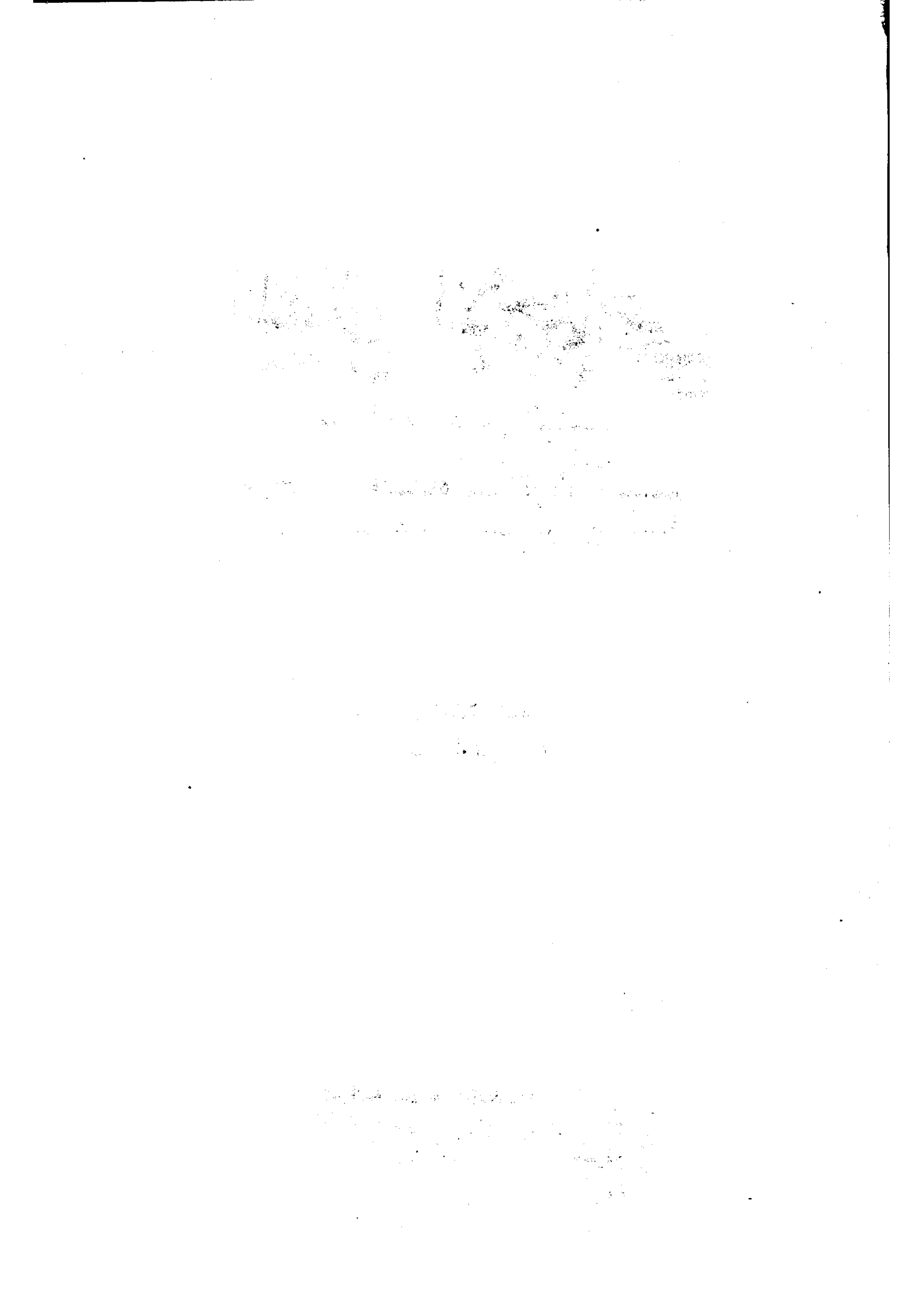
عند أحمد حسن الزيات

منهجه ــ قضاياه ــ ظواهره الفنية

دكتــور

أحمد عبد الغفار عبيد





بسم الله الرحمن الرحيم

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا »

صدق الله العظيم

إهــــداء

أخى الأعز الأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومى ..

إليك ثمرة من جنى توجيهاتك ، وزهرة من رياض حبك وتقديرك للزيات .. أوليتُها من جهدى وعنايتى ما أرجو أن يحوز رضاك ...

★ ★ ★

تقـــديم

للفكر الإصلاحى أثر عظيم فى حياة الأمة ، وعليه معوّل كبير فى رقيّها وريادتها ، ومنه تنبع جهود العاملين المخلصين من أبنائها ، وحوله تتجمع قواها ، وبه تشحذ عزائم رجالاتها وزعمائها .

ولو تصفحنا تاريخ أمتنا فى عهدها القريب ، وتتبعنا ضروب المشكلات التى عانتها وكافحت للتخلص منها — كما سيتضح لنا من خلال مقالات الزيات الاجتماعية—لتأكد لنا مبلغ مايحدثه الفكر الإصلاحي من أثر ، وما يترتب عليه من نتائج ، إذ نلمس مدى التقدم الذى أحرزته الأمة فى تجاوز سلبيات ذلك العهد .

ولعل ذلك الإدراك يحفزنا إلى الثقة فى المستقبل الأفضل لأجيالنا الخالفة ، ويحملنا على التفاؤل والاقتناع بأن ما تسطره أقلام المصلحين ، وما تردده صيحات الثائرين لايمكن بحال أن تذهب سدى أو تضيع بددا ، وفى تلك القناعة بحد ذاتها مايدفع رواد الإصلاح فى مجتمعنا ، وشداة العدالة والحرية فى أمتنا إلى إدامة التذكير والإلحاح على ما يرونه من وجوه الإصلاح ، وأسباب النهوض ، ومفاتيح التحول إلى الأفضل والأكمل ، والأليق والأوفق ، دون أن يداخلهم يأس أو يتسلل إلى نفوسهم قنوط ، مهما تعثرت خطا الاصلاح ، ومهما أوصدت أمام آرائهم السديدة ودعواتهم المخلصة السبل .

ولعلنا لو ذهبنا فى التتبع والاستقراء متأملين مسيرة التاريخ الإنسانى كله منذ أقدم مابلغنا منه لأيقنّا أن الإضافات المهمة ، والمكاسب الكبرى التى حققتها مسيرة البشرية عبر دروب تاريخها الممتد لم تكن فى جملتها سوى نهايات وغايات لأفكار رائدة ، وطموحات نبيلة ، أسهم بها ذوو العقول الكبيرة ، والنفوس الخيّرة والضمائر اليقظة على مر العصور . فتبدو لنا مسيرة الحضارة الإنسانية من خلال

ذلك التتبع والاستقراء فى صورة درب طويل ممتد يرتقى بسالكيه صعدا نحو ذروة شامخة ، صاغت معارجه ، وذللت عقباته قرائح المصلحين وجهود النوابغ .

* * *

من هذه النوعية من الفكر الاصلاحى أتت جهود الزيات فى كتاباته حول قضايا المجتمع المصرى فى عصره ، وعلى تلك الشاكلة كانت ، وعن النتائج المثمرة تمخضت ، فهى نمط فريد من الإصلاح ، ونسق بديع فى صرح التقدم ، ورؤية مستبصرة للمستقبل الأمثل ، ومعاناة صادقة لأبعاد الواقع المؤلم ، وتجربة عميقة متفاعلة مع المشكلات والظواهر المتردية ، يصحبها تأمل واع يتلمس دروب الخلاص ، ويتسلل فى مهارة إلى مواطن الداء ليُطبّ لها الدواء ، ويستخلص البلسم ويحدد خطوات العلاج ، ويحذر من مخاطر استفحال الداء واستشراء الوباء .

وهى فى مجملها تكشف عن نمط راق من الالتزام بقضايا الأمة ، والوفاء لتراب الوطن ، والغيرة على تراثه وقيمه ، والرغبة الغالبة فى تحطيم الأغلال ، وإسقاط الأقنعة الزائفة وتحرير العقول من أوهامها ، ووضع الحقائق فى نصابها الصحيح ، كل ذلك يوفق الزيات فى تأكيده والإقناع به فى براعة الواثق ويقين المؤمن ، وهدوء الحكيم المجرب ، وعزوف الأبىّ ، لايتدنى إلى حومات السخائم ولايرجو من ورائه مغنما ، ولا يتّجر به فى سوق السياسة ولا يركب به موجات الحزبية ، بل يعلو فوق ذلك كله متطلعا إلى غاية أنبل ، وهدف أسمى ، ومرمى أبعد ، وكان له ماأراد فرأى جانبا كبيرا من نتاج جهوده الإصلاحية قد تحقق وتقرر ، وأثمر وأينع ، قبل أن يلقى ربه ، وبقيت جوانب أخرى تحقق بعضها بعد رحيله وما زال بعضها الآخر محط الآمال بل موثوق النجاح بإذن الله . لأن الأسس التى وضعها الزيات له والآراء التى طرحها بصدده تتردد بعينها فى عصرنا الحاضر فيما يذيعه أو يسطره دعاة الاصلاح ورواده فى الآونة الأخيرة .

كانت الجوانب الموضوعية المهمة فى كتابات الزيات الاجتماعية من أهم

ماحفزنى لتناولها بالدراسة فى هذا الكتاب انطلاقا من قناعة أصدر عنها فيما أبحث وأكتب خلاصتها أن بحوثنا فى جامعاتنا ومعاهدنا العلمية ، ومراكز البحث يجب أن تلقى الأضواء على القضايا ذات الأهمية فى حياتنا العصرية من جوانبها المتنوعة وأن يكون رائدنا فى ذلك البحث الدءوب لكل ما من شأنه أن يزيل معوقات نهوضنا ويدعم شخصيتنا المستقلة ويمهد السبيل لتأصيل مبادئنا السامية وأخلاقياتنا الموروثة ويقاوم تيارات التشكيك فى قدراتنا ومحاولات تمييع هويتنا ويفوّت الفرص على خصوم هذه الأمة الكائدين للنيل منا وإخضاعنا نفسيا وفكريا ، بعد أن عدت على عالمنا العربى وأقطارنا الاسلامية عوادى الخمود والضعف ، وأفقدنا التفكك والتشتت كياننا القوى وثقلنا الهائل . ولن يتأتى ذلك إلا بتكثيف الجهود واحتشاد الهمم واتقاد العزائم للابقاء على جذوة الثقة بالنفس واليقين بسلامة النبع الذى تستقى منه الأمة زادها الروحى ، وعظمة التراث الذى تهتدى على شعاعه الوضىء فينير لها الدرب ويرتقى بها إلى مدارج الكمال . ويعيد إليها عزتها السالفة ويحطم ما يعوقها من أغلال .

وإذا كانت هذه الغاية الموضوعية على هذا القدر من النفاسة والأهمية فإن لكتابات الزيات إضافة إلى ذلك قيمة أدبية فريدة تضاف إلى قيمتها المعنوية فتجعل درسها نافعاً ممتعاً معاً وتكشف عن أصالة فى الغاية وبراعة فى الأداء للوصول إلى تلك الغاية ، فهى تمتع العقل والنفس وتشبع الذوق والوجدان ، وتستحوذ على الإعجاب والإكبار ، فلا غرو أن تكون موضعاً للدرس والتأمل ، فهى قمينة بأن يفيد منها القارىء ، ويتزود من فيضها الأديب ، ويستضىء بهديها المصلح ، ويتربى على عطاءاتها دعاة الاصلاح ومنظّروه .

ولعل هذه الميزة الأدبية لكتابات الزيات هى التى حملتنى حملا ، كما سيلحظ القارىء — على الاسترسال فى النقل عنه وإطالة الأخذ منه فى بعض فصول هذا البحث وبخاصة فى موضوع قضايا المقال الاجتماعى عنده لأنى كنت فى كثير من الأحيان أجدنى لا أستطيع مهما جهدت وعانيت أن أعرض فكرته بأسلوب

يضارع أسلوبه أو بيان يدانى بيانه فكنت أرانى مدفوعا إلى إثبات ماخطه الزيات بقدراته المتميزة ، وإمكانياته الأدائية البارعة .

ولم أجنح فى دراستى هذه إلى التقرير والعرض لأن ذلك لايجدى ولايحقق الهدف الذى رسمته لهذه الدراسة ، فكتابات الزيات ومقالاته مطبوعة متداولة وهو قريب العهد بعصرنا الحاضر لايصعب على الباحثين استقصاء نتاج فكره وحصاد قلمه . ولكننى توخيت استخلاص الدلالات ، وتفرّس المنهج وتحديد المرتكزات التى بنى عليها فكره الاصلاحى واستقى منها مادة مقالاته وفى اجتهادى أن تحرير تلك الجوانب ورصد الأسس من يمثل الثمرة المرجوة والفائدة المبتغاة لأن لمقالات الزيات الاجتماعية منهجا متميزاً صدر عنه الكاتب فى مختلف المشكلات التى عالج آثارها ودعا إلى تخليص المجتمع من سلبياتها ومن أبرز ملامح ذلك المنهج الثبات والتحرر والاستقلالية والهدف النبيل . ومن اجتماع تلك الملامح فى كتاباته جاءت فى إطارها العام ممثلة لأكمل صور النقد الاجتماعى الهادف والجهاد الوطنى البناء . فنقد الزيات الاجتماعى موضوعى متحرر بناء متفتح . وكان هدفى من وراء هذا التتبع لملامح المنهج أن أطلع القارىء لهذا الكتاب على نمط راق من التوجيه الاجتماعى وصورة ناضجة للجهاد الأدبى الذى يعد ضريبة واجبة الأداء على كل من درج على أرض مصر الطيبة وحفظ لها الجميل .

وفى ذلك كله — وهو الأهم والأخطر — مايوضح لأبناء جيلنا الحاضر فوضى الكتابات التى تمتلىء بها أعمدة صحافتنا العصرية ومجلاتنا وكتبنا التى لايصدر كاتبوها عن منهج واضح ، ولا خطة سوية ولا تنبع فى كثرتها الكاثرة إلا عن رغبة فى التشويه والتضليل ، وتزييف الحقائق والنقد الهدام ، والهوى المغرض ، والادّعاء الكاذب ، والانتحال الممجوج .

ولو قدّر لهذا الجهد المتواضع الذى بذلته فى هذا الكتاب أن يلقى آذانا مصغية ، وقلوباً واعية وأن ينحو دعاة الاصلاح نحوه ويقصدوا قصده — لو قدر له ذلك — لأفادت بلادنا إفادات عظمى ولرجونا أن تثمر الكتابات الاجتماعية على

هذا المنهج ثمرات نافعات ، وأن تبقى حذوة الثقة بالنفس قوية مؤثرة . أما أن نظل على مانحن عليه ونراه الآن من تمويه وتزييف وبلبلة لأفكار الرأى العام لأطماع دنيئة وصراعات خسيسة فإن الكتابة الاصلاحية تفقد قيمتها وينمحى أثرها وتحبط جهود المعوّلين عليها .

وحسبى أن تكون غايتى من وراء هذا البحث أن أنبه على هذا الخطر وأشارك مع غيرى من المدركين لعواقبه ـــ فى لفت الأنظار والتبصير بالأصول الصحيحة للكتابات الهادفة والجهود المأمول نجاحها والله من وراء القصد ومنه وحده السداد وبفضله تتم الصالحات .

المؤلف

ميامى ـــ الاسكندرية

١٤ من شعبان ١٤٠٨ هـ

٣١ من مارس ١٩٨٨ م

البـــاب الأول

المقال الاجتماعى ودور الزيات فيه

الفصل الأول : الاتجاه الاجتماعى للأدب فى العصر الحديث .

الفصل الثانى : أدب المقالة : أطواره ــ اتجاهاته ــ ملامحه الفنية .

الفصل الثالث : الزيات وأدب المقالة .

الفصل الأول

الاتجاه الاجتماعى للأدب فى العصر الحديث

لم يبتعد الأدب العربى القديم عن تصوير أحوال المجتمع أو التعبير عن قضايا الإنسان ، بيد أن التوجّه الاجتماعى للفنون الأدبية لم يكن ظاهرة متميزة فى النّتاج الأدبى قديما ولم يعد فى الأعم الأغلب أن يكون تعبيرا ذاتيا عن تأثر الأديب بعصره، وتفاعله مع بيئته ، فهو يصور البيئة من منظور شخصى ، ويرسم بعض ملامح الحياة الاجتماعية بطريق غير مباشر ، دون صدور عن نظر متأمل ، أو وعى مستبصر لمشكلات الحياة وقضايا الإنسان .

وكانت اهتمامات الأدباء فى الحلقات الأولى من تاريخ الأدب العربى مصروفة غالبا إلى جوانب ذاتية ورؤى وجدانية خاصة يعبر من خلالها الأدباء والشعراء عن قضايا متنوعة منها ما يتصل بالحياة السياسية تأييدا ومناصرة ، أو رفضا ومعارضة ، أو نقداً ونقمة ، ومنها ما يتصل بتصوير الأحداث والوقائع ، ومتابعة الانجازات وتسجيل الأعمال العظيمة وإبراز التحولات المهمة فى تاريخ الأمة التى لها انعكاسات مؤثرة على حياة الناس فيها ، وبعضها — وهو الكثرة الكاثرة — نعبير عن رؤى وجدانية خاصة ، وأحاسيس إنسانية دقيقة يستشف منها القارىء الخطوط العامة لحياة الأديب وألوان التأثر والتأثير بينه وبين مجتمعه ، والمنابع التى استوحى منها مضامين فنه وألوان إبداعه .

وتأسيساً على ذلك كانت الفنون الأدبية قديما ذات تصنيفات متميزة ومحددة ففى مجال الشعر : نجد المديح والهجاء والوصف والغزل والرثاء والفخر ، وفى مجال النثر نجد الخطابة بألوانها السياسية والدينية والحزبية ، والكتابة بأنواعها الديوانية والإخوانية ثم فى مرحلة تالية المقامة ، ثم تحول الأدب بُعَيْد عصر النهضة و مطلع العصر الحديث فبدأنا نرى من خلال استعراض ألوانه وأجناسه أنه غدا يصنف فى مجال

الشعر إلى سياسى ووطنى واجتماعى ووجدانى ومسرحى وتمثيلى ، وفى مجال النثر إلى مقالة وأقصوصة وقصة ورواية ومسرحية .

وعنى الأدباء عامة بقضايا الإنسان والمجتمع ، وأصبح التوجه الاجتماعى هو السمة الغالبة على أدبنا العربى فى العصر الحديث . كما هو الحال فى مختلف الآداب العالمية . ولم يكن التحول أو التوجه الاجتماعى للأدب العربى فى العصر الحديث نتيجة لتأثر بالآداب الأوربية كما يردد بعض الباحثين ولكنه فى تقديرى يعد حتمية من حتميّات التغيير ، ونتيجة طبعية لليقظة الشاملة التى سرت فى وجدان وفكر أمتنا العربية مع بداية العصر الحديث .

وعلى الرغم من اقتناعى بهذا الرأى حول الاتجاه الاجتماعى للأدب العربى الحديث لا أغفل تأثر فنون هذا الأدب وعلى الأخص النثرية منها بمثيلاتها فى الآداب الأوربية ولكن هذا التأثر لم يعد الاستفادة من تجارب هؤلاء فيما يتعلق بالأصول النقدية التى قرروها والملامح الفنية التى وضعوا أطرها العامة .

ولعل مما يؤكد ذلك فيما يتعلق بالشعر العربى الحديث أن التحول الذى حدث فى مسيرته والبعث الذى دب فى روحه بدأ بمجاراة القديم والنسج على منواله وكان شغل دعاة الاصلاح الشاغل ووكدهم الدءوب أن يتجاوزوا عصور الضعف ومراحل الخمود والموات التى أصابت شعرنا العربى فى العصرين المملوكى والعثمانى . وعندما عالج البارودى التجديد والبعث عالجه بتقليد الشعراء الكبار فى الجاهلية وعصور الاسلام الأولى كامرىء القيس وبشار وأبى تمام والبحترى والمتنبى والشريف الرضى وغيرهم ثم عندما اطمأن شعراؤنا والمحدثون إلى قدرتهم على مجاراة الأقدمين وعادت إليهم الثقة بأنفسهم ، وسلمت لهم أداة التعبير الشعرى المؤثرة انطلقوا فى ميادين التجديد ، واستخدموا تلك الأداة بمهارة فى التعبير عن قضايا الانسان والمجتمع ، ومشكلات السياسة والحريات ، وظواهر التخلف والمعاناة التى تئن تحت وطأتها غالبية شعوب الأمة العربية التى أفاقت من غفوتها فوجدت أقطارها المترامية شرقا وغربا نهبا مقسما ومرتعا مباحاً لقراصنة أوربا ولصوصها الغاصبين .

كان الأدب فى عصور الضعف مَسْخاً مشوها ، وظرفا خاليا ، وبهرجا خادعاً ، ولم تكن له من حقيقة الأدب سوى الأشكال والقوالب ، ومن ثم فإن المقارنة بينه وبين ماصار إليه أدبنا الحديث لاتقوم على أساس وينبغى أن يسقطه الباحثون من حسابهم عند القياس والتنظير فمن الظلم الظالم والخطأ البيّن أن نعتد تلك التلفيقات والزخارف أدباً ، إذ للأدب بمفهومه الصحيح دعامتان لازمتان هما : الفكر ، والشعور . فإن افتقد أيا منهما افتقد عنصر وجوده أو لنقل افتقد معنى كونه أدباً .

وانطلاقا من هذا الفهم يتضح لنا أن المؤرخين لأدبنا العربى يجانبون القصد ويخطئون الفهم عندما يضعون تفاهات وألاعيب أدعياء الأدب والمتطفلين على ساحاته فى عصور الضعف والجمود فى مقابل ابتكارات وروائع الأدباء فى عصرنا الحديث ، لأن المقارنة على هذه الصورة تجعلهم ينساقُون دون وعى إلى تقريرات غير سديدة ، وتحملهم حملا على تصديق ما يروجه دعاة تأثير الآداب الأوربية فى أدبنا الحديث فلا يستطيع هؤلاء أن يقتنعوا بغير تلك الأفكار طالما صعب عليهم أن يجدوا أدنى وشيجة بين حال الأدب العربى فى عصر المماليك والعثمانيين وحاله فى العصر الحديث .

والحق أن المقارنة ينبغى أن تقوم بين اتجاهات الأدب المصرى الحديث واتجاهات الأدب العربى فى عصوره الأولى التى سلم فيها من أغلال التقليد وجرى على شىء من الفطرة الأدبية الصحيحة التى تنبع من استقلالية الأديب فى التعبير عن فكره وشعوره .

* * *

بواعث الاتجاه الاجتماعى للأدب :

وأستطيع بعد هذه الإلماحة لمسيرة الأدب العربى قديما وحديثا ـــ أن أعرض تصورى لبواعث التحول أو التوجه الاجتماعى لأدبنا الحديث ، وهى كثيرة متنوعة وسنلحظ أنها متشابكة فى بعض النقاط ولكنها تعاونت فى جملتها على جعل قضايا المجتمع ومعاناة الانسان فى بؤرة الشعور أو فى مركز الدائرة من فكر الأدباء والمصلحين واستحوذت على جانب كبير من اهتماماتهم بصفة عامة وكانت الشغل الشاغل والتجربة الكبرى التى تنبع منها وتلتف حولها مواهب وامكانات عدد كبير من أدبائنا فى العصر الحديث .

ولعل فى هذا التصور مايؤكد وجهة نظرنا فى موضوع الالتزام فى الأدب فهو ـــ أعنى الالتزام ـــ يفرض نفسه على الأديب وينبع من ذاته ولا تفرضه أنظمة ، أو أيدلوجيّات ولكنه مظهر عام لوجدان الأمة وموقف تلقائى تجاه متطلبات رقيها وتعبير عن تفاعل الأديب مع قضاياها ومشكلات الإنسان على ربوعها .

ويمكننا أن نلمح أهم بواعث التوجه الاجتماعى للأدب العربى فى العصر الحديث من النقاط التالية :

١ ـــ تميزت المرحلة التى انتقلت إليها أقطار الأمة العربية منذ بداية العصر الحديث ببروز مجموعة من الدعوات التحررية التى هدفت لإيقاظ الأمة العربية من سباتها ، وبعث روح اليقظة والنهوض فى وجدان أبنائها وتنبيههم من غفلتهم وحثهم على مقاومة التسلط المفروض عليهم من المستعمرين الأوربيين الذين جثموا على صدر غالبية أقطار الوطن العربى ومن قبلهم العثمانيون الذين تسببوا فى ضياع دولة الخلافة الاسلامية ومكنوا للمستعمرين الأوربين التسلل لفرض سيطرتهم على مقدرات الشعوب العربية والعبث بمصيرها .

وقد تعددت دعوات التحرر تلك وأخذت كل دعوة منها مرتكزا خاصا بها ولكنها تلاقت فى أهدافها العامة على غايات ومطامح واحدة أو متقاربة فبعضها

ارتكز على الاصلاح عن طريق توثيق صلة المسلمين عموما ومن أولهم وأهمهم العرب بدينهم ، وتنحية المفاهيم الخاطئة والدعاوى الزائفة من عقولهم ومن أبرز تلك الدعوات الدعوة الوهابية فى نجد بالجزيرة العربية والدعوة المهدية فى السودان والدعوة السنوسية فى ليبيا وغرب إفريقيا .

ثم كانت هناك دعوات تحررية ذات منح فكرى كدعوة السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ومن بعده رفاقه وتلاميذه وكانت تهدف أيضا إلى تخليص مجتمعات الإسلام من الجهل والتقليد وتتصدى لخصوم الإسلام من الأوربيين وتدعو إلى العمل على إيقاظ الهمم وتغذية الشعور بالقوة فى نفوس الناس وتطلعهم على الصور الوضيئة لتاريخهم والمعانى العظيمة لعقيدتهم والإمكانات الهائلة لقواهم إذا توحدت وتبصرت طريقها الصحيح وإلى جانب ذلك ظهرت دعوات تحررية لها طابع قومى كدعوة القومية العربية فى مقابل القومية الطورانية التى تزعمها وروّج لها الأتراك وكان لها أنصارها فى مختلف بلدان الوطن العربى وبخاصة فى بلاد الشام كدعوة الشيخ عبد الرحمن الكواكبى إضافة إلى الحركات التحررية ذات الطابع السياسى مثل الثورة العرابية فى مصر .

كانت هذه الدعوات التحررية الاصلاحية ذات أبعاد واسعة التأثير فى وجدان شعوب الأمة العربية فبثت فيها معانى الحرية وزرعت فى عقول أبنائها ومشاعرهم بذور الثورة وأطلعتهم على مقدار الظلم الواقع عليهم والضيم النازل بهم ، والغبن المفروض عليهم . ومن ذلك كله سرت فى نفوس المُلِّمين بقدر من الوعى والآخذين بحظ من الثقافة روح النقمة وعنتهم قضايا الأمة ، وكانوا كلّما بحثوا فى وسائل الإصلاح وعوامل التخلص من نير السيطرة الأجنبية الدخيلة على أوطانهم صُدموا بأن مجتمعاتهم التى هى أداة المعركة ووقود الثورة تعانى أقسى صور المعاناة وقد تسلل الفساد المستشرى إلى هيكلها فتركه متداعيا فى مهب العواصف الهوج والأعاصير المهلكات .

كل تلك الظواهر كان من الحتمى أن تفرض نفسها على خواطر الشعراء وأقلام الكتاب وتحتل مكان الصدارة من جهود الزعماء وصيحات المصلحين .

٢ ــ ترتب على انتشار أفكار الدعوات الاصلاحية التى عرضنا لأبعادها واتجاهاتها فى الفقرة السالفة أن ذاع الوعى وانتشر الاقتناع بين قطاعات واسعة من شعوب الوطن العربى وتكون رأى عام مجمع على المطالبة بالاستقلال ورفض التسلط الأجنبى على مقدرات الأمة، وتجاوبت آراء المصلحين فى مختلف أقطار الوطن العربى تدعو إلى مقاومة السيطرة الأجنبية بكافة صورها والتصدى لمكائدها وخدعها.

٣ ــ ساعد التحول الذى أفرزته الحضارة الحديثة ممثلة فى اتصال الشرق بالغرب على ارتقاء وسائل الاتصال وأدوات نشر الفكر والرأى من الطباعة والصحافة والإذاعة وغيرها وكانت تلك الوسائل أداة مؤثرة فى نشر الرأى الحر والفكر الإصلاحى القويم وكانت منبرا لتنوير الناس وبث الحمية فى النفوس، والإيحاء بوسائل الخلاص من معوقات النهضة المرجوة ووسائل تجاوزها وأهداف النضال وطرائقه وظواهر الضعف وكيفية الخلاص من سلبياتها.

٤ ــ أدى الأخذ بأساليب الحضارة الحديثة إلى بروز الهوة بين فئات المجتمع وطوائفه، ومثول المفارقات الصارخة بين الطبقات من حيث الفقر والغنى، والرق والتخلف، والعلم والجهل والترف والفاقة، وهذه الظواهر فى مجملها موجودة منذ أقدم عصور التاريخ الإنسانى ولكنها برزت بصورة قاسية مع زيادة الاحتكاك بين الطبقات بتأثير عوامل الاتصال والتداخل واختفاء الحواجز وسقوط الأقنعة التى كانت تحجبت عن البائسين المحرومين ألوان المتاع وفنون الترف التى يتقلب المحظوظون على مطارفها الوثيرة.

ولاريب أن إنسان العصور القديمة كانت حياته أيسر ومتطلباتُ عيشه محدودة ولكن إنسان العصر الحديث تعقدت أساليب حياته وتعددت مطالب يومه واتسعت تبعا لذلك غايات طموحاته وألحت عليه هذه وتلك ليحيا كما يحيا غيره من القادرين ويأخذ قسطه من أدوات التحضر العصرية كما ينعم بألوانها الموسرون.

ومن ذلك كله أفرزت الحياة فى العصر الحديث ألوانا من الصراع وفنونا من التميز الطبقى وجرت حيوات الناس فيه على أنماط متعددة ومستويات متباعدة صعوداً وانحداراً دون حد معقول من التقارب أو التمايز.

وتأسيساً على ذلك كله بدت فى العصر الحديث مشكلات اجتماعية ملحة ومطالب لجماهير الشعوب لم تكن بمثل ذلك الإلحاح فى العصور القديمة بصفة عامة ـــ ومن ثم قفزت إلى ساحة القضايا الاجتماعية فى العصر الحديث مشكلات التميز الطبقى أو العنصرى والصراع بين الطبقات ومشكلات الفقر والجهل والمرض والبؤس والتسول ، والطفولة المشردة ، والتفكك الأسرى ، والقهر الاجتماعى ، والطبقة الكادحة ، وذوى الدخول المحدودة ، ومشكلات البطالة ، وهجرة الريف إلى المدينة ، والمجتمعات العمالية فى المناطق الصناعية .

وظهرت كذلك مطالب الأحياء الشعبية والمناطق الريفية أو النائية بأخذ قسطها من الخدمات الصحية والتعليمية والمرافق العامة .

مظاهر الاتجاه الاجتماعى للأدب العربى فى العصر الحديث :

رأينا خلال استعراض بواعث الاتجاه الاجتماعى للأدب فى العصر الحديث أن مشكلات المجمع والانسان استحوذت على اهتمام الناس وشغلت فكر وجهد الزعماء والمصلحين . والأديب كما هو معلوم مشهور جزء من بيئته ، وخلية مهمة من خلايا مجتمعه فكان من الطبعى أن يتفاعل الأدباء مع قضايا المجتمع وتنال جانبا كبيرا من اهتمامهم وقد أشرت إلى أن الأدب الحديث غدا يصنف تصنيفا جديدا يختلف فى هيكله العام عن التصنيف القديم للأدب شعره ونثره .

وعلى الرغم من تفاوت الأدباء فى مقدار تأثرهم بقضايا الإنسان والمجتمع وتبنِّيهم لها نجد أن النتاج الأدبى للسواد الأعظم من ذوى الشهرة وعلو المكانة منهم لم يخل من العناية بالاجتماعيات وإن كان تناول كل منهم لها يختلف فى جزئياته ورؤاه .

★ ★ ★

بدأت بواكير التحول الاجتماعى للأدب الحديث فى مصر فى الكتابات النثرية متمثلة فى المقالات والرسائل المطولة التى تناول فيها زعماء الإصلاح شرح أبعاد

الفكر التحررى الذى دعوا إليه وناضلوا فى سبيله وحشدوا من أجل تأصيله وإقناع جمهور الناس به ما استطاعوا من جهد وما أتيح لهم من أدوات نشر الرأى وعرض الفكر ، وكان أولئك الدعاة الاصلاحيون يهدفون فى المقام الأول إلى قضايا سياسية فى الاطار العام ولكنهم تطرقوا فيما تطرقوا إليه من بيان سوء الأوضاع وتردّى الأمور فى البلاد إلى تصوير كثير من أدواء المجتمع ومشكلاته مرجعين أكثرها إلى فساد النظام السياسى وتفشى الخلل فى أسلوب الحكم وتسلط فئة من الإقطاعيين ومن يمتّون إلى الحكام على مقدرات البلاد ، وامتلاكهم لمعظم مصادر العيش وأهم مقومات الاقتصاد الوطنى عن طريق الاغتصاب غير المشروع والنهب غير المباح .

كتب الأستاذ الإمام محمد عبده يصور نكبة الأمة بحاكمها المستبد يقول :

« إن الأمة التى ليس لها فى شئونها حل ولا عقد ، ولا تستشار فى مصالحها ، ولا أثر لإرادتها فى منافعها العمومية وإنما هى خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون ومشيئته نظام . يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد — فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ولا ينضبط لها سير ، فتعتورها السعادة والشقاء ، ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر ، ويتناولها العز والذل ، وكل مايعرض عليها من هذه الأحوال خيرها وشرها فهو تابع لحال الحاكم ، فإن كان حاكمها عالما حازما أصيل الرأى علىّ الهمة رفيع المقصد قويم الطبع ساس الأمة بسياسة العدل، ورفع فيها منار العلم ، ومهد لها طرق اليسار والثروة وفتح لها أبوابا للتفنن فى الصنائع والحذق فى جميع لوازم الحياة وبعث فى أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحملهم على التحلى بالمزايا الشريفة من الشهامة والشجاعة ... ، وإن كان حاكمها جاهلا سيّء الطبع سافل الهمة جبانا ضعيف الرأى أحمق الجنان خسيس النفس معوج الطبيعة أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوى الخسران ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل ، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر وجار فى سلطته عن جادة العدل وفتح أبوابا للعدوان فيتغلب القوى على حقوق الضعيف ، ويختل النظام وتفسد الأخلاق... وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها فى أحشاء الأمة . عند ذلك إن كان فى الأمة رمق من الحياة ، وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيرا اجتمع أهل الرأى

وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة ، واستئصال جذورها ، قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جموع الأمة فتميتها وينقطع الأمل من العلاج » (١) .

* * *

لم تلبث قضايا المجتمع أن غدت عنصراً مهما من عناصر التجديد فى موضوعات الشعر الحديث ، وعلامة على التحول الذى أخذت بشائره تسرى فى كيان الشعر العربى بتأثير الواقع الجديد والأفكار التحررية الرائدة وكفاح زعماء الحركة الوطنية من أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول بعد أن فجر الثورة فى القرن التاسع عشر أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وأحمد عرابى وعبدالله النديم وغيرهم .

ونستطيع أن نلمح من خلال تتبعنا لتيارات الأدب الحديث وأطواره منذ بداية عصر النهضة وحتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ م أن مشكلات المجتمع وقضاياه الأساسية كانت الشغل الشاغل لكثير من الكتاب والمفكرين ومرت تلك القضايا بحلقات متتابعة فى طور البحث عن الحلول وكانت تختلط فى كثير من الأحيان بقضايا السياسة وأوضاعها لارتباط كل منهما بالآخر فقد رأينا بواكير الثورة على الظلم الاجتماعى وتردّى أوضاع السواد الأعظم من جمهور الشعب فى كتابات جمال الدين ومحمد عبده وتمضى الأعوام فنجد تلك المشكلات تتصدر الجهود التى ناضل من أجلها مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وغيرهم من زعماء النضال الوطنى .

وتستمر جهود المصلحين ونوابغ الكتاب والشعراء فى تناول هذه القضايا وعرض تلك المشكلات حتى تتبلور صورة ذلك النضال لتحرير المجتمع المصرى من عثراته والدعوة الجريئة لحل مشكلاته فى كتابات أحمد حسن الزيات على صفحات الرسالة إلى أن ينتهى ذلك كله بقيام ثورة يوليو التى حققت بلاريب أعظم انتصار

---

(١) فى الأدب الحديث ٢٤٢/١ نقلا عن تاريخ الأستاذ الإمام .

فى مجال الاصلاح الاجتماعى وحسبها أنها قضت على الاقطاع وهو أخطر ما هدد الكيان العام للمجتمع فى مصر ومنه انتشر الفقر والبؤس وتحت وطأته الغاشمة أهدرت إنسانية المصرى وامتهنت كرامته ونستطيع أن نستخلص من استعراض مظاهر التحول الاجتماعى للأدب الحديث فى مصر الحقائق التالية :

١ ــ ظهرت بوادر الاهتمام بقضايا المجتمع ومشكلاته جزءاً من الاتجاه التحررى العام الذى حمل لواءه دعاة الاصلاح فى الأمة منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ومما هو من قبيل المسلمات أن النضال السياسى لايمكن فصله عن النضال الاجتماعى لارتباط الهدفين وتشابك عوامل التأثير فيهما إيجابا وسلبا ، فالتحرر السياسى يصحبه إصلاح إجتماعى والقهر السياسى كان من نتائجه الحتمية الظلم المستشرى فى جسم المجتمع .

٢ ــ واكب الأدب الحديث قضايا التحرر ومشكلات المجتمع وتحول الأدباء شيئا فشيئا عن اهتماماتهم الخاصة وتصوير مشاعرهم الذاتية إلى استيحاء هذه الأفكار الجديدة والالتفاف حول مبادئها والحق أن هذا التحول لم يكن عاما أو شاملا الأدباء جميعا بل نستطيع أن نقرر أنه كان يمثل اللون الجديد ، والنمط العصرى وكان ظاهرة متميزة أدركها الناس وقدّروا المشتغلين بها من الشعراء والكتاب وعدهم مؤرخو الأدب الحديث بحق جديرين بالتميز مشيدين بما كان لهم من دور فى النهضة الشاملة التى كانت ثمرة عظيمة للكفاح الوطنى والجهاد الاجتماعى .

٣ ــ تعاون الشعر والنثر على بلورة أفكار الاصلاح الاجتماعى وتناول قضاياه وكان الشعر فى هذا الصدد أداة إلهاب المشاعر وإثارة الحماسة وحشد الجهود وتكوين الرأى العام المؤمن بتلك الأفكار المطالب بتحقيقها . وقام النثر بدور الإقناع والشرح والتنظير .

٤ ــ برزت المقالة لونا أدبيا متميزا غدا وعاء مهماً للتعبير عن قضايا المجتمع وتحليل أدوائه وعرض مشكلاته ، وأفاض الكتاب فى تشخيص تلك الأدواء ، وعرض الحلول الصالحة والعلاج الناجح . ولا ريب أن المقالة أقدر أشكال الأدب

على التعبير المباشر عن الرأى والفكر تقريراً ومحاجة واقناعاً وتحليلا . وهى إضافة إلى ذلك الجانب التقريرى العقلى تصطنع وسائل التأثير والأداء الفنى الذى يشد القارىء ويجعله متعاطفا مع ماتنطوى عليه من أفكار وما تدعو إليه من رأى .

وبهذه الخاصية اكتسبت المقالة صبغة أدبية لأنها حملت عبء الكفاح الاجتماعى بأسلوب أدائى متميز ، وارتقت بذلك عن صورتها الأولى التى بدت عليها فى العصر العثمانى وأوائل العصر الحديث . وكذا كان الحال فيما يخص فنون النثر الأخرى من الخطابة والمساجلات والقصة والرواية وغيرها .

وينتهى بنا ذلك الاستعراض لملامح التحول الاجتماعى للأدب فى العصر الحديث إلى أن المقال ذا الموضوع الاجتماعى صار أكثر ألوان الأدب تعبيرا عن قضايا المجتمع ومشكلاته واعتمده الأدباء معرضاً لإبداء الرأى والنقد والتوجيه ، وارتقى أسلوبه عندما عالج التعبير من خلاله جماعة من كبار الأدباء فتفننوا فى بنائه وارتفعوا بأسلوبه فلم يكن تقريراً محضا ولا عرضاً مباشراً للحقائق والحجج والأسانيد بل أضافوا إليه من فنون التأثير وألوان الصياغة الفنية المتقنة ماجعله مزيجا من العبارة الأدبية والبحث الاجتماعى وهو ما نعبر عنه بالأدب الاجتماعى وسنرى أن الزيات مزج فى مقالاته الاجتماعية بين أسلوب العرض المباشر فى عبارة ذات صبغة أدبية وبين اصطناع أسلوب الحوار وأحيانا كان يصوغ مقاله كله فى صورة أقصوصة ذات طابع درامى .

الفصل الثانى

أدب المقـــــالة

أطواره ـــ اتجاهاته ـــ خواصه الفنية

ارتبط ظهور المقال فى أدبنا العربى الحديث بإصدار الصحف وكان أسلوبه فى بداياته الأولى أسيرا لقيود الصنعة البديعية الذى كان سمة مميزة للكتابة فى العصر العثمانى . بيد أن المشتغلين بتحرير الصحف مالبثوا أن تخلصوا من تلك الأغلال بعد أن دّبت فيهم روح التحرر .فخلعوا ربقة التقليد ووجدوا أن لديهم من الأفكار العميقة والمعانى الدقيقة ما تحول قيود السجع المتكلف دون أدائه ، وتبعد بالكاتب عن تجلية مضامينه ، وترسيخ حقائقه فى عقول وأفهام القراء . فتحول الكتاب بتأثير تلك الروح التحررية بالكتابة إلى الأسلوب المرسل الذى يعنى فيه منشئه بإيضاح المضمون ، ولايغفل مع ذلك أن يجتهد فى تلوين أسلوبه بضروب الأداء البليغ .

والمقالة بمفهومها الحديث لا تعد من كل الوجوده جديدة على أدبنا العربى لأن النثر الفنى الكتابى فى أدبنا القديم حافل بألوان الكتابات التى تتلاقى مع المقالة فى إطارها العام سواء فى موضوعها أو أسلوب الأداء . فهناك فى نتاج أدباء العربية الأول فى عصر ارتقاء الكتابة الفنية منذ بداية القرن الثانى الهجرى مايشبه إلى حد كبير نمط المقالة الأدبية فى عصرنا الحديث ففى كتابات ابن المقفع وعبد الحميد بن يحيى والجاحظ وأبى حيان التوحيدى وغيرهم[1] فصول متفرقة يقترب كل من فصل منها من المقالة من حيث تحدد موضوعها وعرضه عرضا مشوقا ممزوجا بعاطفة الكاتب ورؤيته الذاتية ... كما هو الحال فى المقالة بمفهومها فى العصر الحديث.

* * *

(١) راجع فى المقالة لمحمد يوسف نجم ص ١٧ وما بعدها .

بدأت بواكير المقالة فى أدبنا الحديث ـــ كما أشرت ـــ بظهور الصحف مع مطلع التحول الحضارى الذى عدّه الباحثون بداية للعصر الحديث وهو يواكب مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر أو بُعَيْدها بقليل .

وقد تركت الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام أثرا مهما فى تحرير العقول وتفتيق الأفهام واستنهاض الهمم للأخذ بأساليب الحضارة الحديثة والانتفاع بمبتكراتها الصناعية ، وأفادت العلوم والثقافات والآداب فى الأقطار التى امتدت إليها الحملة الفرنسية وفى مقدمتها مصر بتلك الألوان الجديدة فعرف المصريون والشوام الطباعة واستخدموها فى نشر الكتب النافعة وإحياء التراث الدارس وأنشأوا الصحف وأوفدوا البعثات إلى أوربا وأنشأوا المدارس المتخصصة ... وهكذا كانت النقلة الشاملة إلى عتبات العصر الحديث فى الأدب والتعليم والنهضة العصرية الواعدة والمتتبعون لأطوار الصحافة فى أقطار الوطن العربى يذكرون أن الفرنسيين أنشأوا إبان مقامهم فى عهد نابليون صحيفتين فرنسيتين هما : العشار المصرى هى جريدة علمية اقتصادية تنشر فيها أبحاث المجمع العلمى ومناقشات أعضائه وتصدر كل عشرة أيام . و « بريد مصر » وهى الصحيفة الرسمية للحملة الفرنسية وتصدر كل أربعة أيام ، وقد ذهبتا بانقضاء الحملة الفرنسية .. ، فلما جاء محمد على أصدر أول صحيفة عربية سنة ١٨٢٢ حين أصدر « جرنال الخديو » وكان يطبع فى مطبعة القلعة بالقاهرة ، ويصدر كل مرة فى مائة نسخة باللغتين العربية والتركية ، متضمنا الأخبار الحكومية ، وبعض القصص من ألف ليلة وليلة ، وكان يرسل إلى رجال الدولة الذين يهم الحاكم أن يقفوا منه على أحوال البلاد ، وظلت تصدر لمحمد على وحده بعد أن ظهرت الوقائع المصرية . ثم أنشأ فى سنة ١٨٢٨ جريدة الوقائع المصرية ، وكانت تصدر أول أمرها بالتركية والعربية معا ، ثم اقتصرت على العربية ، ولا تزال تصدر حتى اليوم .. وكان محمد على شديد الاهتمام بالوقائع يود أن يراها فى قوة تحريرها وحسن إخراجها وغزارة مادتها مثل الجرائد التى كانت تأتيه من أوربا [illegible] ، وقد تعاقب على تحريرها منذ إنشائها نخبة من كبار

الأدباء من أشهرهم : أحمد فارس الشدياق والسيد شهاب الدين والشيخ رفاعة الطهطاوى والشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان »[1] .

وكان أسلوب المقالة فى تلك الحقبة متأثراً بأنماط الكتابة فى العصر العثمانى ولم يكن قد تخلص بعد من قيود الصنعة وأثقال الحلية اللفظية ويمثل ذلك بعض كتابات الشيخ محمد عبده فى طوره الأول قبل التقائه بجمال الدين الأفغانى منها مقال « الكتابة والقلم » الذى نشره له الأهرام فى سبتمبر سنة ١٨٧٦ يقول فيه : « ولما انتشر نوع الإنسان فى أقطار الأرض ، وبعد ما بينهم فى الطول والعرض ، مع ما بينهم من المعاملات ، ومواثيق المعاقدات ، احتاجوا إلى التخاطب فى شئونهم ، مع تنائى أمكنتهم ، وتباعد أوطانهم ، فكان لسان المرسل إذ ذاك لسان البريد ، ومايدريك هل حفظ ما يبدىء المرسل وما يعيد وإن حفظ هل يقدر على تأدية مايريد ، بدون أن ينقص أو يزيد ، أو يبعد القريب أو يقرب البعيد ، فكم من رسول أعقبه سيف مسلول ، أو عنق مغلول ، أو حرب تخمد الأنفاس ، وتعمر الأرماس فالتجئوا إلى استعمال رقم القلم ووكلوا الأمر إليه فيما به يتكلم »[1] .

ثم تحرر أسلوب المقالة وبخاصة ذات الموضوع الاجتماعى لطبيعة ماتعبر عنه من فكر وما تشرحه من رأى وما تتطلبه من دقة ووضوح ، فمال بها الكتاب إلى الأسلوب المرسل وتخلصوا من ربقة السجع المتكلف والزخرف اللفظى الممجوج .

* * *

ونستطيع بعد أن عرضنا لأطوار الأدب المقالى فى الصفحات المتقدمة الانتهاء إلى أن المقالة غدت من أبرز ألوان الأدب الحديث وأكثرها فعالية وأطوعها قالباً للتعبير عن قضايا الفكر والفن والمجتمع والحياة الإنسانية عامة . فهى قطعة نثرية تتناول جزئية من جزئيات التفكير الإنسانى وتعبر عن تجربة كاتبها ورؤيته الخاصة وقد تحكى موقفا عرض له أو خاطرة ألحت عليه ، أو انطباعاً يودّ التعبير عنه ، أو تعليقا على قضية مثارة أو حادثة لها دلالتها أو حقيقة هداه إليها تأمله ... وهى

بهذا التنوع والشمولية تستوعب كثيراً من تجارب النفوس وخطراتها ، وتعبر عن نتاج العقول وإبداعاتها ، وتلاحق ظواهر الحياة ومشكلاتها ، وتثرى الوعى الإنسانى وترفده بفيوض من المعارف والثقافات ، ولذلك كله كانت المقالة من أهم أجناس الأدب الحديث تأثيراً و خطراً إذا أتيحت لها الحرية الكاملة فى النشر ، وتولى أمر تحريرها والقيام على إعدادها ذوو الفكر النابه والرأى الحر والهدف الاصلاحى الشريف المبرأ من الهوى الشخصى أو الضغينة المرذولة .

وليس باستطاعتنا أن نحصى الآثار المهمة التى تركتها المقالة على حياتنا العصرية فى شتى مجالاتها ، وستقدم لنا الفصول التالية بعض تلك الآثار فيما يتعلق بالقضايا الاجتماعية التى ناضل الزيات فى سبيلها ، بيد أننا يمكننا أن نقرر فى اطمئنان أن كثيرا من مظاهر التحول فى حياتنا الاجتماعية والسياسية والأدبية يعود جانب كبير منه إلى تأثير الأدب المقالى فى جمهور القراء وإقناعهم بأهمية التغيير ، وصرفهم عن مواضع الخطأ ووهدات التخلف ، وقيود الأفكار الخاطئة والعادات المرذولة والسلوك غير السوى فالمقالة كانت بلا ريب أداة مهمة من أدوات الاصلاح ، وسلاحاً مصلتا على التردى والتخلف فى شتى مناحى الحياة ، وكانت فضلا عن ذلك كله المعبر الذى انتقلت حياتنا الثقافية والفكرية عبره إلى عالم رحب فسيح حافل بمجالى النفس ، وممتعات العقل والوجدان ومبتكرات العلم والمعرفة ومستحدثات العصر وأفانينه بعد أن كنا ندور فى ركن آسن ونجترّ صوراً باليات من التعبير تحجب عن عقولنا انفساح الأفق وتصفق دون بصرنا المتطلع ستوراً من الملق والزيف .

ولعلنا نستطيع أن نلمح أهمية الدور الذى لعبته المقالة فى حياتنا الثقافية والاجتماعية من خلال استعراض الكتابات المهمة التى كانت تنشر فى الصحف والمجلات لكبار الكتاب وأصحاب الأقلام والتى غدت بعد ذلك مرجعا فى بابها وعلامة بارزة على عصرها ويتمثل ذلك بوضوح وبصفة خاصة فى النصف الأول من هذا القرن حيث كانت كتابات طه حسين مثل سلسلة حديث الأربعاء التى جمعت بعد ذلك فى كتاب ومقالات الزيات فى الرسالة التى جمعت فى وحى

الرسالة وكذلك مقالات أحمد لطفى السسيد وهيكل والرافعى وأحمد أمين والعقاد والمازنى وغيرهم ، وهى تتجه اتجاهات متنوعة وتتناول قضايا سياسية واجتماعية وتاريخية ودينية وأدبية ونقدية . وقد تركت آثاراً عميقة فى الفكر والشعور وأحدثت نشاطاً ثقافياً بالغ الأهمية فى حياتنا استقى منه جمهور المستنيرين وعامة القراء زادهم الفكرى واغتذت من فيضه العميم عقول وأفهام السواد الأعظم من الشعب المصرى وتأسس على نتاجه رأيهم العام .

* * *

الخواص الفنية لأدب المقالة :

وضع الباحثون فى الأدب العربى قواعد عامة لفن المقالة استخلصوها من تقريرات بعض الأدباء والنقاد الأوربيين الذين كانت لهم الريادة فى تأصيل هذا الجنس الأدبى فى النثر الفنى الحديث .

فالكاتب الانجليزى جونسن يعرف المقالة بأنها : « نزوة عقلية لاينبغى أن يكون لها ضابط من نظام . هى قطعة لا تجرى على نسق معلوم ولم يتم هضمها فى نفس كاتبها . وليس الإنشاء المنظم من المقالة الأدبية فى شىء » .

ويعرفها « مورى » بأنها : « قطعة إنشائية ذات طول معتدل تدور حول موضوع معين أو حول جزء منه » (٢) .

وهى عند « ادموند جوس » : قطعة إنشائية ذات طول معتدل تكتب نثرا ، وتلم بالمظاهر الخارجية للموضوع بطريقة سهلة سريعة ، ولا تعنى إلا بالناحية التى تمس الكاتب عن قرب » .

ويستخلص الدكتور محمد يوسف نجم من تلك التعريفات تعريفا شاملا للمقالة هو : أن المقالة الأدبية قطعة نثرية محددة فى الطول والموضوع ، تكتب بطريقة عفوية سريعة خالية من الكلفة والرهق » (٣) وشرطها الأول ـــ عنده ـــ أن

(١) جنة العبيط . زكى نجيب محمود ص ١٠ وأدب المقالة محمد يوسف نجم ٩٤

(٢) أدب المقالة ٩٤ .

(٣) المرجع السابق ٩٥

تكون تعبيرا صادقا عن شخصية الكاتب . وهذا التعريف ينطبق على المقالة بمعناها الضيق ويحتفظ لها بصفتها التى أرادها « مونتين » حين سماها « محاولة »[٣] .

ولا يعنينى فى هذا الكتاب أن أكرر القول حول مفاهيم المقالة وشروطها وأقسامها فلذلك موضعه من كتابات الباحثين فى تاريخ هذا الفن وإنما يعنينى هنا أن أوضح للقارىء مجمل ما وضعه النقاد لفن المقالة من أصول وما اشترطوه فيها من شروط ليتسنى لنا بعد ذلك تقويم النتاج المقالى الذى أبدعه أحمد حسن الزيات فى مجال القضايا الاجتماعية .

لعل فى تعريف « جونسن » للمقالة نفاذاً إلى أخص خصائصها الفنية وأبرز ملامحها المميزة فهو يفرق بين المقالة بحسبانها قطعة أدبية ممزوجة بنفس كاتبها ومزاجه ورؤيته الخاصة وبين البحث الإنشائى المنظم الذى يرتب منشئه أجزاءه ويلم بجوانبه موضوعه ويجيل فيها النظر ويستقصى الفكرة ويضبط الأقيسة ويختبر الظواهر ويحدد المفاهيم ويستخلص النتائج ، لأن ذلك كله ينحو به منحى علميا ويستغرق جهده وطاقاته ويبتعد به عن حوزة التجربة الذاتية التى تبدو أكثر حضوراً وظهوراً عندما يطلق الكاتب لنفسه العنان فى الثرثرة والتقاط الصور الدالة والإبانة عن الخطرات النفسية المتوثبة .

وهذا المعنى بعينه هو الذى قصده « جونسن » فى تعريفه للمقالة وهو الذى جعل الدكتور زكى نجيب محمود يشايعه فى حماسة شديدة وينتقد تأسيساً على ذلك مسلك أدبائنا المحدثين فى أسلوب مقالاتهم وطريقة فهمهم لخصائص هذا الفن إذ يقول بعد أن ذكر تعريف جونسن للمقالة : أين هذا من المقالة الأدبية فى مصر ؟ لقد سمعت أديبا كبيرا يسأل أديبا كبيرا مرة فيقول :

هل قرأت مقالى فى « هلال » هذا الشهر ؟

فأجابه : أن نعم ، فسأله : وماذا ترى فيه ؟ هل ترانى أهملت نقطة من نقط الموضوع ؟ فأجابه قائلا : العفو ، وهل مثلك من يهمل فى مقالة يكتبها شاردة أو واردة ؟! .. هذه هى المقالة عند قادة الأدب : أن تكون موضوعا إنشائيا مدرسيا كل فضله أنه جميل اللفظ ، واسع النظر ، فالفرق بين مقالة الأديب وموضوع التلميذ فرق فى الكم لا فى الكيف ... فلله درك يامعلم اللغة العربية فى المدارس المصرية ! إنك لتتعقب بتأثيرك شيوخ الكتاب بين كتبهم وأوراقهم ، كأنى بك تضغط على أذن الكاتب بين إبهامك وسبابتك حين يحمل قلمه ليكتب ، مذكرا إياه : هل وفيت نقط الموضوع ؟ أين نقط الموضوع ؟! .

كلا ، ليس للمقالة الأدبية ، ولا ينبغى أن يكون لها نقط ولا تبويب ولاتنظيم ، فإن كانت كذلك ، فلا عجب أن ينفر القارئون — أيها الأدباء — من قراءة ماتكتبون ! لا تعجبوا ياقادة الأدب المصرى ألا يقرأكم إلا قلة قليلة من طبقة القارئين ، لأنكم تصرون على أن يقف الكاتب منكم إزاء قارئه موقف المعلم لاالزميل ، موقف الكاتب لا المحدث ، موقف المؤدب لا الصديق ، ويصطنع الوقار فلا يصل نفسه بنفسه ، وإلا فحدثنى بربك أى فرق يجده القارىء بين الصحيفة الأدبية والكتاب المدرسى ؟ »[١] .

ثم يتابع الدكتور زكى نجيب محمود عرض رأيه فى المفهوم الصحيح للمقالة الأدبية قائلا :

« فكاتب المقالة الأدبية على أصح صورها . هو الذى تكفيه ظاهرة ضئيلة مما يعج به العالم من حوله ، فيأخذها نقطة ابتداء ، ثم يسلم نفسه إلى أحلام يأخذ بعضها برقاب بعض دون أن يكون له أثر قوى فى استدعائها عن عمد ، حتى إذا ماتكاملت من هذه الخواطر المتقاطرة صورة عمد الكاتب إلى اثباتها فى رزانة لاتظهر فيها حدة العاطفة ، وفى رفق بالقارىء حتى لاينفر منه نفور الجواد الجموح ، لأن واجب الأديب الحق أن يخدع القارىء كى يمعن فى القراءة كأنما

(١) جنة العبيط ص ١٠ وما بعدها .

هو يسرى عن نفسه المكروبة عناء اليوم أو يزجى فراغه الثقيل ، وهو كلما قرأ تسلل إلى نفسه ماشاع فى سطور المقالة من نكتة خفية وسخرية هادئة ... فإذا بالقارىء آخر الأمر يضحك ، أو يتأثر على أى صورة من الصور ... ولكنه لن يلبث حتى يتبين أن هذا الذى عجب منه إنما هو جزء من نفسه أو نفوس أصدقائه ، فيضجره أن يكون على هذا النحو السخيف ، فيكون هذا الضجر منه أول خطوات الاصلاح » [1] .

وينتقل المفكر الكبير بعد ذلك لبيان حدود المقالة الأدبية من حيث الشكل والمضمون ، فيؤكد على ضرورة أن يكون أسلوب المقالة عذبا سلسا دفاقا ، وألا يبالغ كاتبها فى زخرفة العبارة أو تشذيب اللفظ لأن ذلك يتنافر مع طبيعة السمر المحبب ، وفيما يتعلق بالمضمون يقرر أن المقالة لايجوز أن تبحث موضوعا مجرداً كأن تبحث مثلا فضل النظام الديمقراطى أو معنى الجمال أو قاعدة فى علم النفس والتربية لأن ذلك يبعدها عن روح المقالة بمعناها الصحيح ، إذ لابد أن تعبر المقالة عن تجربة مست نفس الأديب فأراد أن ينقل الأثر إلى نفوس قرائه ويؤكد الدكتور زكى نجيب محمود على أن المقالة بمفهومها الصحيح ليست ضربا هينا من الكتابة الأدبية ، وأنها لابد أن تكون نقدا ساخرا لصورة من صور الحياة أو الأدب وهدماً لما يتشبث به الناس على أنه مثل أعلى ، وما هو إلا صنم تخلف فى تراث الأقدمين [2] .

ويتضح مما ذكره الدكتور زكى نجيب محمود عن مفهوم المقالة أنه يعنى المقالة الأدبية الذاتية وهو متأثر فى فهمه لها بتحديدات الرواد الأول لهذا الفن فى أوربا ، إذ كانت المقالة فى نظرهم معرضا لابراز التجارب الأدبية الخالصة ، فهى تشبه القصيدة الغنائية من حيث إيغالها فى الذاتية وتعبيرها عن شخصية كاتبها وإبانتها عن أحاسيسه وشعوره . والفارق بينهما فى القالب والصياغة .

والمقالة بهذا المفهوم الأدبى الدقيق لم تشع فى أدبنا العربى الحديث إلا فى نطاق

---

(١) المرجع السابق ص ١٢ ، ١٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣ وما بعدها .

محدود ، ولدى بعض المتخصصين ، أما كثرتها الكاثرة فتعالج أموراً موضوعية بلوّنها الكاتب بخواطر ذاتية ويكشف من خلالها عن أحاسيسه وشعوره وشخصيته .

ويقسم المنظرون لفن المقالة المقننون له تأسيساً على مفهوما الأدبى الدقيق المقالة على تنوع صورها إلى قسمين أساسيين هما :

١ ــ المقالة الذاتية .

٢ ــ المقالة الموضوعية .

فالمقالة الذاتية هى التى تقترب من المعنى الحقيقى للمقالة بمفهومها الأدبى الدقيق وتتنوع بعد ذلك من حيث مجالها العملى إلى نوعيات كثيرة منها :

١ ــ المقالة الشخصية :

« وهى تعبير فنى صادق عن تجارب الكاتب الخاصة والرواسب التى تتركها انعكاسات الحياة فى نفسه وهى فى أحسن حالاتها ضرب من الحديث الشخصى والثرثرة والمسامرة ، والاعتراف والبوح ... ولكنها تمتاز إلى جانب ذلك بروعة المفاجأة ، وتوقد الذكاء وتألق الفكاهة ولا تخلو من السخرية الناعمة أو الحادة[١] .

٢ ــ مقالة النقد الاجتماعى :

« وقوامها نقد العادات الناخرة ، والتقاليد البالية التى ترسبت فى المجتمع على مدى الدهور ، ولا تعفى الأزياء الطارئة والبدع المستحدثة من سخريتها ... وعدة الكاتب فى هذه المقالات ملاحظة دقيقة وقدرة على إحكام الوصف وإجادة التحليل ، واتزان فى الحكم وعمق فى التأمل ، وبراعة فى التهكم والسخرية »[٢] .

٣ ــ المقالة الوصفية :

وتعتمد قيمتها الحقيقية على دقة الملاحظة وعلى التعاطف العميق مع

(١) فن المقالة ١٠٣ .

(٢) المرجع السابق ١٠٨ .

الطبيعة... ثم على الوصف الرشيق المعبر الذى ينقل أحاسيس الكاتب وصورة الطبيعة كما تنعكس على مرآة نفسه بصدق وإخلاص . والغاية الأولى فى مثل هذه المقالات هى تصوير البيئة المكانية التى يعيش فيها الكاتب كما تتراءى لإنسان عميق الاحساس حاد البصر ، نافذ البصيرة » (١) .

٤ ــ وصف الرحلات :

« وقيمتها فى أنها تصور لنا تأثر الكاتب بعالم جديد لم يألفه ، والانطباعات التى تركها فى نفسه ناسه وحيوانه ومشاهده الطبيعية وآثاره ... فالرحلة فى نظره ليست سوى تجربة إنسانية حية يتمرس بها ويجعل التعرف إلى دقائقها واستكناه خفاياها وكده ، فيخرج منها أكثر فهما وأصدق ملاحظة وأغنى ثقافة وأعمق تأملا » (٢) .

٥ ــ مقالة السيرة :

« وهى صورة حية لإنسان حىّ تختلف عن الترجمة فى النوع والدرجة الفنية فكاتب التراجم يعنى بجمع المعلومات وتنسيقها وعرضها عرضا علميا واضحا ولكنه يتوارى خلف موضوعه . ولايحاول أن يكشف الغطاء عن شخصيته فى كثير أو قليل أما كاتب السيرة المقالية فإنه يصور لنا موقفا إنسانيا خاصا من شخصية إنسانية فيعكس لنا تأثره بها وانطباعاته الخاصة عنها ، ويحاول أن يخطط معالمها الانسانية تخطيطا فنيا واضحا معتمداً على التنسيق والاختيار بحيث تتراءى لنا الشخصية الموصوفة وكأنها حية متحركة تحدثنا ونصغى لها ، وتروقنا بعض صفاتها فنعجب بها أو تسوءنا فننفر منها ومقالة السيرة بالنسبة إلى السيرة الكبيرة كالأقصوصة بالنسبة إلى القصة » .

٦ ــ المقالة التأملية :

« وهى تعرض لمشكلات الحياة والكون والنفس الانسانية ، وتحاول أن تدرسها

(١) المرجع السابق ١١٤ .

(٢) المرجع ١١٥ .

درسا لايتقيد بمنهج الفلسفة ونظامها المنطقى الخاص ، بل تكتفى بوجهة نظر الكاتب وتفسيره الخاص للظواهر التى تحيط به »[1] .

وللمقالة الذاتية تصميم فنى عرفه « والترباتر » بقوله :

« هو ذلك التصور البنائى للموضوع الذى يرهص بالنهاية منذ البداية ولايرفع عينه عنها ، وهو فى أى جزء من الأجزاء يلتفت إلى الأجزاء الأخرى إلى أن تكشف العبارة الأخيرة من كنه العبارة الأولى وتبرر وجودها دون أن تحس بأى فتور »[2].

وهذا التصميم أو البناء المتكامل للمقالة يتألف من مقدمة وعرض وخاتمة تكون المقدمة تمهيداً للموضوع وإرهاصا بأهميته ثم يأتى العرض فيبسط جوانب المشكلة المثارة أو الخاطرة الملحّة أو الرؤية الشفيفة وتأتى الخاتمة بعد ذلك لتلخص العبرة وتستخلص الدلالة وتقدم الثمرة. أما أسلوب المقالة الذاتية فهو الشق الآخر من الصورة الفنية الظاهرة لها ويصف « والتر باتر » التصميم بأنه « الفعل فى الأسلوب» أما الصورة الفنية للعمل الأدبى فهى على حد قوله « الروح فى الأسلوب » ويعنى بها الطريقة التى يعمد إليها بعض الكتاب فى اصطناع اللغة واستغلال طاقاتها التعبيرية ، بحيث تستطيع أن تعبر عن تلك الروح التى ترفرف فى نفوسهم قلقة حائرة تريد الانطلاق »[3] ، ويحدد « روبرت ستيفنسون » العناصر الفنية لأسلوب المقال فيذكر أنها تقوم على العناصر التالية :

١ ــ اختيار الجمل وتنسيقها .
٢ ــ تركيب الجمل .
٣ ــ إيقاع العبارات .
٤ ــ مضمونها .

« ويرى أن العنصر الأول هو أقل هذه العناصر شأنا ، وأهم منه فى نظره تركيب الجمل أو نسجها على حد تعبيره ، لأنه يرى أن الغاية الأولى والأخيرة فى كل فن

(١) المرجع ١١٨ .

(٢) المرجع ١٢٠ .

(٣) فن المقالة ١٢٢ .

من الفنون هى إبداع الصورة الفنية ، ويرى أيضا أن المهمة الحقيقية للكاتب ، هى تضفير معانيه وتنسيقها فى نسيج محكم السرد ، بحيث تتوالى الجمل والعبارات فى سلسلة واحدة مستمرة ، ثم تأخذ فى التكشف والانجلاء »[1] .

والمقالة الذاتية بهذه المفاهيم التى سقناها من مواضعات النقاد الأوربيين لها أدخل فى ميدان الأدب وأشد لصوقاً به بل هى تمثل فى عصرنا الحديث النثر الفنى الخالص الذى تكتمل له قيمته الفنية دون حاجة إلى معاونة فنون أخرى له فى تأدية مهمته التوصيلية بين الأديب والمتلقى وهى بهذا المفهوم تقترب إلى حد كبير من القصيدة الغنائية التى تنبع من وجدان الأديب وتصور أحاسيسه وتلخص تجاربه فى الحياة وتفاعله مع ظواهرها وانعكاسات علاقاته بالناس والطبيعة وحقائق الوجود فى نفسه ومن ذلك كله تكتسب قيمتها الفنية بحسبانها رؤية لماحة ونفثة ملتاعة وخاطرة جاشت بها نفس كاتبها وفاضت بها روحه بعد أن قوّم اعوجاجها عقله النابه وقريحته الوقادة .

المقـــالة الموضوعية :

وهى تختلف عن المقالة الذاتية فى أن التركيز فيها يكون متجها بصفة أساسية إلى الموضوع الذى يتنوع بين أن يكون بحثا علميا أو فلسفيا أو اجتماعيا أو أخلاقيا أو تاريخيا . ولايربطها بالمقالة بمفهومها الأدبى الدقيق سوى اصطناع الأسلوب والبناء العام وتختفى فيها إلى حد كبير الجوانب الذاتية والتعبير عن شخصية كاتبها أو رؤيته الخاصة . وتعد هذه النوعية من المقالات أثرا لنجاح أسلوب المقالة الأدبية فى عرض الحقائق ومبلغ تأثيرها فى القراء . فالباحثون والعلماء إذاً استعاروا رداء المقالة ليظهروا من خلاله نتاجهم العلمى رغبة فى امتاع قرائهم وأملا فى جذبهم إلى تفهم ما يؤدونه إليهم دون إملال وإثقال .

ويحدد الأستاذ أحمد الشايب خطة المقالة الموضوعية فى أنها تقوم على « المقدمة والعرض والختام . فالمقدمة تتألف من معارف مسلم بها لدى القراء قصيرة متصلة

(١) فن المقالة ١٢٤ .

بالموضوع معينة على فهمه بما تعدّ النفس له وما تثير فيها من معارف تتصل به . والعرض أو صلب الموضوع ــ هو النقط الرئيسية أو الطريقة التى يؤديها الكاتب سواء انتهت إلى نتيجة واحدة أم عدة نتائج هى فى الواقع متصلة معا ، وخاضعة لفكرة رئيسية واحدة ، ويكون العرض منطقيا مقدماً الأهم على المهم ، مؤيداً بالبراهين ، قصير القصص أو الوصف أو الاقتباس ، متجها إلى الخاتمة لأنها مناره الذى يقصده . والخاتمة ــ هى ثمرة المقالة وعندها يكون السكوت ، فلابد أن تكون نتيجة طبيعية للمقدمة والعرض واضحة صريحة ، ملخصة للعناصر الرئيسية المراد إثباتها ، حازمة تدل على اقتناع ويقين ، لا تحتاج إلى شيء آخر لم يرد فى المقالة » [1] .

---

(١) الأسلوب ٩٤ ، ٩٥ .

الفصل الثالث

الزيات وأدب المقـــالة

يعد الزيات أحد أعلام الرعيل الأول من جيل العمالقة الذين قامت على أكتافهم حركة الفكر الحر ، والنهضة الأدبية والثقافية فى النصف الأول من القرن العشرين ، وهو فى ذلك ترب طه حسين والعقاد والمازنى وهيكل والرافعى وأحمد أمين وغيرهم ممن حملوا لواء الصحوة الاصلاحية وأرسوا دعائم اليقظة الشاملة ، وتفتحت عيونهم على الثقافات الإسلامية والعربية الأصيلة ، وأضافوا إليها إطلاعا واعيا على الثقافات ومناهج البحث عند الغربيين فأفادوا من عطاءاتها النافعة .

ولعل القارىء يشاركنى الرأى فى أن الزيات لم يحظ من الشهرة وذيوع الصوت بمثل ما حظى به بعض أعلام جيله على الرغم مما تميز به نتاجه الفكرى والأدبى من صفات الأصالة ودلائل استقلالية الفكر ، واستواء الرأى . وتفسير ذلك — فى اجتهادى — أن الزيات كان هادىء الطبع ، متزن العقل ، راجح الحلم . هذا من حيث صفاته الشخصية ، يضاف إلى ذلك أنه كان منصرفا بطبعه عن تيارات الحياة السياسية فلم يخض غمارها ولم يشأ أن يجازف بمصارعة لججها ، ومن ثم أخذت جهوده وإبداعاته طابعا خاصا ، ولم تحدث من الدوىّ ، أو تجتلب من المعارك مثل ما نالته مواقف وكتابات غيره كالعقاد وطه حسين ومع ذلك فليست جهود الزيات وآراؤه الاصلاحية ، وإسهاماته الأدبية والفكرية بأقل ولا أهون شأنا من جهود رفاقه . بل لعلى لا أكون مسرفاً إذا قررت أن منهج الزيات فى الإصلاح والإبداع من أعدل المناهج وأصوبها وألصقها بتراث أمتنا وقيم مجتمعاتنا ، فكتاباته وآراؤه تميزت بارتفاعها عن سرف الهوى ، وجموح العناد وحب الإغراب وشهوة المخالفة ، كما هو الحال عند طه حسين بصورة سافرة أو عند العقاد وأحمد أمين على استحياء . كما أن الزيات لم يسرف فى التقليد والمحافظة كما فعل الرافعى .

فهو إذاً نمط فريد فى فكره ورأيه وإبداعه . نمط يستأهل من جيلنا الذى تابع واستوعب معارك هؤلاء الرواد ، وخبر ماشاب أفكارهم من شطط ، وما داخلها من زلل أن يدرس نتاجه المتزن ، ويتفرس منهجه القويم ويستفيد من فكره القاصد.

مولده ونشأته :

ولد أحمد حسن الزيات فى الثانى من شهر إبريل عام ١٨٨٥م فى قرية « كفر دميرة القديم » من قرى مركز طلخا بالقرب من المنصورة ، من أسرة ريفية مصرية صميمة ، بدأ حفظ القرآن الكريم فى كتّاب القرية فى الخامسة من عمره وأتم حفظه فى نحو الحادية عشرة ، ثم التحق بالأزهر فى سن الثالثة عشرة . وكانت مرحلة النشأة الأولى ذات تأثير بيّن فى فكر الزيات وشعوره وأمدته فى مراحل النضج والشهرة بفيوض من التأملات وعديد من الصور مما يدل على بعد تأثيرها عليه واستقرارها فى أعماق وجدانه فقد تفتحت عيناه فى نشأته الأولى على صور وأحداث الحياة فى قريته وما جاورها من القرى وعاين عن كثب ألوان المعاناة التى كان الكادحون من أبناء الريف يتحملونها ، وصنوف الطغيان الذى يناهم من جبابرة الإقطاع وزبانيتهم ، وكانت البيئة التى درج الزيات على مهادها تعانى أقسى أنواع التسلط ، فقد أطبق الإقطاع عليها من شتى نواحيها . ولم يقتصر تأثر الزيات ببيئته الريفية الأولى على تلك الصور القاتمة ، بل اتسعت مداركه اللماحة ووعت روحه الشفيفة صوراً متنوعة لمعالى الخصال والعادات ونوازع النقص والغفلة وطبائع الفطرة النقية لدى من اختلط بهم وانطبعت فى نفسه ملامحهم ومناحى سلوكهم .

وكانت تلك الصور بجانبيها : القاتم والوضىء معينا خصبا ، ورافدا ثرًّا أمد قلم الزيات — فيما بعد — بروائع وبدائع التأملات ، ودقائق الفكر والتحليل .

ثقافته — أعماله — اهتماماته الأدبية والفكرية :

درس الزيات فى الأزهر ، ونهل من علومه ، وتشبع من ثقافاته الأصيلة ، وظهر ميله إلى الأدب واللغة ، وشغفه بالشعر والبيان منذ بواكير عهده بالطلب، وقد تميزت الحقبة التى تفتحت فيها مداركه العقلية بأن روح التجديد أخذت تسرى فى

كيان الناجهين من شيوخ الأزهر والكثرة الغالبة من شبيبته بتأثير دعوة الأستاذ الإمام محمد عبده الإصلاحية ، وكان الزيات زميلا ملازماً لطه حسين ومحمود زناتى ، وكتب عن ذلك العهد صفحات عديدة فى الرسالة وغيرها وصف فيها أبعاد تلك الحقبة فى نفسه وعقله ، وحكى ذكرياتها ، وتحدث عن شيوخه الذين أفاد منهم وتأثر بهم ، وذكر كثيرا من الطرائف والمواقف التى جرت والمعارك التى نشبت ، والصراع الذى دارت رحاه .

كتب عن رفيقى دراسته بالأزهر طه حسين ومحمود زناتى قال : « كنا ثلاثة ألفت بيننا وحدة الطبع والهوى والسن فالطبع مرح فكه ، والهوى درس الأدب وقرض الشعر ، والسن فتية لاتتجاوز السادسة عشرة ، وكان طه قاعدة المثلث ومحمود وأنا ضلعيه القائمتين ، أو كان المبرد صاحب الكامل قلب الطائر والزمخشرى صاحب الكشاف وثعلب صاحب الفصيح جناحيه الخافقين ، وتلك كانت ألقابنا على الترتيب ، لقب بها بعضنا بعضا ، لنزعة فنية ، أو فكرية كان ينزعها كل منا فى نظر أخويه ... كنا ننتقل من حلقة العلم إلى درس الأدب ، ومن مجلس الشعر إلى دار الكتب ، ومن دار الكتب إلى الجامعة المصرية القديمة ، ومن الجامعة إلى إدارات الصحف ، نعرض عليها ما كنا نسميه يومئذ شعرا ثم ننتهى إلى دار أحدنا فنتدارس ما حصلنا من علم ، ونتذاكر ماحفظنا من أدب ، ونتنادر بما سمعنا أو رأينا من تحف ، فإذا أخطأنا أو نسينا لجأنا إلى ذاكرة طه العجيبة فتعيد ما وعت لاتخرم منه حرفا فنصحح أو نستكمل أو نستعيد ، وإذا سئمنا أو ونينا فزعنا إلى حافظة محمود الخصيبة فيسرى عن خواطرنا بمقطعات من أعذب النوادر ، يحكيها عن نفسه أو يرويها عن أبيه ، أو ينقلها عن حياته »[1] .

وكتب الزيات عن شيوخه ومن أبرزهم الشيخ سيدبن على المرصفى الذى تتلمذ الزيات عليه فى الأدب ونقده والشيخ محمد محمود الشنقيطى الذى كان الزيات معجبا بتضلعه فى اللغة وتمكنه من دقائقها وتمحيصه لغرائبها وأسرارها .

وكانت جرأة الزيات وزميليه طه حسين ومحمود زناتى ، ونزوعهم إلى حرية

(١) وحى الرسالة ٣ / ١٦٥ ، ١٦٦ .

الفكر ونبذهم لجمود التقليد سببا فى فصل ثلاثتهم من الأزهر بسبب موقفهم من قضية الخلاف حول الحجاج بين بن يوسف فى حديثه عن الطواف بقبر الرسول ﷺ إذ كفره بعض الشيوخ وجمهرة الطلاب ورأى الزيات وزميليه أنه لم يكفر وإنما أساء الأدب وأخطأ التعبير وذلك يوجب التعذير لا التفكير فعوقب ثلاثتهم بالفصل وهم فى السنة النهائية من الدراسة ، ثم شفع لهم الأستاذ أحمد لطفى السيد لدى الشيخ حسونه النولوى شيخ الأزهر فألغى قرار الفصل .

اتجه الزيات كما فعل طه حسين إلى الجامعة الأهلية فدرس فى كلية الآداب ونال شهادتها وألمّ فى أثناء ذلك باللغة الفرنسية وعمل بعد تخرجه بالتدريس فى مدرسة الفرير ثم فى مدرسة الظاهر « وهى مدرسة وطنية أنشأها الشيخ عبدالعزيز جاويش لتقدم أنموذجا للدراسة الصحيحة بعيدة عن تأثير الاحتلال وعبث الانجليز ، وكان زملاء الزيات فى التدريس : فريد أبو حديد وعباس العقاد وابراهيم المازنى وأحمد زكى وعبد الحميد العبادى والغمراوى وغيرهم من صفوة الشبيبة الذين قادوا الحركة الأدبية فى مصر وبجهودهم نشأت لجنة التأليف والترجمة والنشر فقامت مقام جامعة كبرى تقدم للمثقف العربى روائع القديم والحديث ومفاخر الشرق والغرب فى دنيا الأدب والعلم والسياسة ، وفى مطبعتها ظهرت ترجمة الزيات لآلام فرتر ورفائيل وتعددت طبعات كتابه تاريخ الأدب ، وقد عرف مكانه فى الدوائر الثقافية فاختير رئيسا للقسم العربى بالجامعة الأمريكية سنة ١٩٢٢ م والتحق فى العام نفسه بمدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة حيث عكف على دراسة القانون دراسة واعية أهلته للنجاح فى امتحان الليسانس بباريس سنة ١٩٢٥ وهو نجاح كان يؤهله للمحاماة والقضاء إن شاء ولكنه اعتز بالأدب فجعله ميدانه الحفيل .

وقد ترك الجامعة الأمريكية ليسافر إلى العراق أستاذا للآداب العربية بدار المعلمين العليا ببغداد وكان صيته الأدبى قد سبقه إلى ديار الرافدين فاستقبل أحسن استقبال وظهرت الجرائد اليومية حاملة مقالات الترحيب بأستاذيته الأدبية... وقد كانت هذه الأيام مصدر سعادة نفسية وثروة قلمية للكاتب حيث

كتب إذ ذاك صفحات من ذكرياته تسجل أصدق الانطباعات وتصف أدق الخلجات .

ثم عاد إلى مصر فى أخريات سنة ١٩٣٢ وفى ظنه أن وعد أستاذه أحمد لطفى السيد مدير الجامعة المصرية إذ ذاك سيتحقق إذ يعينه أستاذا للأدب بكلية الآداب مع أحمد أمين والعبادى وزملاء الشبيبة فى مدرسة الظاهر ولجنة التأليف . ولكن أعاصير السياسة تهب ، فيستقيل مدير الجامعة ولايجد الزيات مكانه فى دارة العلم فيفكر فى إصدار مجلة الرسالة لتكون جامعة واسعة الذيوع وليكون الزيات مديرها الراسخ الذى لا تزعزه أعاصير السياسة باستقالة وإبعاد »[١] .

أصدر الزيات مجلة الرسالة سنة ١٩٣٣ وتفرغ لها فلم يدعها إلى وظيفة رسمية حتى احتجبت سنة ١٩٥٣ وكان الزيات قد اختير عضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٤٨ وتولى رئاسة تحرير مجلة الأزهر بعد احتجاب الرسالة ومازال دائبا على العمل حتى لقى ربه فى ١٦ من ربيع الأول سنة ١٣٨٨ هـ الموافق ١٢ من يونيه سنة ١٩٦٨ م .

منهجه فى الأدب المقالى :

رأينا أن الزيات أنشأ الرسالة واعتدها غاية جهاده الفكرى والأدبى ومنارة المعرفة الواعية التى نشد طوال عمره أن يستوحيها أبناء وطنه المصرى الصغير ووطنه العربى الكبير ثم وطنه الاسلامى الأكبر وقد نجحت الرسالة أيما نجاح لأنها — على حد تعبير الزيات :

« صادفت خلاء فشغلته ، وخللا فسدَّته ، وعبثا فحاولت أن تصد عنه بإيقاظ النخوة فى الرءوس ، والكرامة فى النفوس ، والرجولة فى النشء ثم سفرت بين الأدباء فى كل قطر من أقطار العروبة ، ثم قادت كتائب الفكر والبيان فى ميادين الاصلاح الأدبى والاجتماعى والسياسى على نهج من الدين والخلق »[٢] .

---

(١) أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد الأدبى ٢٣٣ وما بعدها (بتصرف) .

(٢) وحى الرسالة ٤ / ٧٢ .

ومن الحق أن « الرسالة » منحت الزيات الفرصة للعطاء الثر والنتاج الخصب والتأصيل الدقيق لما يعنّ له من أفكار ، ومايعتمل فى وجدانه من خواطر ، فكانت بذلك منبره الحر الذى يرتقيه على امتداد عشرين سنة متصلة فترمقه العيون ، وترهف له الأسماع ، وتطرب له النفوس ، وتغتذى من فكره العقول .

ومن الحق — أيضا — أن التواصل بين الزيات والرسالة كان فريدا من نوعه ، فقد أعطاها وأعطته ، وأفاض عليها ، وأفاضت عليه ، وأحبها وأحبته وأخلص لها وأخلصت له ، واشتهر بها واشتهرت به ... فأيهما كان أكثر عطاء لصاحبه ، ومن منهما أبلغ أثرا فى الآخر ؟ فى اجتهادى أن المأثرة ستنسب حتما للزيات ، فكم من أبناء جيله وكتاب عصره من أنشأ صحيفة أو مجلة وتولى إدارتها ، وأتيح له أن يسطر من خلالها ما شاء ، ولكن لم يكن من هؤلاء جميعا من بلغ بمنبره الحر مابلغه الزيات ، فليست القيمة إذاً فى أداة التعبير عن الرأى وإنما فى الكاتب الذى لديه من الامكانات مايستحوذ به على اهتمام القراء ويشبع نهمهم للمعرفة ، ويشعرون إذ يقرأون له أنه يعطيهم من جهده وفكره ويجعل شغله الشاغل فى إمتاعهم وإقناعهم وتنويرهم والارتقاء بهم .

لقد اختط الزيات لنفسه فى المقالات التى كان يصدر بها الرسالة — ويدور بحثنا هذا عن جانب منها — منهجا التزمه فى مقالاته كلها ، بل حرص على أن تكون مقالات الكتاب الذين تنشر لهم الرسالة منتمية إلى ذلك المنهج ، مراعية لخطوطه العامة .

ويهمنى هنا أن ألخص أبرز ملامح هذا المنهج ، ليتعرف قارىء هذا الكتاب على مبلغ ما تركه الزيات من أثر فكرى وجهد اصلاحى ، وريادة أدبية ، وانتماء وطنى .

ملامح المنهج :

١ — صدر الزيات فى مقالاته عن فكر حر ورأى مستقل وهدف سام وغاية نبيلة ، فلم تكبله قيود الحزبية ، ولم تجرفه تيارات السياسة ، ولم يتملق بما كتبه أحداً ولا هدف من ورائه لمطمع . ومن ثم أتت معالجاته لما يدير حوله مقالاته من قضايا

أو مشكلات نابعة من فكره ومستقاة من اجتهاده ومعبرة عن قناعته الذاتية .

٢ ـــ تميزت أفكاره التى بنى عليها مقالاته بالعمق ودقة التحليل ؛ فهى نتاج معاناة صادقة ، وتأمل واع ، وقد أدرك ذلك كبار مفكرى عصره ومقدرى جهده . كتب الأستاذ زكى مبارك فى تقريظ مقالاته عندما أخرج الزيات الجزء الأول من « وحى الرسالة » يقول مخاطبا الزيات :

« ... وما عاودت النظر فى كتابك إلا تفزعت إشفاقا عليك فهو يشهد بأنك شديد الاحساس بالوجود . والذى يصف المجتمع وهو فى مثل حالك يستأهل الإشفاق ، لأنه يعانى البلاء بمحنة المجتمع وهو يحمل روح المصلح . ولايعزينى إلا الشعور بأن الذين يشقون فى الطب لأمراض المجتمع هم فى حقيقة الأمر من أعظم السعداء وأنت فى الطليعة بين كتابنا المصلحين ، وإنك لعزيز علينا أيها الشقى السعيد » [١] .

٣ ـــ بنى الزيات فكره الإصلاحى على محاور ثابتة ، وأسس راسخة وتميزت آراؤه بالاستواء والنضج ، وتلك نتيجة لازمة لصدق التأمل وعمق المعاناة ، يضاف إليها سعة الثقافة وعراقة الخبرة وحكمة التجربة والتواصل الفكرى مع صفوة مفكرى عصره ودعاة الإصلاح واليقظة ، والرغبة القوية فى تلك المعالى ، والترفع عن صغائر الأمور ، ومثبطات الهمم .

ومن أبرز تلك المحاوز :

(ا) الاستضاءة بهدى الاسلام والقناعة بعظمة مبادئه والتأكيد على قيمه ومثالياته وإبراز جوانب العظمة فى منهجه وجدوى العودة إلى حماه والتمسك بأهدابه .

(ب) الاعتزاز بالتراث العربى والحضارة الاسلامية وإبراز قيمها ، والدعوة إلى الابقاء على الصالح منها .

---

(١) وحى الرسالة ١ / ٤٩٩ .

(حـ) الانفتاح على فكر الأوربيين وتأمل ما فيه من معالم الأصالة والصدق والتنبه لما يعترى بعضه من الزلل والجنوح عن القصد والدعوة للإفادة من عطاءاته المثمرة .

(د)ملاحقة الظواهر السلبية فى مختلف مناحى النشاط الانسانى فى مصر خاصة والعالمين العربى والاسلامى عامة فى السلوك والفكر والعادات وموقف هؤلاء وأولئك من حضارة الأوربيين وتسلطهم البغيض . وبث روح المقاومة وبعث الهمم للعمل الجاد والفكر الراشد .

(هـ) السمو فى التعبير والحرص على الأداء القوى الذى يبرز الفكرة ويجلو الحقيقة الناصعة .

٥ ــــ كان الزيات موضوعيا فى مقالاته فلم يسرف فى التعلق بأفكار خيالية أو آمال متوهمة ، بل عالج القضايا التى تناولها بروح العالم وفكر العاقل وخبرة المجرب فأتت آراؤه التى طرحها وأفكاره التى دعا إليها واقعية مقنعة ممكنة التحقيق .

٦ ــــ « استطاع صاحب الرسالة أن ينبه العيون المتطلعة إلى مشرق ساطع من مشارق البيان العربى . وقد جمع حوله من أعلام الفكر فى مصر والأقطار الشقيقة من بلغوا الاتقان الكامل والقدرة الصحيحة على إرسال القول صائبا سديدا ، هادفا حيا ، ملهما موحيا ، بحيث أصبح مشتهى النفوس ، ومطمأن الأرواح ، وبحيث صارت الرسالة دوحة الأدب الزاهر ومورد العقل الناهل وهى بذلك كله كانت رسول النهضة ورائد الإصلاح » [١] .

(١) الزيات بين البلاغة والنقد الأدبى ٢٣٥ .

البـــاب الثانى

قضايا المقال الاجتماعى فى أدب الزيات

الفصل الأول : قضية الإقطاع والتميز الطبقى .

الفصل الثانى : الفقر والجهل والمرض .

الفصل الثالث : الفساد الإرادى فى الدولة .

الفصل الرابع : النقائص المرذولة والقناعات الزائفة .

الفصل الخامس : تحرير المرأة والارتقاء بها .

الفصل السادس : دور الاسلام فى إصلاح المجتمع .

قضايا المقال الاجتماعى عند الزيات

تمهيـــــد :

عنى الزيات فى كتاباته بقضايا المجتمع المصرى فى عصره ويستطيع المتصفح لمقالاته التى أفرغ فيها عصارة فكره ووقف عليها قلمه الثر المعطاء طيلة حياته أن يلحظ أن تلك القضايا توشك أن تكون شغله الشاغل وأن التحدير من مخاطرها وبحث وسائل الخلاص من أضرارها كان نصب عينيه بل لانعدو الحقيقة إذا قررنا أن الزيات جعل تحرير تلك القضايا والدعوة إلى التخلص من سلبياتها رسالته الفكرية الأولى . وما كانت « الرسالة » المجلة إلا وسيلة مثلى للتنوير الفكرى والجهاد الاجتماعى الذى يتأسس على نشر الفكر الإصلاحى وبث الوعى بالرأى القويم والحجة البليغة ، وعرض الحلول الصالحة ، وطرح المقترحات الناجعة لعلاج الأدواء دون صخب أو ضجيج ، وبعيدا عن منزلقات السياسة . ومهاترات الحزبية ، وسفولية التشهير الرخيص .

ويمكننا التأكيد على أن الزيات قد اختط بمقاله الاجتماعى الأسلوب الأمثل للكتابة فى قضايا المجتمع ، ويعد نتاجه فى هذا الباب من أنفس وأغزر ماخلفه لنا جيله فى موضوعه ليس فى حجم ما سطّره من مقالات فحسب . بل فى تعدد القضايا التى عرض لها ، وأسلوب المعالجة لسلبيات ماينتقد ، والبحث الدءوب عن وسائل الاصلاح ، ودروب الخلاص . وتتجلى أهمية ما خلفه الزيات فى الاصلاح الاجتماعى فى واقعية البحث وموضوعية الفكر . فلم يكن من طائفة الكتاب الذين يخدعون قراءهم بآراء مثالية . وتجديفات خيالية تستعصى على التحقيق . ولم يكن ممن يموّهون على قرائهم بانتحال صفة الناقد اللودعى الذى يفتّش عن العيوب وينقب عن السلبيات . وجل بضاعته فى هذا الميدان ألفاظ رنانة . وسطور مسمقة لم يكن الزيات من شاكلة هؤلاء . بل كان يكتب عن

معايشة حقيقية ومعاناة صادقة للمشكلات التى يعرض لها والمبادىء التى يدعو إليها .

ومن دلائل صدق المعاناة وعمق المعايشة أن الزيات لم يكن يعالج الكتابة فى قضايا الإنسان والمجتمع من برج عاجى كما يفعل كثيرون من الكتاب ، فيكيلون الاتهامات لغيرهم ، ويصبون جام سخطهم ولومهم على الآخرين ، بل كان يتأمل الظاهرة فى جيدة ويرصد موطن الداء وأعراضه ، ويتتبع مساربه حتى منابعه الأولى ، دون أن يقتصر على النظرة السطحية أو التأمل العابر ، ومن مظاهر ذلك أنه فى نقداته البناءة وآرائه الشجاعة كان ينتقد ولاة الأمر وأرباب السلطان فى بعض الأحيان ، وينتقد كذلك قطاعات من المجتمع ويلقى اللوم عليها فى أحيان أخرى بل قد يتجاوز ذلك فيعتد الجميع مسئولين عن الخطأ مشتركين فى وزر التقصير كما سنلحظ ذلك فى تحليلنا لبعض مقالاته .

وتأسيساً على تلك الملامح العامة لكتابات الزيات فى مجال القضايا الاجتماعية تكتسب مقالاته أهمية خاصة وتستأهل أن تفرد لدرسها واستخلاص دلالالتها البحوث بحسبانها نموذجاً ناضجاً للمقال الاجتماعى الصحيح ومن ثم فإن بحثها وإلقاء الضوء عليها يتيح لنا أن ندعو كتابنا العصريين كى يتنبهوا لمنهجها الجاد وأسلوبها المتميز فى متابعة قضايا الانسان والمجتمع فى مصر خاصة وفى الوطن العربى والبلدان الاسلامية عامة .

ومع هذا الملحظ الذى نقرره فيما يتعلق بمنهج المقال الاجتماعى عند الزيات لايغيب عن إدراكنا أن أصول تفكيره فى الاصلاح الاجتماعى تصلح لهذا التعميم وتكتسب تلك الميزة على الرغم من أن جل معالجاته للإصلاح يرتبط ارتباطا وثيقا بقضايا الانسان والمجتمع فى مصر خاصة وفى عصر الكاتب وزمانه على نحو أخص إلا أن ذلك لايقلل من قيمة منهجه الذى يهمنا فى هذه الدراسة أن نتعرف على أبعاده ومراميه ونرصد اتجاهاته وأساليبه .

الفصـــل الأول

قضية الإقطاع والتميز الطبقى

وهى من أخطر قضايا المجتمعات البشرية على امتداد التاريخ الإنسانى وقد تمثلت فى مصر بصورة صارخة منذ عصور موغلة فى القدم ، لم يتح فيها للسواد الأعظم من الشعب التمتع بثمرات عرقه ، وحصاد كدحه إلا فى فترات قليلة فى عمر الزمن ، واستطاع التحول الاجتماعى والوعى الانسانى العام أن يحرر كثيرا من أقطار المعمورة من جريرة ذلك الظلم الفادح ، والتسلط البغيض ، إلا أن مصر ــ خاصة ــ بقيت دون غيرها فريسة لتلك الأوضاع الظالمة لأسباب معقدة لم تتخلص من وطأتها إلا مع بداية النصف الثانى من القرن العشرين .

ويقتضينا الإنصاف أن نقرر أن مخاطر النظام الاقطاعى وما استتبعه من تميز طبقى لم يغب عن أفهام أولى الرأى المنصف ولا عن عقول زعماء الاصلاح من المصريين وغيرهم ممن قدر لهم أن يعاينوا هذا الظلم ويلمسوا بشاعة ماينجم عنه من غبن بيّن ، وهضم للحقوق وإهدار لكل القيم الانسانية النبيلة . ومع ذلك فقد اكتسبت كتابات الزيات حول تلك القضية أهمية كبرى لأنه عالج النضال حولها فى مرحلة كانت قد بلغت فيه الظاهرة ذروة شراستها ، واستفحل خطرها ، وقد قيّض للزيات أن يمتد به العمر ليرى ثمرة نضاله الفكرى المخلص قد تحققت بتحطيم الإقطاع وضرب الطبقية المستعلية وذلك بقيام ثورة يوليو ١٩٥٢ م فى مصر .

ومع أننا نضع فى الحسبان أن الزيات لم يكن فريدا بين كتاب عصره فى ميدان محاربة الاقطاع والطبقية إلا أن كتاباته الجريئة كانت بلا ريب من أهم المعاول التى أسهمت بدور مؤثر فى تحطيم النظام الفاسد ، ونبهت الأذهان إلى مضاره الوبيلة

وأخطاره المدمرة ، ومن ثم ساعدت على تكوين رأى عام ذى قناعة قوية بضرورة التغيير حتى فى أوساط الأغنياء أنفسهم .

★ ★ ★

كان نظام الإقطاع الذى ساد فى مصر قد عمل على إفراز نمطين متباينين من الحياة فى المجتمع : حياة كبار مالكى الأرض من طبقة الحكام ومن يدلى إليهم بسبب من ذوى النفوذ والجاه ، وهؤلاء يتقبلون فى أعطاف النعيم ، يسكنون القصور الفخمة فى القاهرة أو المدن الكبرى وتحيط بهم مظاهر الرفاهية وفنون الملذات ... وحياة الغالبية العظمى من الفلاحين والأجراء وهؤلاء يحيون حياة السوائم يسكنون القرى والنجوع يقاسون الحرمان وتفتك بهم الأمراض ، ويتخبطون فى عماية الجهل ، ويضطربون فى أودية التخلف ، أحالهم الاقطاع الفاسد إلى آلات صمّ لا تكف عن العمل حتى تبلى فيُقذف بها وتُطرح جانبا فلا يلبث أن تُسلك بدلا منها آلة جديدة أكثر قدرة على العمل وأقوى فاعلية فى الإبقاء على نتاج الدولاب الكبير الذى يمتح من فيضه صاحب الاقطاعية النهم .

وقد أفرد الزيات — كما سنرى — عديدا من مقالاته لتصوير حياة الناس فى القرية المصرية بما تعجّ به من ألوان البؤس ومعانى الشقاء ، ومايتعرض له الفلاحون من إهمال ، ومبلغ قسوة مالكى الأرض عليهم وهضمهم حقوقهم ، وعدم اكتراثهم لما ينزل بهؤلاء التعساء من ضيم ، وما يلقونه من حرمان . كما صور فى الجانب الآخر حياة الاقطاعيين وما يكتنفها من سرف وإتلاف وفساد وتحلل . ومن ثم تتكشف لقراء مقالاته الهادفة صور الظلم الصارخ ، والحيف الآثم ، فتتعمق فى نفوسهم مشاعر الحنق على تلك الأوضاع وتشتعل جذوة الثورة لاقتلاع الفساد وإعادة الحق إلى نصابه .

والحق أن الزيات لم يقتصر على التصوير الواقعى الناطق بحجم الكارثة الكاشف لفداحة الرزء ، بل كان فى معظم الأحيان يبذل عصارة فكره لبحث وسائل العلاج ، واقتراح أسباب الاصلاح ، مستمداً أصول تلك الأفكار الاصلاحية من

مبادىء الاسلام الحنيف ممثلة فى الدعوة إلى أداء الزكاة الواجبة على الأغنياء ، ومن مقتضيات الحكمة المتعقلة والاجتهاد المخلص لسدّ منافذ الخلل ، ودرء الأخطار ، وإقرار العدل الذى يمليه الضمير الحى ، ليستقيم الميزان ، ويحدث التوازن الطبعى، ويجتمع الغنى والفقير فى المجتمع على كلمة سواء .

كتب الزيات تحت عنوان « بين الفقير والغنى » [1] قال :

« يا صاحب السعادة لِمَ ترضى أن أكون صاحب الشقاء ؟ أنا وأنت نبعتان من أيْكة [2] آدم نمَتَا فى ثَرى النيل ؛ ولكن مَغْرِسك لحسن حظك كان أقرب إلى الماء ومغرسى لسوء حظى كان أقرب إلى الصحراء ، فشبعت أنت وارتويت ، على قدر ماهَزلت أنا وذويت ، لأن الماء والغذاء يطلبانك وأنت ضاجع [3] وادع ، وأنا أطلبهما بالكدح والمُتح [4] فما أنال غير الجفاف أو النّطاف ! [5] فماذا يضير المجدود [6] أن ينضح المكدود برَشٍ مما يسبح فيه من فيض هذا الوادى ، وهو لهما كلبن الأم للتوأمين ، لكل منهما بحكم الحياة والأمومة والطبيعة ؟ لقد ضمن الله لك حق الملك لصلاح الدنيا ، ولكنه فرض عليك بإزاء ذلك الزكاة تحقيقاً لهذا الصلاح ، فإذا خشيت أن تمتد عينى إلى مالك بالحسد والشهوة ، أويدى إلى نفسك بالعنف والقسوة ، فاكسِر نظرتى وحِدّتى عنك بأداء ماجعل الله لى عندك؛ وإلا كان منَ الإنصاف فى رأيى على الأقل أن يكون اعترافى بالحق لك ، معادلاً لاعترافك بالواجب عليك .

---

(١) وحى الرسالة ٢ / ١ .

(٢) الأيكة : واحدة الأيك ، وهو الشجر الكثير الملتف .

(٣) رجل ضاجع : كثير الاضطجاع كسلان .

(٤) المتح : استخراج الماء من البئر بالدلو .

(٥) النطاف : جمع نطفة ، وهى قليل ماء يبقى فى دلو أو قربة .

(٦) المجدود : المحظوظ ، والمكدود : المتعب .

ذلك ما يقوله فى مصر كل فلاح لكل باشا ؛ ولكن أغنياءنا غلاظ الأجساد والأكباد فلا يُصغون لمثل هذا العتاب الهامس ! وهم إلى ذلك يعلمون أن الله الذى أعان الفقراء بالزكاة على الفقر ، أعانهم عليه أيضاً بالقناعة والصبر . فهم يتقون بالله ، ويؤمنون بالقدر ، ويعتقدون أن نصيبهم المقسوم فى السماء سيهبط عليهم فى الأرض ، أو يصمدون إليه فى الجنة . وفى ضمان هذه الأخلاق السمحة والنفوس المطمئنة مشى الغنى متأبهاً متألِّها يحاول أن يخرق الأرض ويطول الجبل ويملك على عباد الله حق الحياة والموت . ثم ينظر إليه الكادح المحروم وهو يخور من السِّمن ، ويختال من البطر ، ويغوص فى الحرير ، ويخوض فى الذهب ، فيقول بلهجة المؤمن الراضى :

آمنت بالله ! لو لم يستحق ما هو فيه ، لما كان الله عز وجلّ يعطيه ! » .

وأقسم ما أعطاه الله ولكنه هو الذى أخذ . وما كان ليستقيم فى ميزان العدل أن يُعطى الرِّى إنسان حتى يطفح ، ويُمنْعَه إنسان حتى يلتهب ! .

أعرف فى بعض مراكز (الدقهلية) عشرين بلدة يملكها من الشرق أمير ومن الغرب باشا ؛ فليس لأحد من الأهلين فيها شبر أرض ولا جذع شجرة ، إنما هم أجراء أو مستأجرون سخرتهم الغفلة والاستكانة لرجلين كسائر الرجال ، ليس لبطنيهما سعة البحر ، ولا لعزميهما قوة الدهر ، ولا لنفسيهما عظمة الله ، إنما هما فمان تملأهما المضغة ، ومعدتان تكُظُّهما[1] الأكْلة ؛ ولكن لهما عينين كعين الجحيم لا تمتلىء ، ونفس كجوف الرمل لايرتوى . فهما يعصران من أجساد هذه الألوف الجاهدة ذهبا يُكتنز ، وقصوراً تشاد ، وسلطاناً يُرهب ، وقطعاناً تسعى ، ومراكب تطير ، ورغائب تُبتغى ، ولذائذ تُنال ، وأوسمة تناط ، وألقاباً تكتسب . ثم لاتدركهما بهؤلاء العبيد رحمة الخالق بالخلق ولا عناية الصانع بالآلة . فصاحب الآلة يوفر لها الشحم والوقود ، ومالك البقرة يهيىء لها الحظيرة والعلف ، وهما لايتركان لفلاحيهما المساكين مايمسك الروح ويستر البدن ، ثم يلزمانهم أن يؤدوا أجرة الأرض ونفقة الإدارة قبل أن يأكلوا . فإذا أوف[2] الزرع أو رخص السعر

(١) كظه الطعام ملأه حتى لايطيق النفس .

(٢) أوف الزرع : أصابته الآفة .

وعجزوا عن الوفاء ، سلطا عليهم النظار والمحضرين فأخذوا الدور التي يأوون إليها، والبهائم التي يزرعون عليها ، وخلفوهم فرائس للمرض والفاقة ، لايجدون وسيلة للطب ولا حيلة للجوع . فإذا فزعوا إلى فضل الأمير أو الباشا زمّ بأنه[1] واستكبر أن يفتح عينيه على هذا الهوان والقذر ! ولعله ساعتئذٍ ، كان يمسح خرطوم كلبه أو يرجّل عُرف جواده ! [2] .

سكان هذه القرى العشرين يعيشون وماشيتهم فى أكواخ من اللّبِن[3] لاتدخله بهجة الطبيعة ولا تعودها رحمة الله . تقوم على أقذار البرك وفوق سباخ الأرض ، وعلى ظهورها المراحيض وفى بطونها المزابل . والمالكان المدلّلان يغطان بين الحرير والذهب فى قصور تطاول السماء ، ورياض تنافس الجنة ، ثم لاينفصل أحدهما فيحمل الحكومة بجاهه ونفوذه على أن تجفف لهؤلاء البائسين بِركة ، أو تنشىء لأطفالهم الضاوين مدرسة . وعلة حب الباشا للمستنقعات أن نفقة ردمها على حسابه ، وحجة بغضه للمدارس أنها تشغل الأطفال عن العمل فى أرضه .

ارجعوا يا قوم إلى الله فقد طبَّ لهذه الأدواء واحتاط لهذه الفواجع . إن هذا الأمير وذلك الباشا يملك كل منهما مليوناً من المال تحول عليه الأحوال فيزيد ولا ينقص . فلو أنهما يؤديان زكاته كما فرض الله لكان مايدفعانه خمسين ألف جنيه كل سنة . ولو حبسنا هذا المال الوفْر على هذه القرى العشرين لما بقى فيها فقير ولا مريض ولا جاهل ، وإن تشفى الصدور من الغل ، وتبرأ النفوس من الوهن ، فتكثر الأيدى ، وتشتد السواعد ، ويزيد الإنتاج ، ويزكو الريع ، ويردُ عليهما ما أقرضا الله أضعافاً مضاعفة . ولكن أغنياءنا أبطرتهم نعمة الله فاستغنوا بجبروتهم عن رحمته ، وبملكوتهم عن جنته ، وبعبادهم عن عباده . وكأنهم أصبحوا يرون سعادتهم فى شقاء الوطن ، وعزتهم فى مذلة الناس ! »

وتتضح من هذا المقال أبرز ملامح معالجة الزيات لقضية الاقطاع والتميز الطبقى

(١) زم أنفه شمخ وتكبر .

(٢) يرجل الشعر : يسرحه ، والعرف شعر عنق الفرس

(٣) اللبن : المضروب من الطين مربعا للبناء (الطوب الأحمر)

فى مصر ، ولذلك آثرت أن أنقله هنا كاملاً لأتيح للقارىء تفرس أسلوب الزيات فى تحليل الظاهرة والوسائل التى اقترحها للخلاص من سلبياتها ، وتتمثل تلك الملامح فى العناصر الرئيسية التالية :

١ ـــ وصف الظاهرة وصفا دقيقا استعان عليه الكاتب بوسائل التشخيص الفنى التى امتلك أعنتها ووظفها فى كتاباته الاجتماعية توظيفا ناجحا ، ارتفع بأسلوبه عن التقرير والرتابة ، وتسامى به إلى درجات الفن التعبيرى الرفيع الذى يخلب الألباب ويستولى على إعجاب القراء وإمتاعهم فى آن .

٢ ـــ كشف مناحى الخلل فى السلوك غير السديد والظلم البين الماثل فى موقف الغنى المتكبر الذى أطغاه المال وأعمته الغفلة وشوهته القسوة فأصم سمعه عن عويل الفقير المعذب وأغمض عينيه عن بؤسه البادى وشقائه الناطق .

٣ ـــ الجنوح إلى التصوير الواقعى البعيد عن التعميم والتجريد ويتضح ذلك من المثال الذى جعله الكاتب محوراً لحديثه وهو بيان مبلغ طغيان الإقطاع فى بعض مراكز الدقهلية التى اقتسم « باشا » و « أمير » ملكية عشرين قرية من قراها ... والزيات عندما يتخذ من تلك الوقائع شاهداً على تقرير بشاعة الاقطاع يستمد الحقائق التى يحكيها من واقع ماثل فالدقهلية موطنه الذى نشأ فيه ووعى مشكلاته واختلط بأهله ، ومن ثم فهو يؤسس تقريراته على وقائع قائمة وشواهد ناطقة .

٤ ـــ إيضاح أسباب التردى والدعوة إلى الأسلوب الأمثل لإقرار العدل وتحقيق الإنصاف للغنى والفقير على السواء وقد بناه الكاتب على أداء الغنى الزكاة الواجبة عليه حسبما شرع الله عز وجل وهو خبير بعباده ، عالم بما يصلح أحوالهم وتنتظم معه سبل عيشهم .

★ ★ ★

• كان نظام الطبقات بما ينطوى عليه من ظلم ، وما يحمله بين طياته من عدوان قد غدا هدفا لدعاة التحرر وزعماء الثورات فى مختلف بقاع العالم بخاصة فى أوربا ،

وكانت أصداء الانتصارات التى حققتها الشعوب فى القضاء على مظاهر الاقطاع وتحطيم قلاعه هنا وهناك هى النغمة الأثيرة التى يرددها دعاة الاصلاح فى مصر وبلدان الشرق ، وكان حكام مصر لايزالون يترضون جمهور الشعب عامة وزمرة المثقفين ودعاة التحرر خاصة ، فكانوا يعلنون فى كثير من المناسبات أنهم يستمدون سلطانهم من الشعب ويعدّون أنفسهم جزءاً لايتجزأ منه ، ويسلكون فى بعض المواقف سلوكا يوحى بالعدالة ويوهم بالمساواة بين جميع فئات الشعب ولكن معظم المنتمين إلى الطبقة الإقطاعية كان يصعب عليهم الإقرار بتلك الحقوق فكانوا لايتوانون فى إظهار التعالى والدفاع عن النظام الطبقى .

وكان الزيات يرصد ذلك كله ويعبر عنه أصدق تعبير ومقالاته فى هذا الباب تصور أطوار الصراع بين دعاة التحرر والمساواة ، وأقطاب الاقطاع والطبقية . ومن الكتابات العديدة التى عالج فيها الزيات قضية الطبقات مقال له نشر فى ٥ يونية عام ١٩٣٩ م تحت عنوان « فلاحون وأمراء » [١] نفهم من ملابسات كتابته أن « نادى الفروسية » كان يتعاظم على سراة المصريين ولا يسمح بأن ينضموا لعضويته لأنهم فلاحون فاعترض على ذلك محمد محمود باشا رئيس الوزراء آنذاك قائلا : إن حكومة جلالة الملك لايمكن أن تسمح بإعادة نظام الطبقات ، نحن هنا فى بلد ديمقراطى ، وكل المصريين سواء ، وجلالة الملك يضرب كل يوم أعظم الأمثال فى ديمقراطيته ومصريته ، أنا فلاح وابن فلاح ، وأفخر بأن أكون كذلك ، والفلاح هو عماد هذه البلاد وفخرها ، وإذا كان بين أعضاء نادى الفروسية من لايعجبه هذا الكلام فليرحل عن بلاد الفلاحين » ، فكتب النبيل عمرو إبراهيم رئيس نادى الفروسية بيانا يرد فيه على رئيس الوزراء وبعث به إلى الأهرام فنشرته كاملا وقد أثار هذا البيان أديبنا أحمد حسن الزيات فوضع مقاله المشار إليه ردًّا على بيان رئيس نادى الفروسية حاملا على النغمة المتعالية التى صاغ بها ذلك الأرستقراطى بيانه يقول الزيات :

« ... قرأت كما قرأ الناس ثورة رئيس الشيوخ وزارة رئيس الحكومة ، فعلمت والأسى يحز فى الصدر أن بعض الذين جعلناهم أمراء ونبلاء لايزالون على عقلية ذلك التركى الفقير الذى كان يقرع الأبواب مستجدياً فإذا أجابه الفزع قال له فى عنف وصلف وأنفة « هات صدقة لسيدك محمد أغا » . ولا أدرى ما الذى سوغ لهم أن يعتقدوا أن الله خلقهم من المسك للمُلك ، وخلقنا من الطين للطين ، وجعلهم للثروة والسيادة ، وجعلنا للخدمة والعبادة ؟ إن كانوا مسلمين فالإسلام قد محا الفروق بين الطبقات إلا البِرّ والتقوى : فالعرب والعجم سواء ، وقريش وباهلة أكفاء [٢] . وإن كانوا وطنيين فالوطن لايعرف التفاضل بين أبنائه إلا بأثرهم فى تقويته وترقيته وخدمته ؛ فالفلاحون على درجته العليا لأنهم عماد ثروته وعدة دفاعه وقوة سلطانه ؛ والأمراء على درجته السفلى لأنهم فيه معنى السرف الذى يفقر ، والترف الذى يوهن ، والبطالة التى تميت ! وبين هاتين الدرجتين تتفاوت مواقف الوزراء والزعماء والكبراء على حسب ما لكل منهم عليه من فضل .

* * *

لا ياسيدى النبيل ! ليس نظام الطبقات هو القائم فى مصر وأوربا كما تقول ، فإن جَعْلَك نفسَك ونُظراءك طبقة متميزة لها حدودها الأربعة وجهاتها الست لايجعل نظام الطبقات حقيقة واقعة . إن مصر كلها من أعلى شلالها إلى أسفل دالها[١] طبقة واحدة ، فيها الغنى والفقير ، والمالك والأجير ،والصحيح والمريض ، والعالم والجاهل ، فهل نجعل كل حال من هذه الحالات طبقة ؟ وماتستطيع أن تعين لى الفرق بين طبقتك المرفوعة وطبقتنا الموضوعة إذا كان الدستور الذى تخضع له الطبقتان يستطيع أن يجعل ابن الخادم الذى ينظف لك الحذاء جليسك ورئيسك ؟ لقد كان امتياز طبقتك على طبقتنا أنك تمسك (الكرباج) ونحن نمسك الفأس ، وتأكل الذهب ونحن نأكل التراب ، وتعبد الشيطان ونحن نعبد الله وتتكلم التركية ونحن نتكلم العربية ، فلما قيض الله لمصر العظيمة فؤاداً العظيم فتزوج منا وحكم بنا وسعى لنا ، شعرنا بأن العرش مستقر على كواهلنا ، والعلم

(١) الدال : دلتا النيل .

يخفق على معاقلنا ، والسلام [1] يتردد فى شعورنا والحكومة تقوم بأمرنا ، والنيل يجرى بخيرنا ، ورأيناكم حين أخذكم ـــ رضوان الله عليه ـــ بأدب الإسلام والشرق لذتم بأطراف الغربة ، وقبعتم فى زوايا العزلة ، وكنتم من مصر وثروتها مكان البالوعة تطفح بعرق الفلاح ودمه لتصب فى مناقع البلدان الغربية ! .

★ ★ ★

لا ياسيدى النبيل ! ليس المصريون فى الجنسية والوطنية بمنزلة سواء ، فإن منهم من تمصر بالقانون لا بالأصالة وتوطن للمنفعة لا للعاطفة . وكيف يستوى فى ميزان الوطنية من يقف على مصر يده وقلبه وكسبه ودمه ، ومن لايعرفها إلا معرفة الغرماء ، ولايعيش فيها إلا أشهر الشتاء ، ولايعنيه من أمورها إلا خفض أجرة العامل ورفع سعر القطن ! .

كذلك ليس من خالص الحق قولك فى بيانك : « إن حق الشخص فى الانتساب إلى أمة إنما يناله بما يؤديه إلى وطنه من الخدمات ، سواء أكان ذلك بنفسه أو بأفراد أسرته من آبائه وأعمامه وأبناء أعمامه وأجداده وأجداد أجداده » . فإن أموال أبيك لك ، ولكن أمجاده له . والوطنى الصميم هو الذى يرفع مابنى أبوه، ويتمم ما بدأ جده . ولاينفع المرء عند الوطن أن أباه وطنى وهو خائن ، ولا عند الله أن أباه مسلم وهو ملحد ! »

وهكذا كان الزيات يتصدى لدعاة الطبقية المستعلية ساخرا من غرورهم مبديا سخف رأيهم وخطأ دعواهم ملهبا حماس قرائه فى ضرورة مقاومة الاستعلاء الطبقى فى شتى مظاهره ، وعدم الإقرار لهؤلاء الدخلاء بأية ميزة ، لأن ذلك مما تأباه مقتضيات العدل والوطنية الصادقة والحرية التى غدت حقاً مشروعاً للأمة ، وأساساً مقرراً لأبنائها ، ومبدأ معترفا به من حكامها .

والحق أن الزيات لم يقتصر دوره على متابعة قضية الاقطاع والتميز الطبقى أو يتناولها فى مناسبات خاصة أو عندما تحتد أزمة من أزمانها بل كان يعالج بقلمه

(١) السلام هو النشيد الوطنى .

المعطاء ظواهرها وأضرارها على المجتمع المصرى وبخاصة فى الريف فى قوالب شتى وألوان تعبيرية متنوعة ، فكما رأينا فى المقالين الماضيين عالج الزيات القضية بأسلوب تقريرى يشرح المشكلة ويتصدى للمعاندين ويحمل على الطغاة من الاقطاعيين ودعاة الطبقية . وفى كثير من الأحيان صوّر الزيات فى مقالاته معاناة الفلاح فى القرية ، ووصف حياته بما يحيط بها من ضياع ومايلفها من أخطار ، ملمحاً من خلال ذلك إلى المفاسد الهائلة التى خلفها نظام الاقطاع ، والظلم الفادح الذى تحاول الطبقية أن تفرضه على سواد الشعب المصرى وتحول عن طريقه بين هؤلاء الكادحين العارقين وبين التمتع بأدنى مستويات العيش الانسانى الكريم .

كان الزيات بارعاً فى رسم تلك المعاناة يصورها تارة من خلال ذكرياته الشخصية عن حيوات الفلاحين فى قريته التى نشأ فيها ، ويرسمها تارة أخرى فى ثنايا قصة عرف أبطالها وعاين بؤسهم ونكباتهم ، أو يعرضها من خلال شكاية قدمت له بُغية أن ينتصف صاحبها من ظالميه .

ويرسم الزيات صورة ناطقة بالبؤس مفعمة بالأسى للقرية المصرية وهى صورة متكررة فى مختلف بقاع الريف المصرى عبر عن قسماتها أبين تعبير فى متابعاته الجادة لقضية الإقطاع مبرزا ما خلفته فى حياة القرية المصرية بقوله [٢] : « لعل أنطق الأدلة بخطورة العمل الذى تقوم به هذه الجمعية الجليلة أن أصف لك قرية أعرف بيوتها كما أعرف بيتى وآلف أهلها كما آلف أهلى . وستجد حين توازن بين قريتى وقريتك أننى وصفت على الجملة قرى مصر جميعا .

كومة من سباخ الأرض قام عليها أكواخ متلاصقة من اللبن ، سقفوها بالخشب والقصب ، وحمّلوها بالعلف والحطب ، وجمّلوها بشرفات من الروث اليابس ، ثم جعلوا ظهرها مراحيض للحاجة ، وبطونها مسرحا عجاجا لشتى الأوالف والدواجن من الكلاب والقطاط والعجول والدجاج والبط ، ثم جمعوا بين قاعة الإنسان وزريبة الحيوان فى فناء واحد ، فالحديث يمتزج بالخوار ، والمضغ

(١) رحى الرسالة ٢ / ٦١ .

(٢) من مقال جمعية نهضة القرى ١ / ٢٢٦ .

يشتبه بالاجترار ، والرجل والثور ، والمرأة والبقرة ، والطفل والعجل ، يعيشون سواسية فى شيوعية عجز عن تحقيقها « الروس » . لايؤديك إلى هذه الدويرات العمى مسلك واسع ، ولا طريق مشروع ، إنما هى طوائف طوائف ، تفتحت كل طائفة منها على زقاق ضيق غير نافذ ، ولن تستطيع الدخول فى هذا الزقاق إلا من الطريق الدائر حول القرية ... يركبها من الشمال مستنقع ومن الجنوب مستنقع... » .

ولن يجد الباحث عن حال القرية المصرية فى تلك الحقبة وصفا أدق ولا تصويرا أبين من ذلك التصوير الناطق ، والتعبير المؤثر عن معاناة أهل الريف ، ومبلغ الرزء الذى يثقل كواهلهم ، وحجم الظلم الذى يتعرضون له .

ولا يقف الزيات فى مقالاته الملتهبة عند حد التصوير والوصف بل يدعو فى قوة وإقناع إلى أن يثور الفلاح المصرى على تلك الأوضاع الجائرة ، ويتنبه لحقوقه المستلبة ، ويجأر الزيات بالشكوى بسبب غفلة سواد الشعب واشتغال كل منهم بشئونه الخاصة دون أن يثور على ظالميه المتسلطين من الحكام المفسدين ، والإقطاعيين الطغاة ، والتجار المرابين ، والمحتكرين الجشعين .

يقول الزيات فى مقال بعنوان « متى يغضب الفلاح » [1] محللا ظاهرة السلبية التى غدت طابع حياة غالبية الفلاحين مهيبا بهم أن يتنبهوا ويفيقوا :

« الرضا والقناعة والصبر هى الصفات المميزة للفلاح المصرى ، تأصلت فيه بالطبع والوراثة والبيئة والعقيدة ، فأثرت فى حياته ، وهيمنت على سلوكه ، وتصرفت بهواه ! .

يستبد بحكمه طاغية كالحاكم بأمر الله فيستكين ، ويثب على عرشه خصى ككافور فيخضع . وتملك عليه إمرأة كشجرة الدر فيطيع ويسيطر على أمره الأجنبى فيرضى ويستأثر بخيره المستعمر فيقنع . ويحطمه بالذل صاحب الحكم فينقاد ، ويسمع بالأحداث تتدفق على وطنه وتتواثب على قومه فلا ينبض فيه عرق

(١) وحى الرسالة ٤ : ٣٦

ولا يغلى له جوف ! كأنما كل إمرىء فى الريف أمة وحده : شأنه يغنيه ، ورزقه يكفيه ، وكوخه يؤويه ، وكل ما خرج عن غيطه وبيته لايعنيه ! .

تقرع سمعه الأحاديث النُّكر عن وزير من الوزراء نشأ على تلال القرية كما نشأ، وذاق بؤس الحياة كما ذاق ؛ ثم رفعته الظروف المجيبة والصروف العجيبة إلى كرسى الحكم ، فتاه وتكبر ، ثم طغى وتجبر ، ثم سرق وغصب ، ثم جامل وحابى ، ثم تاجر ورابى ، ثم أمكن عشيرته من دماء الشعب وأموال الأمة ومرافق الدولة ، فاستحلوا ما حرم الله ، واستباحوا ما حظر القانون ، واستجازوا ما منع الخلق ، فيسمع كل ذلك بإذن من طين ، وأخرى من عجين كما يسمع الصوفى المعتكف أنباء الرياضة أو أخبار البورصة ! .

لايغضب لمضرة عامة ، ولايرضى لمنفعة بعيدة ؛ إنما يغضب أو يرضى تبعاً لما يلقى من الشر أو الخير فى أهله أو حقله أو بهيمته . يرضى عن الحكومة ويصفها بالصلاح إذا أعفته من تكاليف الخفر النظامى ، أو كافأته على حراسة النيل الطاغى ، أو خفضت له أجرة السفر على السكة الحديد ، أو وزعت عليه بعض الفدادين ، أو ارتفعت فى عهدها بالمصادفة أسعار المحاصيل ، ويسخط على الحكومة ويرميها بالفساد إذا ظهرت الدودة فى حقول القطن ، أو فشا الطاعون فى حظائر الماشية ، أو نقص الماء فى قنوات الرى ، أو هبط سعر البيض فى سوق البندر ! .

ذلك لأن الفلاح ابن الأرض ، لايكاد ينزع جسده من حضنها ، ولايخرج يده من طينها ، ولايفهم الحياة إلا مضافة إليها أو مقدرة بها ، ولا يمد بصره إلى أبعد من حدودها . والقائمون على أمره ، القابضون على زمامه ، لايريدون أن ينبهوه إلى أن فوق هذه الأرض سماء فيها الروح ، وفيها الطموح ، وفيها الكرامة ، وفيها الأمل، وفيها الرفعة ؛ وأن اللاصق بالأرض حيوان ، والعالق بالسماء ملك ، والإنسان خلق دون هذا وفوق ذاك .

فما دام الفلاح وهو سواد الشعب معدوداً فى دود الأرض يزرع ليأكل ، ويحفر لينام ، ولا يهمه أن ظلم حكامه أو عدلوا ، وجد زعماؤه أو هزلوا ؛ وسواء عليه

أخرج المحتلون أم بقوا ، وسعد مواطنوه أم شقوا ، فهيهات أن يكون لنا رأى عام وحكم صالح ودستور صحيح ووطن مستقل ! ومتى استنار ما أظلم من نفسه ، واستيقظ ما غفا من حسه ، أدرك أنه مصدر السلطة ومورد الثروة وعماد الأمة فلا يقبل أن يهمله حاكم ، أو يستغله ظالم ، أو يتغفله زعيم . ولكن ليت شعرى بأى طبل يسمع وبأى بوق يفيق ؟! » .

والطريف أن الزيات حرر المقال المتقدم فى الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥١م وفى مثل ذلك اليوم من العام التالى ١٩٥٢م قامت الثورة لتنتصف للفلاح الذى طال شقاؤه وامتد صبره أحقابا طوالا .

وتبدو نشوة الزيات بتحطيم الاقطاع واضحة فى مقالاته التى نشرها بعد قيام ثورة يوليو مباركا مبادىء تلك الثورة مشيداً بالأهداف النبيلة التى تنشدها والاصلاح الشامل الذى بدأته ففى مقال بعنوان « تجلد يا قارون » نشر فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ يبدى فيه للكاتب شماتته بالاقطاعيين الذين استولت الثورة على املاكهم ووزعتها على الفلاحين يقول [٢] :

« الله الله يامسكين لم تعد باشا بعد يوليو ولن تعود قارون بعد أكتوبر ذهب اللقب وضاع (الطين) فلا رأس يشمخ ولا لغد ينتفخ ! وخلا الدوار والإصطبل ، فلا ثور يخور ولا فرس يصهل ! وخوى القصر والديوان ، فلا حاجب يسعى ولا حاسب يحسب ! وخفت الصوت الراعد فلا (شخط ولا نطر) ، وخرس اللسان البذىء فلا نهر ولا قهر ! .

لم يبق لك من ثرائك الفاحش الضخم ، إلا جسد بض ، وبطن شحيم ، ووجه جهم ، وذهن مغلق ، وحس مظلم ، وجهل مطبق ، وسمعة قبيحة ! وكانت هذه المزايا التى مازك الله بها مستورة بالطين [٢] فما كان يراها أحد ؛ فلما كشفوا

---

(١) قارون من قوم موسى آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة وقد طغى وبغى وهو مستعار لأحد [illegible] بالإقطاعيين الذين جردتهم ثورة الجيش من الألقاب فى يوليو سنة ١٩٥٢ وانتزع منهم [illegible] أرضيهم بعد أكتوبر من هذه السنة .

(٢) الطين فى لغة المصريين يطلق مجازا على الأرض الزراعية

عنك غطاء الذهب ، واستردوا منك جلال اللقب ، بدوت فى شرفة القصر عارياً من زينة الجسد والروح ، كما بدا فاروق فى شاطىء (كابرى) عارياً من زينة الملك والإنسان ! .

أنا والله شامت بك ياقارون ! لطالما قرعت سمعك وسمع (الأمير) بزواجر النصح الخالص ، ولكنكما لم تكونا يومئذ تصدقان أن للناس رباً يمهل ولايهمل ، وأن للعدل نوراً يخبو ولا ينطفىء ، وأن للشعب وعياً يضعف ولايموت ! وها هوذا غضب الله يحل ، ونور العدالة يشرق ، ووعى الأمة يستيقظ ، فهل أغنى عنكم النضار الذى كنزتموه ، والعقار الذى حزتموه ! لقد أخذتكم صيحة الجيش بالحق فآمنتم لأول مرة أن الناس عبيد الله ، وأن الوطن ملك الجميع ، وأن الملَك أحد الناس .

أنا والله شامت بك وبامثالك ياقارون ! كان لكل منكم حاشية كحاشية فاروق ، وزبانية كزبانية جهنم ! حاشية تحبب إليكم الفسق ، وتهون عليكم الإثم، وتوفر لديكم المتاع . وزبانية يعقدون لكم دم الفلاح ذهباً ، ويحولون إليكم عرق الأجير فضة . ثم لايشيرون عليكم أن تعملوا لعبيدكم ما يعمل الفلاح لمواشيه : يغذى البقرة لتحلب ، ويقوى الثور ليحرث ! .

لقد أصبحتم بكفرانكم لنعم الله ناساً من أقل الناس ، تذوق ألسنتكم الحلو والمر ، وتحس نفوسكم العز والذل ، وترجون الدستور كما نرجو ، وتخشون القانون كما نخشى ، وستنسون من طول مايلح الغلاء وتفدح الأعباء ، أنكم كنتم من الطبقة التى أقامت نفسها بقوة المال وسطورة الحكم بين الله وبين عبادة ، تملك الأمر والنهى ، وتعطى الحياة والموت ، وتضع يدها فى يد إبليس لتنقض ماأبرم الله، وتفسد ما أصلح الدين .

كنت ياقارون تكره العلم لأنك تحب الجهل ، وتوالى الظلم لأنك تعادى العدل ؛ فماذا تصنع اليوم وقد أصبحت محتاجاً إلى العلم لتعمل ، ومفتقراً إلى العدل لتعيش ؟ .

إن فى مذكراتى وذكرياتى أفانين من مخازيك يا قارون لو نشرتها على أعين الناس لأنكروا أنك منهم ، وأشفقوا أن تعيش فيهم ؛ ولكنى أتأدب بقول الرسول الكريم: أكرموا عزيز قوم ذل ، وغنى قوم افتقر ! »[1] .

* * *

وهكذا نتابع من خلال كتابات الزيات الاجتماعية من أسلوبه فى التصدى لظاهرة الاقطاع والتميز الطبقى ونلمس عمق تحليله للظاهرة وصدق معاناته لبشاعتها ودعوته الجريئة للاصلاح وإلحاحه على ذلك فى مناسبات متعددة وبأساليب شتى . ونلمح كذلك من خلال هذا العرض أن الزيات لم يأل جهداً فى التنبيه إلى معاناة السواد الأعظم من أبناء وطنه الفلاحين ولم يدخر وسعاً فى نشر أفكاره وإقناع قرائه بضرورة التغيير ، وقد لاحظنا فى بعض كتاباته طابع التشاؤم فى بعض الفترات ومن ثم كانت دعوته إلى الثورة ورفض الواقع المهين فلما قامت ثورة يوليو التى فرضت الإصلاح واقتلعت الفساد رأينا نغمته فرحة منتشية وقلمه فخوراً معتزًا . وحق للزيات أن يفرح ويغتبط ، ويتيه ويعتز فقد رأى نتاج فكره الاصلاحى ، وجهاده الوطنى ، ونضاله المؤثر يثمر تلك الثمرة الواعدة ، وتتحقق أمام ناظريه أحلام الغد المشرق بعد ظلام دامس وظلم مطبق وطغيان ضربت أطنابه على ربوع الوطن وخيم سكونه على جسم الأمة فكان البعث وعادت الصحوة وبدأت خطى الآمال تتهادى على أرض مصر تنثر شذاها العطر وتنشر نسمات الحرية وهنا وهناك ، وتسترد الأمة فى تلك الآفاق الرحبة معنى وجودها وحريتها واستقلالها .

---

(١) وحى الرسالة ٤ / ٣٦ .

(٢) وحى الرسالة ٤ / ٨٣ .

الفصـــل الثانى

الفقر والجهـــل والمرض

وهذه الأدواء الثلاثة أو الأعداء الثلاثة كما عبّر الزيات كانت أبشع مشكلات المجتمع المصرى فى عصره ، ومن ثم كرَّس لها جانبا كبيرا من جهده الإصلاحى فى الرسالة ، وكتب عشرات المقالات يحلل فيها أبعادها ، ويكشف أخطارها ، ويبحث منابعها ، ويقترح وسائل الخلاص منها .

وكانت مشكلة الفقر والتشرد من أبرز المشكلات التى عالجها الزيات فى السنوات الأولى من عمر الرسالة فكتب حولها أكثر من عشر مقالات جمعها فى المجلد الأول من وحى الرسالة . صور فى بعضها ألوان الشقاء وصنوف الحرمان التى يلقاها الفقراء فى القرى المصرية عامة وفى الأحياء الشعبية بالقاهرة خاصة ، وكان تصويره لأعراض الفقر ونتائجه الوبيلة يجره للحديث عن الجهل والمرض بحسبان تلك الأدواء مرتبطا بعضها ببعض ، ولم يفتأ الزيات داعيا إلى مواساة الأغنياء للفقراء ، مهيبا بالقادرين الموسرين مدّيد العون لإخوانهم فى الوطن وشركائهم فى المجتمع متستمداً دعوته من أحكام الشريعة الاسلامية التى ألزمت الغنى بأداء الزكاة وحثّته على التصـدق بفضـــل ماله ، مستشهداً فى بعض الأحيان بما يصنعه الموسرون فى أوربا وأمريكا من إنشاء المدارس والمصحات والملاجىء .

وكان الزيات كالعهد به دائما ماهرا فى عرض القضية التى تستحوذ على اهتمامه ويرى أن مسئوليته فى الإصلاح والتوجيه تقتضيه أن يتابع النضال لتنبيه الأذهان إليها ، وحشد القوى المؤثرة لعلاجها ، فكان يتسلل إلى الموضوع من زوايا متعددة وبأساليب متنوعة تارة بالتقرير والتصوير وأخرى بالرمز والتلويح ، وثالثة بالتوبيخ والتهكم ، ورابعة بالأقصوصة ذات المغزى الاصلاحى البعيد .

ويتابع الزيات نتائج مايكتب ويستبطىء أساليب العلاج فلا يمل ولا يسأم ، بل يداوم الطرق العنيف ، ويدق ناقوس الخطر فإذا كانت الدعوة إلى بذل الإحسان الواجب وأداء الأغنياء حقوق الفقراء لم تجد آذانا مصغية فلا مفر من أن تتحمل الحكومة ويناط بولاة الأمور مهام هذه الواجبات ومن ثم دعا الزيات إلى إنشاء وزارة للشئون الاجتماعية ولقيت دعوته صداها وتحمس لها عدد من أهل الغيرة على أمور الوطن ، وقد كتب الزيات مباركا إنشاء هذه الوزارة معبرا عن غبطته وغبطة « الرسالة » بتحقيق تلك الأمنية واستطرد فوضع منهاجاً لوزارة الشئون الاجتماعية حدد فيه واجباتها ومسئولياتها ، وطالب بضرورة اعتماد الأموال اللازمة لها لتؤدى دورها المأمول على أكمل وجه ، ويرصد الزيات خطوات وزارة الشئون فلا يراها قد حققت شيئا ذا غناء فيتابع الكتابة ويعاود التذكير ، ولايزال ينتقد ويوجه ويطالب ويلح وينذر ويحذر ، فى جهاد متصل ونضال دءوب ، حتى يلمح بحسه الصادق أن الأمور صائرة إلى التغيير لا محالة فيكتب مقالا بارعاً فى مطلع سنة ١٩٥١ عنوانه « ثوروا على الفقر قبل أن يثور » [١] .

تلك إلماحة رأيت أنها ضرورية قبل أن أفيض فى عرض كتابات الزيات حول الأعداء الثلاثة لتتكشف للقارىء مراحل المعالجة وأساليبها ومن ثم تبرز قيمة هذا الفيض الإبداعى لكاتبنا ويدرك القارىء أهمية الدور الذى أداه فى ميدان الاصلاح الاجتماعى .

وعلى الرغم من أهمية ما كتبه الزيات حول الأعداء الثلاثة وصدق معاناته لبشاعة ما فعلته بفرائسها من التعساء فلن أستطيع فى هذه الدراسة أن أقف عند جميع ما كتب ولا أن أحلل سائر مقالاته وحسبى أن أشير إلى منهج المعالجة وأسلوب عرض المشكلة واستنتاج وسائل العلاج .

كتب الزيات فى فبراير سنة ١٩٣٩ مقالا بعنوان « يا أذن الحى اسمعى »[٢] ألمح فى بدايته إلى جهاده من خلال صفحات « الرسالة » فى التنبيه على مشكلة

(١) وحى الرسالة ٤ : ٩

(٢) وحى الرسالة ٢ : ١٤

الفقر وصارح قارئه بأسباب اهتمامه بهذا الموضوع وحمل على قسوة الغالبية من أغنياء مصر الذين لم يتأثروا بما كتب ، ولم تتحرك ضمائرهم التى تحجرت بالطغيان وازورت عن الأريحية للاحسان . يقول :

« أوشكت صفحات الرسالة أن تحترق لطول ما أنَّ عليها الفقر وزفر فيها الشقاء ، وأغنياؤنا ــ أحياهم الله ــ لايسمعون لأن آذانهم مبطنة بالذهب الأصم ولايشعرون لأن قلوبهم مغلفة بالورق المالى الصفيق . وبال الخلىّ أطول من ليل الشجىّ ، وسمع الناعم أثقل من همّ الشقى ، ودنيا اللذة أشغل بمباهجها وملاهيها عن دنيا الألم ! » . ثم يبين الزيات لقرائه بواعثه على الكتابة فى هذه الموضوعات والإلحاح عليها فيقول : « لعل من القارئين من يختلج فى رأسه هذا السؤال :

لماذا يمتد نفَسى بهذ الأنين الموجع ، ويستمد قلمى من هذا الدمع القانى ؟ وجوابى أنى نشأت فى قرية من أولئك القرى العشرين التى سلط القدر عليها الباشا والأمير ؛ فانشق بصرى على مناظر البؤس ، وتنبه شعورى على مآسى الجور . وعلمت حين تعلمت أن وطننا يفيض بالخير ، وديننا يأمر بالإحسان ، فأيقنت أن فقر الناس ، ناشىء من فقر الإحساس. فإذا طلب الفقير حقه ، وأدَّى الغنى واجبه ، تلاقت الأنفس على حدود الإنسانية الكريمة . فأنا أحاول بمواصلة هذا الأنين أن أعالج وقْر المسامع وسدَر العيون وخدَر المشاعر ، وعسى أن يتذكر المترفون أن لهم أخوة من خلق الله يأكلون ما تعاف الكلاب من المآكل ، ويناموني مع الحيوان فى المزابل ، ويقاسون من الأدواء مالا يقاسيه حىٌّ فى غير مصر . ولكنى علمت واحسرتاه بعد شهرين مضيا فى الشكوى والاسترحام ، أن بين أبناء الذهب وأبناء التراب أطباقا من اللحم والشحم والحديد والأسمنت ترتد عنها أصوات الضارعين أصداء خافتة ، ثم تتجاوب هذه الأصداء فى أكواخ المساكين ثم تتهافت على بريد الرسالة تهافت الأرواح الهائمة على الشعاع الهادى تتلمس فى ضوئه الطريق إلى الله وائِل الضعيف وعائل المعدم ! » .

ثم يعلن الزيات حسرته على أوضاع البؤساء فى مصر ومرارة نفسه لأن كتاباته

المتكررة لم تجد أذانا صاغية أو قلوبا عطوفة فى أسلوب تمتزج فيه الحسرة بالرجاء ويتراوح بين الأمل والقنوط . يقول :

من لنا بمن يفتح عيون السادرين على هؤلاء الأيامى اللاتى يقضين ليل الشتاء البارد الطويل على بلاط الأفاريز وقد تطرح أطفالهن على جنوبهن طاوين ضاوين لايفهمون عطف الأب ، ولا يعرفون دفء البيت ، ولا يدركون إلا أنهم أجساد تعرى لا تجد الكساء ، وبطون تخوى ولا تصيب الغذاء ، وأكف تمتد ولا تنال الصدقة ؟ .

من لنا بمن يفتح قلوب المالكين لأولئك الفلاحين الذين اصطلحت عليهم محن الدنيا وبلايا العيش وجهلتهم الحكومة فلا يعرفهم إلا جباة الضرائب فى المالية ، وفرازو القرعة فى الحربية ، وحراس السجون فى الداخلية ! .

أما المعارف والصحة والأوقاف والأشغال فشأنها شأن المترفين والمثقفين لاتعرف غير المدينة ولا تعامل غير المتمدن ؟ .

من لنا بمن يقول لهؤلاء المستكبرين : إن روكفلر ورتشلدُ لم يرفعهما إلا حب الإنسان ؛ وإن الدمرداش والمنشاوى لم يخلدهما إلا بذل الإحسان ، وإن لديهم من فضلات الثروة كربح الأموال فى المصارف، ومكافأة النيابة فى البرلمان، وحثالة الزروع فى العزب من التبن والقش والحطب ، مايوفر الغذاء والدواء والعلم لألوف الألوف من بنى الوطن ؟ » .

وفى مقال آخر بعنوان « الطفولة المعذبة » [1] يتناول ظاهرة من ظواهر الفقر ونتيجة من نتائجه المدمرة وهى ظاهرة الطفولة المشردة مصوراً بؤس هؤلاء البراعم وسوء حالهم ويحذر من تركهم دون رعاية لأنهم إن تُركوا على هذه الحال نشأوا فى مواقع الرذيلة وكانوا معاول هدم لأخلاقيات المجتمع وأمنه وفى ختام المقال ينحى الزيات باللائمة على الأغنياء المترفين الذين يأنفون من النظر إلى أولئك الأطفال فضلا عن أن يفكروا فى معاونتهم على الخلاص من البلاء الذى وقعوا فيه .

---

(١) وحى الرسالة ٢ / ١٧ .

يقول مصوراً أولئك الأطفاء المعذبين :

فى الأقوال السائرة أن الفقير كلما طلب من الله قرشاً أعطاه كرشاً وفى ذلك حكمة للعليم الحكيم تستسرُّ دلائلها على الفطن المحدودة . فإن قوام العيش ونظام الدنيا منوطان بالسعى المرهق والعمل المهين ، وهذان لايقوم بهما إلا الكثرة ولا يحفز عليهما غير الحاجة . والغنىُّ المترف يحسب أن يديه.لم تخلقا إلا لصرف النقود وقطف الخدود ورفع الكأس ، فمثله كمثل السبع من الوحش والطير : يُهلك ولاينتج ، ويدمر ولا يعمر . فكان من صلاح الأرض أن يقل نسله كما يقل نسل الأسود والنمور ، ويكثر نسل الفقير كما يكثر نسل الضأن والبقر . ولكن حكمة الله ضاعت فى غفلة الناس ، فبغى الغنى على الفقير حتى أصبح — وهو مصدر الإنتاج فى النسل والحرث — مفدوحاً بحمله فلا ينهض ، ومكدوداً بعمله فلا يستطيع ، ثم نبا كوخه الجديب الضيق عن بنيه فدرجوا فى أفاريز الشوارع وزوايا الطرق وعليهم هلاهل من أخلاق الثياب تهتكت على الصدور والجوانب . يستندُون الأكف بالسؤال أو يستدرُّون الجيوب بالسرقة ، أو يأكلون ما طرح من فضلات فى المزابل . هؤلاء الأطفال المشردون هم الذين تراهم يطوفون النهار وثلثى الليل على القهوات والحانات ، كما تطوف الكلاب والهررة على دكاكين الجزارة ومطاعم العامة وهمهم أن يصيبوا مايسد الرمق ويمسك الحياة . فإذا أغلقت القهوات وهجعت المدينة تساقطوا من السغوب واللغوب على العتبات وفى الحنايا وتحت الجدُر ، فيقضون آخر الليل يتداخل بعضهم فى بعض كما تتداخل خراف القطيع إذا عصفت الريح أو قرس البرد .

هؤلاء الأطفال المهملون هم الذين يستغل ذكاءهم تجار الرذيلة وسماسرة الجريمة ، يسلطونهم على القلوب البريئة والجيوب الآمنة ، فيسلبونها العفة والمال ، ثم لايكون نصيبهم من هذه الثمار المحرمة إلا الخوف والجوع والأذى والمطاردة . يغرون الصبيان بالشر ، ويوزعون المخدِّر فى السر ، ويسرقون السابلة بالحيلة ، ويستجدُون الجلاس بالرحمة ، ويجمعون الأعقاب من الطرق ، وكل أولئك لطغمة من المتعطلين

يتعقبونهم بعين النسر من بعيد ؛ حتى إذا أخذوا ما معهم تركوهم لأهوال الليل ، فإذا خشوا منهم نفاراً أو فراراً كدسوهم فى أقباء المنازل المهجورة ، فلا تدركهم عين الشرطة ، ولا تنالهم رعاية البر ، ولا أدرى كيف سالت على قلمى كلمة البر هنا ، وهى لو كانت فى لغة الناس لما كان كل هذا ! .

إن سادتنا المترفين ليأنفون أن تقع أعينهم على هذا القبح ، وأن تدنو أثوابهم من هذا القذر ، فهم ينهرونهم كما ينهرون الكلاب ، ويذبونهم كما يذبون الذباب ، ويفورون غضباً على الحكومة أن تسمح لهذه الحشرات أن تدب على الطرق المغسولة ، أو تحوم حول الموائد المزدانة ! .

يا لله ! ما ذنب هذا الطفل الشريد الذى تتحامون مسّه وتتفادون مرآه إذا كان القدر اختار له ذلك الأب البائس الذى يتزوج ولا يعاشر ، ثم يلد ولا يعُول ؟ هل من طبيعة الحى أن يلقى أفلاذ كبده مختاراً فى مدارج الطرق تطأها الأقدام وتتحيفها المكاره ؟ هل تستطيعون أن تجدوا لذلك ، إذا وقع علة غير الفقر الذى يحمل الأب فى أزمات القحط والحرب على بيع بنيه وأكل بناته ؟ فإذا كنتم تشفقون على نعيم عيشكم من رؤية البؤس ، وتخشون على جمال حياتكم دمامة الفقر ، وتضنون بسلام وطنكم على أدواء التشرد ، فاقتحموا على الفقر مكامنه فى أكواخ الأيامى وأعشاش العجزة ، ثم قيدوه بالإحسان المنظم فى المدارس ، والصدقة الجارية فى الملاجىء ، تجدوا بعدئذ أن الدنيا جميلة فى كل عين ، وأن الحياة بهيجة فى كل قلب ، وتشعروا أن روحاً عامة قد وصلت بين جميع الأرواح فأصبح الشعب كله جسماً حيًّا متآلفاً متكافلا فلا تتغذى خلياته بدم واحد ، وتتساير نياته إلى غاية واحدة ! » .

ولعل من أبرز معالم المنهج الذى اختطه الزيات فى دعوته الاصلاحية أنه لم يكن يعالج المشكلة من زاوية ذاتية ضيقة بل كان يتسع أفقه وفكره للمناقشة وتفنيد أقوال من يعارضونه فى دعوته أو يتعقبون آراءه وتوجيهاته ، ومن دلائل سلامة المنهج الذى سلكه أنه لم يصم أذنيه عن تلك الاعتراضات ولم يغفل مواقف

الخصوم وهم فى مشكلة الأعداء الثلاثة جمهور الأغنياء ومعظم سراة القوم فكان الزيات يبسط ما يتردد على ألسنتهم من أقوال بل أستطيع القول بأنه كان يقرأ أفكارهم فى كثير من الأحيان .

ومن أبرز ما كتبه الزيات حول موقف الأغنياء من دعوته الاصلاحية مقال له بعنوان « منطق الغنى »[1] حكى فيه حواراً دار بينه وبين أحد النواب الذين ينزعون منزع الارستقراطيين فى نمط العيش وأسلوب التفكير يقول بعد أن وصف لقارئه وصولية ذلك النائب وبراعته فى التهريج السياسى :

« ... قال بعد أن تبجح طويلاً بقوة أثره فى توجيه المجلس وتسفيه المعارضة وتنظيم النادى وتقويم الحكومة :

ــ مالك وللأغنياء توغر عليهم صدور الصناع والزراع والخدم ؟ .

ــ عجيب ! وهل تقرأ الرسالة ؟ .

ــ إنما يقرأها ابنى وابنتى ، وهما متأثران بها ومشايعان لها ، ولايزالان يجادلاننى فيما تكتب وتطلب حتى أترك لهما الدار . فهل تريد أن يكون الناس كلهم سواء فى الثروة ، وليسوا كما تعلم سواء فى الذكاء والقوة ؟ .

ــ يا سيدى ما اعتقدنا ذلك ولا كتبناه . فإنا نؤمن بالغنى والفقر كما نؤمن بالقضاء والقدر ، والتفاوت فى الطبع والكفاية والحيلة والوسيلة مبدأ مقرر فى الطبيعة ، ونظام مَسلم فى الدين ؛ ولكنا نحاول أن نُذَكر الأغنياء أن الله الذى خلقهم وخلق الفقراء قد جعل جُمعة ما بينهم وبينهم قائمة على أساس من المودة والرحمة يكفل المخالصة ويضمن السلامة . فإذا تعهدوا هذه الصلة الإلهية بالبر ، فمنح القادر العاجزَ روحاً[2] من قواه ، ونفح الواجدُ الفاقد قليلاً من جدواه ، سارت القافلة الإنسانية فى طريقها إلى الكمال الممكن غير ظلعاء ولا وانية . وإذا أردنا المساواة فإنما نريدها فى الحق والواجب ، وإذا ذكرنا المشاركة فإننا نذكرها فى حدود الإحسان والزكاة .

(١) الروح . المساعدة والرحمة .

(٢) وحى الرسالة ٢ / ٢٥ .

ـــ الإحسان يغرى بالكسل ويعين على بقاء الفاسد ، والفقير فى أكثر أمره عليل الجسم أو العقل ؛ فلم لايكون من الخير أن يترك للحرمان حتى يذبل ويسقط .

ـــ إذا استطعت أن تنفذ هذا الرأى فى أسرتك الخاصة ، استطعنا أن ننفذه فى أسرتنا العامة . فهل فى مقدورك أن تترك ابنك المعلول الذى لايبرأ ، وأخاك المخبول الذى لايعى ، حتى تعصف بهما المنون كما تعصف ريح الخريف بالورق الجفيف ؟ .

ـــ ما أظن القلب يطيع العقل فى ذلك .

ـــ ومن قال لك إن العقل يخولك حق الله على خلقه ، إن للفقير حق الحياة وليس لك عليه حق الموت . والله الذى خلق الكون خلق الفساد وجعل لكل منهما قوانين يجرى عليها فى الطبيعة . وستنالك أنت على الرغم من قوتك وغناك عوامل الذوىّ والبلى ، فهل تقبل من ذوى رحمك ووارثى مالك أن يدعوك فريسة الهرم والمرض ، كما يدع القطيع الحمارَ المحموم فى القفر الجديب .

★ ★ ★

رأى صاحبى أن هناك مدارك من فهم الحياة استعجمت على ذهنه الشارد فغمغم بعض الجواب وبيَّن بعضه الآخر حين قال :

ولكننى أعلم أن الزكاة فى أوربا ليست مشروعة ولا مجموعة ، ومع ذلك تجد الفقر محمولاً والحياة آمنة . فكل إنسان يعمل ، وكل حى يعيش .

ـــ لايغرنك ياسيدى ما تعلم من ظواهر الحياة الأوربية ، فإن مدنيتها طلاء على صدوع ، وكبرياء على خضوع . ولولا قيام الأديرة بجمع الصدقة وتنظيم الإحسان ونهوضُ الحكومات لحماية العجز وتوفير العمل ، لرأيت البؤس كرمز الموت هيكلا بادى العظام لاتستره أثواب ولا تحجبه أبواب .

ـــ وما قولك فى أمريكا ؟ أليست المسافة فيها بين الفقراء والأغنياء ، كالمسافة

بين الأرض والسماء ؟ ومع ذلك لاتجد بين هؤلاء وهؤلاء حسد ولا ضغينة .

ــ عفواً ياصاحب العزة ! لقد عرفت القياس، وأنكرت الفارق . إن أكثر المنافع فى أمريكا من فضل الغنى فكيف يبطن الفقير له الغل وهو يتعلم فى مدرسته طفلا ، ويعمل فى مصنعه رجلاً ، ويتداوى فى مستشفاه مريضا ويأوى إلى ملجئه شيخاً ؟ إن صاحب الملايين فى الدنيا الجديدة هو مثل الإنسان الأعلى : أثرى بالكد والإيمان والكفاية ، ودير تراءه على قواعد الوطنية والإنسانية والدين ؛ فكان حربا على الجهل والبؤس والشر ، وعاملاً للسلام والوئام والمحبة . أما أغنياؤنا فمثال الطمع الجرىء والشح الدنىء والصلف العاتى أثروا بالإرث أو بالحرص أو بالحظ أو بالحيلة ، تم كدروا صفوا الحياة على الفقير ، فهم بزاحمونه على المجانية فى المدارس ، يغلبونه على الوظائف فى الدواوين ، ويدوسونه بسياراتهم فى الشوارع ، ويسلبونه بطماعيتهم فى المزارع ، ويصدونه عن البرلمان حتى لايكون لغير أقوالهم سميع ، ولا يصدر بغير إرادتهم تشريع .

ونظر صاحبى فى ساعته ذات السوار ، ونظرتُ أنا إلى البحر الأبيض فإذا هو يمور ويفور ، والصيادون المساكين يكافحون العاصفة ليصيدوا لهذا الغنى المبطان لوناً من الطعام تكمل به مائدته الموقَرةُ الحافلة ! .

ثم افترقنا وكل منا على رأيه ! » .

وهذا المقال ينطق بمنهج الزيات فى معالجة قضية الفقر ويكشف عن قوة حجته وشدة قناعته بالآراء الاصلاحية التى يدعو إليها ، وإخلاصه فى الدفاع عنها وعدم مهادنته فى ذلك . مما يدل على أن الزيات كان يكتب عن تلك المشكلات بقلبه وروحه وفكره وعقله ويحشد فى سبيل ذلك طاقاته كلها دون كلل أو يأس .

وتعلو نغمة الحنق على صلف الأغنياء وغفلتهم وانصرافهم إلى ملذات الحس وبطالات اللهو فى مقال آخر من سلسلة تلك المقالات اللواذع عنوانه « حلم ليلة

(١) المرجع ٢ / ٨٣ .

صيف » صاغه الزيات فى صورة حلم مخيف رآه فيما يرى القائم فى إحدى ليالى الصيف الحارة بالقاهرة .

حكى الزيات فى بداية المقال أنه أمضى أصيل ذلك اليوم وأمسيته فى جولة على ضفاف النيل وكانت وقدة الحـــر قد دفعت القاهـــريين إلى شـاطىء النيل وجســـوره ، ومضى هو بينهم شـــارد اللب ذاهـــل الفكـــر لكثرة مايطالعه من صـــور البؤس وما يمزّق وجـــدانه من ألوان الشقـــاء بين ســـواد الناس الذين لم تقع عينه إلا عليهم أما الأغنياء الموسرون فقد ارتادوا مصايف أوربا ، ويعود الكاتب من جولته مكروبا منقبض النفس تتوارد على ذهنه المكدود صور القوة والضعف والغنى والفقر وتحتدم صورة الصراع بين هذه وتلك فى نفس كاتبنا إلى أن أوى إلى فراشه طلبا للراحة يقول فى بقية المقال حاكيا حلمه المزعج : « كانت ساعة الحرس الملكى تعلن بدقاتها المدوية انتصاف الليل حين تهالكت على الفراش وأنا من إدمان الذكر والفكر عَلى حال شديدة من الجهد . فلم تكد عيناى تغفيان حتى رأيت فيما يرى النائم أن دور الفقراء وأكواخ المساكين فى بولاق أمست كالتنانير الموقدة تلفح جدرانها باللهب ، وتسيل سقوفها بالبق ، ويختنق هواؤها بالنتن ، فتركها أهلوها هاربين فى عتمة الليل إلى الشوارع والميادين فظنهم الحراس والعسس « متظاهرين » فطاردوهم بالعصى مطاردة الجراد ؛ فهاموا فى الشوارع من الذعر هيام القطيع ، حتى وجدوا قصراً من قصور الأمراء ، غريقاً فى الأضواء والضوضاء ، فلم يتمالكوا أن تدفقوا فيه من أبوابه ، على الرغم من دفاع حراسه وحجّابه . ثم انساب هذا الجمع الفزع فى حديقة القصر الأفيح حتى أحدقوا ببؤرة الضوء ، ثم أخذوا يستفيقون من الذهول والرعب على شذا العطور وسطوع النور ونغم الموسيقى واستطاعوا أن ينظروا فماذا رأوا ؟ رأوا حفلة راقصة تحت السماء على بركة الحديقة الواسعة ، وأربابُ النعمة وربات النعيم متقابلون على الأرائك أو متعانقون على الأعشاب ، أو متخاصرون فى المراقص ، أو متنادمون حول المقصف ؛ وشموس الكهرباء تسطع على الظهور البلورية والصدور العاجية وقد انشقت أطواق الفساتين من أمام ومن خلف إلى ما تحت الخصور فلم يمسك

(١) وحى الرسالة ٢ / ٨٣ .

الثوب عن النزول إلا شريطان على الكتفين رصعا بالماس وعقدا بالذهب . وكان الجو البليل مشبعاً بريا العطر وعبق الخمر وأنفاس الغوانى وشدْو القيان وهزج المزامير وعزف الأوتار ، فلا يدخل فيه ذو حس إلاّ هاج واشتهى ، ولا ذو وقار إلا عبث والتهى . وكانت البركة المسحورة بماء الورد واللاوندة تموج بالحور والولدان سابحين أو متشابكين ، يتواثبون من النشوة ، ويتجاذبون من الشهوة ، وعلى حفافيها المرمريين يتراقص القوم أزواجاً على أنغام « الجاز » والسواعد ملتفّة على القدود ، والشفاه مطبقة فوق الخدود ، والأثداء رجراجة بين الصدور والنحور ، والأنظار جوالة بين البطون والظهور ؛ وفوق نافورتها الوسيعة البديعة ترقص حول رشاشها الطائر الوهاج جوقة من غرائس عبقر ، فى غلال عسجدية من نسج الجن ، وأوشحة مصبغة من صنع السحرة . وكلما ماست الحوريات الرواقص تقلّب عليهن الوشي ، واختلف فوقهن اللون ، وانبثق عليهن شعاع من الفتنة يبهر العيون ويضل الأفئدة ! .

* * *

كان القوم فى سورة اللهو وسكرة اللذة وحميا الطرب حين أحاط بهم مساكين بولاق وفقراؤها فى بزتهم الزرية وهيئتهم المخيفة ، فانفغرت أفواه هؤلاء من الدهش . وقفت رؤوس أولئك من الخوف ، والتقى الشقاء والسعادة وجهاً لوجه ، وأوشكت أن تكون بينهما ملحمة ! .

ولكن الله لم يشأ أن يصطرع الغنى والفقر فى هذه اللحظة الرهيبة فرأيت أفواجا من البق والبراغيث لها أجنحة كالفراش وخراطيم كالبعوض قد خرجت من ثياب الفقراء وأخذت تلسع الأجسام الغضة والوجوه الناضرة لسع النحل المهيجة! فتراكض الداعون والمدعوون هاربين فى الحديقة وهذه الطير الأبابيل فى ظهور النساء وأقفية الرجال تخزهم بالسم حتى أخرجتهم إلى الشارع . وهناك كان الجند يترقبون خروج (المتظاهرين) فلم يكادوا يرون هؤلاء حتى ركبوهم بالعصى وساقوهم سوق الأنعام إلى مركز البوليس فقضوا ليلهم الباقى على الأسفلت .

وخلا المقصف والمرقص والقصر لطرائد البؤس والشرطة فأكلوا مريئاً وشربوا هنيئاً وناموا ملء الجفون على الأسرَّة المذهبة ! .

ثم كَرَبني الحر فصحوت من النوم ، قبل أن يريني الحلم فى ضوء الصباح فضيحة القوم ! » .

وهكذا يرسم الزيات صورة مروعة للهوة السحيقة التى تباعد بين الفقراء البؤساء ، والأغنياء المترفين على ربوع مصر عن طريق تكثيف المفارقات التى ضمنها مقاله الرمزى المتقدم ، ويلمح الكاتب من خلاله إلى خطورة استمرار تلك المأساة الانسانية دون أن تصحح الصورة وتقل الفوارق الصارخة بين طبقات المجتمع ، ويحصل الفقراء فيه على الحد الأدنى من الحياة الانسانية الكريمة .

لقد كانت كتابات الزيات وغيره من دعاة الاصلاح ومعالجاتهم الجادة لظواهر البؤس والمعاناة لدى قطاع عريض من الشعب المصرى لها أصداؤهاالقوية فى دهاليز السياسة ودواوين الحكم ، فتبنت بعض الحكومات تلك القضايا وشرعت الحكومة فى إنشاء وزارة للشئون الاجتماعية فى أواخر سنة ١٩٣٩م وقد استقبل الزيات هذه الوزارة الجديدة مباركا مستبشراً واعتد قيام هذه الوزارة كسباً لرسالته وتحقيقا لآمال كانت تلح عليه وتكرب خاطره ، ومما يدل على إخلاص الزيات فى دعوته الاصلاحية حرصه على نجاح هذه الوزارة فى مهامها الهائلة وبدا هذا الحرص فى عدد من مقالاته التى وضع فيها منهاجا لها رآه ضروريا لتقوم بالدور المنوط بها على أكمل وجه يقول تحت عنوان « منهاج لوزارة الشؤون الاجتماعية »[١] « ما أظن أحداً من آحاد المصلحين ثلجت نفسه لإنشاء هذه الوزارة مثلما ثلجت له نفس الرسالة . ذلك لأن سبيل هذه الوزارة هى السبيل التى تجاهد فيها الرسالة ، وخطتها هى التى تسير عليها الرسالة ، وغايتها هى التى تقصد إليها الرسالة ، فكأنها قامت لتحقيق آمالها بالتنفيذ ، وتطبيق مبادئها بالعمل . ومن ذا الذى لايثلج صدره إذا رأى قوله قد صار فعلا ، وخياله قد أصبح حقيقة ؟ .

(١) وحى الرسالة ٢ / ٩٨ .

(٢) ثلجت نفسه كبلج صدره : مصر .

لقد عالجت الرسالة مشكلة الفقر على وجوهها الشتىّ فى بضع عشرة مقالة خرجت منها على أن الحرمان كان فى الأكثر الأغلب علة ما يكابد المجتمع من جرائم القتل والسرقة ورذائل البغاء والتشرد . فلو أن أولى الأمر عالجوه بما عالجه به الله من تنظيم الإحسان وجباية الزكاة لما وجدوا فى البيوت عائلاً ، ولا فى الطرقات سائلا ، ولا فى السجون قاتلا ، ولا فى المواخير ساقطة . ولكننا تركنا الموضوع قانطين من رحمة القلوب ، لأننا وجدنا غاية الأمر فيه لاتعدو البكاء والاستبكاء ، مادام الحكم فى أيدى الأقوياء ، والتشريع لألسنة الأغنياء ، والغَلب والسبق للناب العضوض والجناح المحّلق . فلما وفق الله الحكومة القائمة لأن تجعل لآثام الفقر وأرزاء المرض وزارة تعالج كل عَرَض لها ، وتساعف كل منكوب بها ، وتقطع كل علة فيها ، قَرُبت منازع الإصلاح وسفرت وجوه المنى ، ثم كان من مصاديق الأمل ودواعى الثقة أن تولى هذه الوزارة رجل من رجال الجد والعزيمة لم يصبه الله بداء الكلام ، ولم يشغله بحرفة السياسة ، فاختار لمشورته ومعونته وأمره طائفة من قادة الرأى ودعاة الإصلاح ، ثم مضى بهم فى طريقه المرسومة إلى غايته المعلومة يقظ القلب نافذ الهمة لايُعمىّ وجهة ضلال ، ولا يقطع سبيله عقبة .

ولكننا لاحظنا أن وزارة الرجل السَّكوت الفعول قد أخذت فى هذه الأيام تسرف فى نسج الكلام وقطع الوعود ووضع المشروعات وتقديم المقترحات وتأليف اللجان ، فذكرنا بذلك وزارة المعارف فى عهد من العهود إذ كانت تؤلف كل ساعة لجنة ، وتضع كل يوم مشروعاً ، وتسن كل أسبوع نظاماً ؛ ثم ينتهى الأمر بأكثر أولئك إلى ما تنتهى إليه الفقاقيع الغازيَّة على وجه الماء الآسن ! .

لقد أكرهتنا حكوماتنا المتعاقبة على أن نفهم أن تأجيل الموضوع للبحث معناه إهماله ، وتحويل المشروع إلى لجنة معناه إغفاله . فهل يجوز أن نخشى مثل ذلك من هذه الوزارة الوليدة ، وهى لم تُبتل بعد بجمود الموظفين الآخرين وروتين الوزارات الأخريات ؟ .

إن الدم الجديد فى هذه الوزارة ، والروح المتوثب فى هذا الوزير ، يُذهبان الخيفة من جهة التفريط والنكول ، ولكنهما يوجبان الحيطة من جهة الإفراط

والتهور . وكفى بهذه الظنة باعثاً على كتابة هذه الكلمة » .

ثم يستطرد الزيات فى مقاله المستوعب فيشير إلى أهمية الدور الذى تؤديه تلك الوزارة ويعقب على ما بدأت به من مناهج الاصلاح من تقييد الزواج وتحديد السهر وتحريم بعض ألوان اللهو ويوضح رأيه فى أن هذه الأمور ينبغى أن تكون نهاية المطاف لابداية المسير ويدعو إلى أن يكون منهاجها تحت ثلاثة عناوين هى: الفقر والجهل والمرض ثم يفصل الزيات بعد ذلك القول فى كل مشكلة من تلك المشكلات محدداً دور الشئون الاجتماعية فى مقاومتها موضحا المسئولية التى تقع عليها فى كل منها بحيث لاتختلط اختصاصاتها مع غيرها من الوزارات كالمعارف والأوقاف والصحة .

وألخص للقارىء هنا ما أفاض كاتبنا فى شرحه وبسط القول فيه ففى مشكلة الجهل يقول :

الجهل كما يظهر لأدنى نظر هو علة العلل فى اضطراب الأسرة ، وانحطاط البيئة وفساد المجتمع ، وأفن الرأى العام . فإذا وُفقت هذه الوزارة بالفعل إلى أن تمحو الأمية وتنسخ الجهالة فقد تيسر لها أن تقول فتُفهَم ، وتكتبَ فتُقرأ ، وتشير فتُتَّبع . وإذن يخف عنها عبء الإصلاح باعتماد كل امرىء على نفسه فى تدبير عيشه من طريق الكفاية فلا يكون فقر ، وفى علاج بدنه من طريق الوقاية فلا يكون مرض ، وفى تهذيب خلقه من طريق الدراية فلا يكون شر . ذلك إلى أن الشعب متى أدرك القدر المشترك من المعرفة قوى عقله فيعمل عمله بروية ، ونضج رأيه فينتخب نائبه بحرية . وبروية العزيمة تثمر فروع الإنتاج ، وبحرية الرأى تثبت أصول الديمقراطية » .

ثم يقرر الزيات أن وزارة المعارف لم تستطع بما تهيمن عليه من التعليم الحكومى والأهلى والدينى والمدنى والوطنى والأجنبى أن تنفى الأمية من فى مصر إلا عن ٢٥٪

من الذكور و ٨٪ من الاناث وأما دور وزارة الشئون الاجتماعية فى نشر المعرفة فيحدده لها الزيات فى منهاجه المقترح بقوله :

« أما كيف يتهيأ لوزارتنا الجديدة بلوغ هذه الخطة فسبيله القصد إنشاء المدارس الشعبية الليلية فى معاهد المدن ومساجد القرى . وحشد العامة إليها من طريق الإغراء المادى والإكراه غير المباشر ، كأن يُفرضَّ للمنتهين والمتفوقين جوائز مالية ، وأن يُشْرَط على طلاب الرخص للسعى أو للخدمة أن يلموا بالقراءة والكتابة ، ولسنا بصدد التفصيل فذلك عمل له وقته وله أهله .

هذه المعاهد الليلية المبثوثة فى أرجاء الوادى وأعطافه وأريافه ستكون — فضلاً عن عملها الثقافى — أداة مضمونة لنشر الاصلاح الاجتماعى فى جهاته المتشعبة وغاياته المتعددة ، فإن الوزارة تستطيع أن تجعل من كل فرد يتعلم فيها بوقاً رافعاً لأصوات وعاظها ومرشديها الذين يساعدون بالمحاضرة فيها على تقوية المدارك وتهذيب العادات وتنظيم العيشة وتدبير الصحة ، وسيكون كل معهد من هذه المعاهد الشعبية وحدة اجتماعية يتفرق عنها الضوء والحرارة فى كل بيئة وفى كل أسرة. فإذا قامت الوزارة بذلك ثم حملت وزارة الدفاع على أن تعلم الجيش المرابط والجيش العامل فقد ظفرنا بقتل الأمية فى قليل من الزمن بيسير من النفقة . وإذا قتلنا الأمية فقد أحيينا فى الشعب خمود الحس وموات الضمير ومعنى الواجب »

وفيما يتعلق بالمشكلة التالية وهى الفقر فيضع الزيات تصوره لذلك فى إطار ثلاث اتجاهات : الدين والتشريع والإدارة يقول :

« فأما ما تستطيعه من طريق الدين فجباية الزكاة وتنظيم الإحسان . وجباية الزكاة فريضة على الحكومة المسلمة ، كما أن أداءها فريضة على الشعب المسلم ؛ فلا يجوز للوزارة أن تكل أمرها لحرية الضمير وإرادة النفس ، فإن طمع الناس فى عاجل

ثواب الدنيا أقوى من طمعهم فى آجل ثواب الدين ، ومن أجل أداء الزكاة كان ارتداد العرب عن الإسلام فى عهد أبى بكر ، إنما يجب أن تجبى الزكوات بالاضطرار ، كما تجبى ضرائب الأرض وعوائد العقار ، وأن يكون لوزارة الشؤون الاجتماعية جُباة كما كان لوزراء الماليةصيارف... ولابأس أن يترك الاختيار فى الإحسان ، على أن يستعان على غرسه فى القلوب وجمعه فى الأيدى بفرقة من الرجال والنساء تدخل البيوت والمكاتب على الأغنياء والغنيات من الأفراد والشركات، فيذكرونهم بأن الله الذى خلقهم وخلق الفقراء قد جعل جُمعة مابينهم وبينهم قائمة على أساس من المودة والرحمة : فإذا ماجمعت الزكوات والصدقات من طريقىْ الطوع والكَرْه تجعل فى (بيت المال) لا فى (الخزانة العامة) ثم تدير على قواعد النظم الحديثة فى التأثيل والاستغلال ، وتنفق فى إنشاء المياتم [1] والملاجىء والمستشفيات ، ويستعان بالفرقة التى جمعت الإحسان من بيوت الأغنياء ، فى توزيع المعونة على المتعفف المجهول من بيوت الفقراء :

وأما ما تستطيعه الوزارة من طريق التشريع فسن القوانين لحماية العامل والفلاح من صاحب المال ومالك الأرض ؛ فإن أكثر ما يصيب الطبقة العاملة من المحن والإحن إنما ينشأ من إطلاق الحرية الطاغية لأصحاب الأموال الذين يستثمرونها فى التجارة أو فى الصناعة ، ولأرباب الأطيان الذين يستغلونها بالتأجير أو بالزراعة .

فهؤلاء وأولئك على قلتهم يتحكمون فى الأجَراء ويستبدون بالمستأجرين ولاتدركهم بهم رحمة الخالق بالخلق ولا عناية الصانع بالآلة .

وإذا شاءت الوزارة أن تحقق ما يعانيه العامل والصانع من أولى العمل ، ومايقاسيه الأجير والزارع من ذوى الطين ، تكشف لها أستار المجتمع عن مآسٍ من الظلم والغبن والطمع والأثرة لايستطيع منع تمثيلها المحزن المخزى غير سلطان القانون .

---

(١) المياتم : جمع ميتم وهو مكان لليتامى المتروكين يربون فيه ويعلمون ، وهو بهذا المعنى مستعمل فى العراق، والعامة تستعمله خطأ فى معنى مأتم .

بقى ما تستطيعه الوزارة من طريق الإدارة وهو يشمل مالا يدخل فى نطاق الدين أو القانون بنص صريح ، كمكافحة البطالة بتيسير سبب العمل للعامل ، وتدبير رأس المال للصانع ، وتمصير المعامل والمصانع والمتاجر والمصارف والشركات يداً ولساناً ليحل الوطنيون المتعطلون فيها محل الأجانب ، وذلك مورد للرزق يمكن أن يعيش عليه ألوف من الأسر المحرومة أهملته الحكومات السالفة لاشتغالها بسياسة الكلام وخصومة الحكم عن كل نافع » .

أما مشكلة المرض فيفيض الزيات فى بيان أسبابها ويتتبع منابعها وأعراضها يقول :

« ... ولعل المرض كان العرض الملازم الذى يميز الشقاء المصرى من كل شقاء فى العالم . وإن أثره فى تاريخنا الاجتماعى كان كأثر الزلازل والبراكين والحروب فى تاريخ البلاد الأخَر . فقد كانت الأوبئة تفد إلى مصر عاماً بعد عام فتجتاح نصف السكان وتصيب النصف الآخر بعاهات تدعه كالشجر اليابس لا للظل ولا للثمر . والعلة الأصيلة فى ذلك أن أبانا النيل منذ شقه الله يجرى فيكون الخصب والغضارة والحياة ، ثم يركد فيكون الجدب والذبول والموت . وفيضانه ونقصانه يتعاقبان تعاقب الجديدين . فإذا فاض أنعش الذاوى وجدد البالى وأحيا الموات. وإذا نقص تخلفت بقاياه فى أجواف المصارف وأطراف الترع ومناقع الأرض فتكون مزارع خصبة لجراثيم التيفود وبعوض الملريا وقواقع البلهرسيا وديدان الأنكلستوما ، وبنو النيل الدائبون البررة لا ترتفع أيديهم من مائه ، فى حالى نقصه ووفائه ، فخيرهم منه لايزال مشوباً بالشر ، ووجودهم لاينفك مهدداً بالعدم . فإذا أضفت إلى ذلك أن الجهل يستوجب فساد العيش وترك الوقاية ، وأن الفقر يستلزم سوء الغذاء ونقص العلاج ، فقد اجتمعت لك أسباب المرض التى جعلت الكثرة الكاثرة منا مذبذبين بين الدور والقبور لا هم فى الأحياء ولا هم فى الموتى ! .

إذا استطعت أن تقيم البناء من ناخر الحجر ، وتنسج الرداء من رثيث الخيط ، استطعت أن تؤلف من مهازيل المرض وسُقَاط الوهن شعباً يستغل الأرض وجيشاً يحمى الوطن » .

ثم يبين مهام وزارة الشئون ويفصل بين مسئولياتها ومسئوليات وزارة الصحة بقوله :

« ولكن هل من الحق أن يلقي عبء الصحة العامة على كاهل هذه الوزارة المفدوحة بأمور المجتمع ؟ إذن فماذا تصنع وزارة الصحة ؟ والجواب أن الجهاد الصحى مفروض على الوزارتين جميعاً لنظام تقتضيه طبيعة كل منهما فلايُثقل إحدهما ولايعطل الأخرى . فكل مايتصل بالوقاية والصيانة يرجع إلى وزارة الشئون الاجتماعية ، وكل ما يتعلق بالطب والعلاج يعود إلى وزارة الصحة . وقد يجوز لهذه الوزارة بحكم خصوصها أن تصون وتقى ، ولكن لايجوز لتلك الوزارة بحكم عمومها أن تعالج وتَطب .

فمن الطب الوقائى المنوط بوزارة الشئون تخطيط القرية على نمط يكفل لها الشمس والهواء والجمال والذوق والراحة ، وفصل الحظائر والمزابل عن المساكن ، وتجفيف البرك والمستنقعات ، وتطهير الماء الراكد من الطفيليات ، وإنشاء المعامل والمراحيض العامة ، ورفع مستوى المعيشة القروية بتحسين الغذاء وتنقية الماء وتعميم النظافة ، وإرشاد الفلاحين عن طريق الإذاعة والصحافة والوعظ إلى أنجع الوسائل فى اتقاء العدوى وتدبير البدن .

ذلك عملها فى القرية . وأما عملها فى المدينة فبناء المساكن الصالحة للعمال ، ومراقبة المعامل والمصانع من حيث الصحة ، وملاحظة المطاعم والمشارب من حيث النظافة ، ومراعاة الطعام والشراب من حيث السلامة ، وحماية الطبقة العاملة من رهق العمل ، ووقاية النفوس الغاوية من سموم المخدرات ، وبث الروح الرياضية فى كل طبقة ، وإنشاء الملاعب والمسابح والأندية فى كل بيئة ، وإقامة المسابقات النهرية والبرية فى كل فرصة ، وتفريج الهموم بإقامة المهرجانات الشعبية فى كل مناسبة ، وتعميم الثقافة الصحية عن طريق التعليم والإذاعة والنشر ».

ولايتوقف جهاد الزيات الاصلاحى عند وضع منهاج لوزارة الشئون بل يتابع القضية فيتبع ذلك بمقال آخر عنوانه « هذا هو المنهاج فكيف المسير »[1] يطالب

(١) وحى الرسالة ٢ / ١١٢ .

فيه باعتماد الأموال اللازمة للوزارة الوليدة وألا يكتفى بالبرامج والخطط لأن الآمال والأحلام لاتنجز شيئا فى الواقع مالم يساندها العمل الفعلى والتنفيذ الدقيق . وتمضى السنون وتتعثر وزارة الشئون فى أداء مهامها المأمولة فيعاد الزيات الكتابة حول القضية فى سنة ١٩٤٦ تحت عنوان « أعداؤنا الثلاثة » [١] أشار فى بدايته إلى موقف الرسالة من مشكلات الفقر والجهل والمرض وما اقترحته قديما من منهاج لوزارة الشئون وما أمّلته من ورائها ثم يقول : « ... ثم انتظرنا وانتظر الناس ، فإذا هى وزارة كسائر الوزارات ، مكاتب وكتاب ، وسعاة وحجاب ، وأوراق تفرّق وتجمع ، وأرزاق تقدر وتوزع ، ثم علم من غير عمل ، أو عمل من غير علم ، وإذا نحن بعد ثمانى سنوات من عمرها لانزال من الأمية والفاقة والعلة فى الموضع الذى كنا فيه إذا لم نكن تأخرنا عنه . ذلك لأنها وزعت جهدها الضئيل ومالها القليل على ماسلبت من اختصاص الوزارات فعجزت عن أداء ما خلقت له ، وتعاقب عليها الوزراء والوكلاء تعاقب الظلال الخفاقة ، فلم يمهلوا حتى ينضجوا الرأى ويرسموا الخطة ويبتغوا الوسيلة . فإذا سنح لها خاطر فى الإصلاح بدأته من آخره أو أخذته من طرفه فينتشر عليها الأمر وتلتبس أمامها الوجهة . فالأمل إذن فى استعدائها على الجهل والفقر والمرض وهى مصابة بهن جميعاً أشبه الأشياء باستثمار الصفاف واستيلاد العقيم ، ولكن علل الشقاء المصرى كانت قد برزت فى وعينا القومى بروز العقيدة الراسخة والضرورة الملحة ، فهى تثب إلى العيون وثوب الحصى ، وتقع فى القلوب وقوع النبل ، فمن حاول أن يفر منها أو يغضى عنها كان كالمصحر فى وسط الزوبعة أنى اتجه وجد الرمل فى وجهه والظلام فى وجهته . وذلك مثل الذين تزعموا نهضة الأمة فى مدى ربع قرن فقصروا الجهود وحصروا الأفكار فى مكافحة العدو الرابع وهو الاحتلال . ولو كتب الله لهم التوفيق لشبوها على الأعداء الأربعة فى وقت واحد . ولو مهد لهم سبيل الفوز لجعلوا الميدان الأول للعدو الأول وهو الجهل ، لأنه هو الذى ولد الفقر والمرض ثم استعان بهما على سلب الاستقلال وجلب الاستقلال ، وقتل الروح القومية فى الشعب ، فلم يكن له رأى عام لنقص إدراكه ، ولا خير مشترك لضعف إنتاجه ، ولا كيان صحيح

(١) وحى الرسالة ٣ / ٦٠ .

لوهن جسمه ، ولكن زعماءنا اختاروا أسلم الميادين ، ونهجوا أسهل الطرق ، وابتغوا عرض الحياة ، لأن محاربة الاحتلال لاتكلفهم غير تأليف المظاهرات وإنشاء المقالات وإلقاء الخطب ، ثم تنتهى بهم وشيكا إلى الحكم والثروة والجاه عن طريق الدستور أطال الله عمره وأعز نصره ! أما محاربة الجهل والفقر والمرض فجهاد لايثبت له ولا يصبر عليه إلا أولو العزم من المجاهدين المخلصين المضحين الذين يعملون ليرضى الله ، ويشقون ليسعد الناس ، ويموتون ليحيا الوطن ! » .

وتأتى فى ذروة مقالات الزيات الاصلاحية المتعلقة بمشكلات الفقر والجهل والمرض ـــ من الناحية التاريخية ـــ مقالة له بعنوان « ثوروا على الفقر قبل أن يثور »[1] فى ١٥ يناير سنة ١٩٥١م يقول فى مطلعها :

سادتى وزراء الشئون الاجتماعية والاقتصاد الوطنى والتموين والتجارة والأوقاف ! نصيحة خالصة لوجه الله يدفعنى الاشفاق عليكم أن أقدمها إليكم .

ثوروا على الفقر قبل أن يثور ، واستعدوا للدائرة قبل أن تدور ! إن زميلكم وزير المعارف يؤلب عليكم الأمة ! لقد صمم على أن يعلم الشعب . وتعليم الشعب معناه أن تزول الغشاوة عن عينه فيبصر ، وأن تنجلى الغشاوة عن قلبه فيفقه ، وأن تذهب البلادة عن عصبه فيحس . ومتى يبصر الشعب ويفقه ويحس ، يدرك الاختلاف بين حال وحال ، ويميز الفرق بين طبقة وطبقة ، ويقرأ العدد الأخير من مجلة (آخر ساعة) مثلا فلا يكتفى منه بالصور تلهيه ، ولا بالأخبار تسليه ؛ وإنما يوازن موازنة الوعى المفكر بين ما صورته من عيد رأس السنة الميلادية وما أقيم فيه من مآدب ومراقص فاضت بالنعيم ، وتلألأت بالجواهر ، وازدهت بالحلل ، والتحمت بالرقص ، وطفحت بالخمر ، وضجت بالجاز ، والتهبت بالقبل ، وعرضت على الأنظار الطامحة ألوفاً مؤلفة من الجنيهات المصرية تمثلت على الأجساد المترفة البضة حللا وفراء وعقوداً ومشابك وخواتم مما يجلبه الغنى الفاحش من كنوز أوربا ! يوازن بين هذا وبين ما صورت المجلة فى العدد نفسه من بؤس الفلاح فى قرية (مناوهلة) بالمنوفية وما يكابده من كرب العيش ، وغصص

(١) وحى الرسالة ٤ / ٩ .

الفاقة، ومض الأمراض ، وعنت الملاك ، وهبوط دنياه إلى دنيا البهيم ، فيأكل أجشب الطعام ولا يغتذى ، ويلبس أخشن الثياب ولا يستتر ، ويعمل أشق الأعمال ولا يكافأ ، وينتج أعظم الانتاج ولا يشارك ، فتصدمه الموازنة لأنه علم ، وتؤلمه النتيجة لأنه أحس . ويومئذ يسألكم يا أصحاب المعالى هذا السؤال : « ماذا تصنعون على الكراسى التى وضعتكم عليها بيدى، وكافأتكم على الحركة فيها بمالى ؟ ».

ولعلكم تدركون يا أصحاب الجاه والسلطان ، أن الجواب عن سؤال الشعب غير الجواب عن سؤال البرلمان ! .

أعداؤنا الثلاثة يا أصحاب المعالى وهى الجهل والفقر والمرض لاتعرف هوادة ولاتقبل هدنة . فأما الجهل فالصراع بينه وبين وزير المعارف شديد . والعالم كله يرقب هذه المعركة الشعواء بعين الإعجاب والثقة ، والنصر ولا ريب مكفول لمن لايقبل النكوص ولا يرضى الهزيمة . وأما الفقر والمرض فقد تركتموهما يعيشان فى القرى والمدن : يبذران الشقاء والوباء ، ويسخران من وعودكم التى تعلن ولاتنجز ، ومن مشروعاتكم التى توضع ولا تنفذ . وإذا أنجز منها وعد أو نفذ مشروع ، كان لمصلحة الأغنياء ومنفعة الأصحاء على حساب الفقراء والمرضى ! » .

ولعلنا بعد هذا العرض الذى طال إلى حد ما ــ وإن كان فى واقع الأمر ضئيلا إذا قورن بالفيض الدفّاق الذى أبدعته براعة الزيات حول أخطر أدواء المجتمع المصرى فى عصره وهى الفقر والجهل والمرض ــ لعلنا بعد ذلك نستطيع أن ندل قارىء هذا الكتاب على أهمية الجهد الفكرى الذى اضطلع به كاتبنا الأديب ودوره فى الإصلاح ووطنيته وغيرته ، وما يعنينا كما أشرت هو تبيّن المنهاج واستخلاص الدلالات . وذلك ما ألخصه فى النقاط التالية .

١ ــ تكشف هذه المجموعة من المقالات عن إخلاص الزيات وصدق معاناته لقضايا وطنه وبؤس السواد الأعظم من أفراد أمته وفى ذلك تتجلى عظمة الزيات وبعد أثره فى الإصلاح فقد أضاف بذلك الالتزام الوطنى الصادق بعدا مهما

لشخصيته الفريدة فى عالم الفكر والأدب وهو بعد المصلح الموجه الذى يؤدى لتراب وطنه ضريبة العلم الذى حصّلَه والمعرفة التى أتيحت له .

وتزداد أهمية هذا البعد الاصلاحى الصادق إذا راعينا أن الزيات لم تشغله السياسة ولم تلهه الحزبية ولم ينزلق إلى ما انزلق إليه غيره من صراعات تافهة وتطاحن فى غير طائل فقد عرف واجبه نحو وطنه ومواطنيه ، وتبيّن طريقه إلى أداء ذلك الواجب فنهض به غير وان ولا متخاذل ، فكان من تلك الجهة نموذجا فذّا للإخلاص والصدق والوطنية والالتزام .

٢ ـــ برع الزيات فى عرض موضوعاته ووفق فى الإبانة عن آرائه وذلك نتيجة لازمة لصدق المعاناة وإدامة النظر والرغبة الغالبة فى تحقيق الإصلاح ، ورفع نير الظلم عن مواطنيه ، ولايكاد يشعر قارىء كتابات الزيات فى مشكلات الفقر والجهل والمرض أن كاتبنا يتفرس أو يتأمل من شاطىء قريب ، بل يحس أنه يخوض لجج المشكلة ويصارع أمواجها العاتيات ويتلمس أسلوب الخلاص وفى ذلك مايدل على عمق التجربة الأدبية عنده فقد جاءت كتاباته أنفاساً ملتهبه ، وسهاماً مصميات ، لأنها نابعة من قلبه معتصرة من ذوب وجدانه .

٣ ـــ وتأسيساً على ظاهرة الصدق فى المعاناة والمعالجة جاءت أفكار الزيات الاصلاحية واضحة مستوية ورؤيته للتغيير جلية متكاملة ، فلا إسراف ولا تزيّد ، ولا غلو ولا تفريط ، بل إلمام واف بجوانب الظاهرة وتأمل ثاقب لمنابعها وجذورها وتحديد واضح لحجمها وأخطارها ونظر مستوعب لطرق التغلب عليها وتطويقها ، وعلى الرغم من أن وسائل الاصلاح فى أى مجال من المجالات تتنوع وتتعدد وتختلف حولها وجهات النظر فإن من مظاهر عظمة الفكر الاصلاحى عند الزيات أنه بنى آراءه على ثوابت لا تهتز وأنساق فكرية قويمة لا تختل، وهو وان تنوعت أفكاره الاصلاحية فى بعض الجوانب الجزئية فإنها تنبع من معين عذب الماء مرجو الشفاء.

ففى مشكلة الفقر دعا الزيات كما رأينا إلى ضرورة أن يحس الأغنياء على الفقراء

وينزل الموسرون عن فضول أموالهم ليتيحوا للمحرومين سبيل العيش الكريم وكان فى أكثر تلك الكتابات ينبه على أن الله عز وجل شرع الزكاة وهو العليم بعباده الخبير بما يصلحهم ، وداوم على تقرير تلك الدعوة فى أكثر كتاباته وعندما اقترح منهاجا لوزارة الشئون الاجتماعية طالب فيه بأن يوكل إلى تلك الوزارة جباية الزكاة لتنفق على الفقراء كما تحصل الحكومة الضرائب للخدمات والدفاع ـــ وتتأكد هذه الظاهرة فى فكر الزيات الاصلاحى من أنه على الرغم من بشاعة الأوضاع فى مصر وسعة الهوة بين الفقراء والأغنياء فإنه لم يوافق الداعين إلى الشيوعية وقد كتب فى ذلك مقالا بعنوان « الشيوعية على المصطبة »[1] معارضا داعيا إلى توزيع الأرض على الفلاحين تملكا أو استئجاراً أو استزراعاً لينالوا حظاً معقولا من نتاج كدحهم وعرقهم وليرتفع الظلم الصارخ عن كواهلهم .

٤ ـــ وظف الكاتب مهارته الفنية وقدراته الأدبية فى التعبير عن فكره الإصلاحى فعرض آراءه حول مشكلات الفقر والجهر والمرض فى معارض شتى وقوالب أدائية متنوعة فتارة يعرض فكرته من خلال مقال تقريرى يبسط فيه الحجج ويسوق الأدلة وتتسلل أفكاره إلى عقل القارىء ووجدانه فى سهولة ويسر وهو فى أثناء ذلك كله لايحيد عن الأداء الفنى الرفيع تعبيراً وتصويراً واقتباساً وتأثيراً .

وتارة يجعل إطار فكرته قصة يدبجها أو واقعة يسردها مبرزاً من خلال عرضها المفارقات الصارخة التى تنطوى عليها موحيا عن طريق ذلك كله بأفكاره التى يدعو إلى تأكيدها ، ويود إقناع قارئه بها ، وفى أحيان أخرى يسوق آراءه بأسلوب الحوار المتنامى الذى يكون طرفاً فيه . وفى حالات أخرى يبث آراءه الاصلاحية عن طريق الانتقاد اللاذع والتهكم المرير لسلوك مشين أو مظهر سلبى يتوق إلى تحرير المجتمع منه وفضح مقترفيه .

---

(١) وحى الرسالة ٣ ٢٩٣ .

والحقيقة أن الزيات كان بارعاً فى استخدام تلك الأطر كلها بالغا الغايه فى توظيفها وتسخيرها لتحقيق الهدف التنويرى الكبير الذى كان على الدوام فى محور فكره وبؤرة شعوره حتى لا أجدنى مبالغا إذا قررت أن المتأمل لما خطه قلمه من ذلك الحشد الوفير لايدرى أى أنماطه يفضل ولا يستطيع أن يحسم الحكم لأيهما بالجودة والسبق فكلها معجب بديع وجميعها مبتكر فائق .

الفصل الثالث
الفساد الإدارى فى الدولة

وهو أُسُّ البلاء وجرثومة الداء العضال الذى حارت العقول فى تفسيره وبحت الأصوات من تصويره وجف مداد الأقلام فى الكتابة حوله وطالت الشكوى من استشرائه فى سائر مستويات النظام الإدارى فى مصر على امتداد تاريخها الحديث.

والفساد الإدارى فضلا عن ذلك من أخطر قضايا المجتمع ومنه وحوله تتجمع سائر الأدواء التى يعانى منها الإنسان المصرى فى مختلف نواحى حياته ، وهو من الظواهر السلبية التى تشيع السخط والتبرم وتبعث اليأس وفقدان الثقة فى نفوس الأفراد ، وتنشر التحلل والخيانة وتقتل الوطنية والانتماء ، وتحطم أعظم الانجازات وتئد فرص الاصلاح ، وتودى بأنفس الأحلام والتطلعات .

ولا ريب فى أن معظم المشكلات والأدواء التى تناولتها أقلام المصلحين واحتشدت الإدارة والانحراف عن السبيل السوى فى ممارسة مهامها أو العدول عن مقتضيات العدل والنزاهة من القائمين عليها .

ومن الطبعى أن ينال هذا الموضوع اهتمام الزيات لما له من أهمية ومايترتب على السلبية فيه من أخطار . بيد أن ما نُريد أن نلفت الأنظار إليه فى هذه الفصل هو منهج الزيات فى معالجة ظواهر الفساد الإدارى ورؤاه الاصلاحية التى ضمنها العديد من مقالاته وهو منهج يتسم بالموضوعية ونزاهة القصد فلم يكن الزيات — كما عرفنا فى أكثر من مناسبة — ملوثا بمخازى الحزبية السياسية ومن ثم سلم فكره وقلمه من مهاتراتها وضجيجها الممجوج وأتت آراؤه مثالا على الموضوعية فاكتسبت أهمية خاصه ، لأنها لم تؤسس على مآرب شخصية ، أو دوافع عصبيه بل جاءت فى جملتها نتاجا إنسانيا خالصا يتأمل فيه الكاتب الخلل ويتلمس د و

التخلص من سلبياته ، وينتقد فى جرأة ، ويوجه فى صراحة ولا يصنع كما كان يصنع غيره من الكتاب : يداجى الحكومة لأنه يؤيدها ، ويخاصم المسئولين لأنهم من حزب غير حزبه ، وتلك آفة كانت مستشرية فى عصر الزيات لم يسلم منها إلا النزر اليسير من صفوة الكتاب وهى نتيجة لازمة للتحزب والتشرذم .

وهكذا كان الزيات مستقل الفكر موضوعى النظر يكتب ما يمليه ضميره ويراجعه عقله ويقتنع به فكره المستنير ، وتأسيساً على ذلك تأتى ملاحقاتُه لظواهر الفساد الإدارى فى الدولة على عصره نموذجا فريداً للتناول الموضوعى الذى هو غاية الباحث عن الحقيقة الراصد لقضايا الإنسان والمجتمع فى أى عصر من العصور .

ومما تجدر الاشارة إليه أن الزيات كان على قناعة بأن الإصلاح كل لايتجزأ ، وجملة لا تتفرق ، وشامل لاينبغى أن يتوزع ، ومن ثم فقد ارتبط فى فكره الاصلاح فى شتى جوانب الحياة والاجتماعية ، وعلى امتداد قطاعاتها المتشابكة وكان موضوعيّاً فى تقديره لدور الكتابة والتوجيه ، واقعيا فى فهمه لأبعاد الإصلاح والعوامل المؤثرة فيه . ومما يوضح تلك الوجهة مقال كتبه سنة ١٩٤١ تحت عنوان « لا تقولوا أين الكتّاب وقولوا أين القادة »[1] أبان فيه أن أدواء المجتمع المصرى ظاهرة لكل ذى بصيرة ، واضحة وضوح الشمس ، وأن دور الكتاب والخطباء لايَعْدُو التذكير والتنبيه ويبقى بعد ذلك دور القادة الذين يضطلعون بالاصلاح والرواد الذين يعملون جاهدين لبلوغه وإقراره . يقول فى بداية المقال المشار إليه :

« أو كلما كظمت الأنفاس روائح الشر ، وكربت النفوس غواشى الفساد ، ذهل الناس عن مرسلى الريح ومثيرى القتام وقالوا أين الكتّاب ؟ هل الكاتب إلا نذير ؟ وهل على الكتّاب إلا البلاغ ؟ لقد كتبوا حتى أوشك المداد أن ينفد ، وخطبوا حتى كاد الريق يجف ، ولكن أكثر العامة لايقرأون ، وأكثر الخاصة لايفهمون . ومتى أغنى القول عن الفعل وجزى الرأى عن العزيمة ؟ .

إن من أقبح ما يعاب علينا وعلى أمم الشرق أننا لم نعرف من أدوات السياسة

---

(١) وحى الرسالة ٢ ص ٣٠٨

ووسائل الاصلاح غير الكلام والكتابة ، فسياستنا خُطَب ، وإدارتنا تقارير ، ومناهجنا وعود . ولو كان الشعب قارئا لرجونا من وراء الكتابة صلاح النفس فى الفرد وسمو الروح فى الجماعة ، ولكن الأمية لاتزال بفضل وزارة المعارف حجابا مستوراً بين عيون الناس ونور الحق فماذا عسى يصنع الكتاب وليس من الأمر شيء ؟ هل يصنعون إلا أن يفتحوا بأسنان أقلامهم أجفان المتعلمين لتثب إلى عيونهم صور العيوب فيدركوها ، وهم قد فعلوا ذلك ولم يألوا : فعلوه فى الكتب والصحف ، وفى المدارس والمسارح حتى لم يبق فى هؤلاء الذين تقسموا الحكم وتوزعوا السلطان ، وتنازعوا القيادة ، من لم يحفظ صور الفساد ووجوه الاصلاح عن ظهر قلب ! ولكن الله الذى آتى زعماءنا ملكة الكلام لم يؤتهم ملكة العمل ، فهم يستطيعون أن يقولوا ما قال الكتاب ، ولكنهم لايستطيعون أن يفعلوا مافعل القادة . ومصداق ذلك أنك تراهم فى أندية الأحزاب ، وفوق مقاعد النواب ، وبين أعمدة الصحف ، يكشفون عن مواضع النقص ، ويشيرون إلى مواقع الكمال ، فيفتون فى كل مسألة فتوى العالم ، ويدلون فى كل معضلة برأى الخبير ، ويعترضون على كل أمر اعتراض اليقظ ، فإذا وليناهم الحكم وخلينا بينهم وبين العمل ، التاث عليهم الأمر ، وبرّح بهم التطبيق ، وأصبح جهدهم مصروفا إلى مناقضة القول بالقول ، ومعارضة الرأى بالرأى ، كأنما تبوأوا مقاعد الحكم ليردوا وهم وزراء ورؤساء على ما انتقدوه وهم كتاب وخطباء ! » .

ويستطرد الزيات مبينا ألوان الخلل والتقصير فى مواقف الزعماء والأغنياء والعلماء والموظفين والتجار ... إذ يعرف هؤلاء جميعا موضع الداء ويحسون مخاطره ويدركون أسبابه ومداخله ، ولكنهم يتجاهلونه فى بلادة ، ويغفلونه فى خبث ، وهم فى ذلك يخادعون أنفسهم ، ويكبتون هواتف ضمائرهم ، وتستهويهم نوازع النقص فيسلكون دروبها ، وتغيب عن أنظارهم زواجر الانحراف وسياط التأديب فيستمرئون ما هم فيه من كسب رخيص وثراء سريع ، ودعة فارغة ، وأثرة متحكمة .

ثم ينهى الزيات مقاله المؤثر بقوله :

« الواقع الذى لا مرية فيه أن أمم الشرق لايعوزها إدراك النقص ولاعرفان الواجب ، إنما يعوزها الرجل الذى يطبق علمها على العمل ، ويوحد رأيها على الحق ، ويجرى خلقها على الرجولة ، ويجمع شتاتها على الطريق . فهل لصديقى العشماوى بك أن يوافقنى على أن مصر اليوم لا تحتاج إلى « علىّ » بلسانه الحكيم، وإنما تحتاج إلى « عمر » بدرته الحازمة !؟ » .

ولن يجد دعاة الإصلاح والباحثون عن علل النظام الإدارى فى مصر فى عصرنا الحاضر أصوب نظرا ولا أدق تحليلا لأدواء النظام الإدارى ومعوقاته المترسخة فى سلوك القائمين عليه من ذلك الفهم العميق للظاهرة الذى أدركه الزيات بفكره الثاقب وعرضه بأسلوبه الأخّاذ ، ومن الجلىّ أن المشكلات التى عرض لها الزيات فى بحثه الدءوب لموضوع الفساد الإدارى وافتقاد عنصر القيادة المخلصة ماتزال قائمة ، ولم تبرح حجر عثرة تعوق مسيرة النهوض التى نصبو إلى دفعها على جادة الطريق ونتوق لأن تصل بلادنا من خلالها إلى رحاب التقدم وآفاق الرقى .

ومع تلك القناعة التى صدر عنها الزيات فى رؤيته الاصلاحية لم يتوقف عن الكتابة ولم يهمل دوره فى النقد والتوجيه والتنبيه والتحذير .

ونستطيع أن نوجز للقارىء القول حول مظاهر الفساد الإدارى التى نالت جانبا بارزاً من اهتمامات الزيات فى مقالاته الاجتماعية فى الموضوعات التالية :

١ ــ تفشى الرشوة والمحسوبية والتقصير فى أداء الأعمال والخدمات المنوطة بالأجهزة الإدارية للمواطنين .

٢ ــ سلبيات الروتين الحكومى ومعوقاته .

٣ ــ فساد نظام التمثيل البرلمانى وإخفاقه فى تحقيق ما يعقد عليه من آمال .

وحول الظاهرة الأولى أدار الزيات العديد من مقالاته الهادفة ونقداته الجريئة وفى مقال له بعنوان « فى الحال الحاضرة » [١] لخص الزيات تردى الأوضاع فى سائر

(١) وحى الرسالة ١ / ١١٨ .

قطاعات المجتمع وعلى اختلاف نواحى الحياة فيه يقول :

حالنا الحاضرة محنة من محن الانتقال ، وخدعة من خدع الاستقلال ، وفتنة من فتن الباطل ! فهى راكدة ركود العفن ، واقفة وقوف الحيرة ، لاتستطيع أن تجد لها فى لغة التطور اسماً ولا صفة ! فلا هى سبيل نهضة ، ولا هى دليل يقظة ، ولا هى مظهر امتعاض . وكأنما تقطعت وشائج الاجتماع بين الطبقات والجماعات والأسر ، فتتناكر الناس وتدابر الأهل ، ودار كل امرىء على نفسه ! .

فالفلاح كما كان منذ أجيال . يكاد لاينزع يده من الأرض ، ولا يرفع طرفه إلى السماء ، ولا يتبين وجهة الدنيا ، ولا يتصور غاية الحكم ، ثم يحول عليه الحول فلايجد نقوداً فى جيبه ؛ ولا سروراً فى قلبه ! .

والعامل على أسوأ مما كان ، يقاسى العطلة ويعانى الفاقة ويشكو الأمية ويستغله الأجنبى بما دون القوت ، ثم لايجد فى بلده العين التى تكلؤه ولا اليد التى تحميه ، ولا النور الذى يهديه ، ولا الروح الذى يسيره ! .

والشاب فى لبس من أمره ، يتعلم ولا يعرف لأى عمل ، ويتقدم ولا يدرى إلى أى غاية ، ويقولون له كن عزيزاً فى بلدك ، سيداً فى دارك ، متصرفاً فى أمرك ، ثم يخضعونه للامتيازات فتكسر من نخوته فى المجتمع ، وتغض من كرامته فى القضاء ، وتهجم على ثروته فى التجارة ؛ ويفور شبابه الحين بعد الحين فيكفه الهوان الغالب والقيادة المترددة :

والأدب يعتمد فى سلطانه على الدعوى والوقيعة ؛ وينقل فى أحكامه عن النكران والحقد ويتفرق شيعاً وطوائف ؛ لا ليعدد مذاهب القول ويجدد طرائق البيان؛ ولكن ليخلق الخصومة بين الكهول والشباب ؛ ويؤرث العداوة بين الشعراء والكتاب ! .

والسياسة تتراشق بالتهم وتتقاذف بالعيوب وتحتكم إلى الخصم ؛ وتحول مجرى الجهاد ، وتزهق روح النهضة ، وتشوه آمال الأمة بالمطامع السود والأهواء الأثيمة .

والحكومة تنبعث من أدراج مكاتبها العليا [١] روائح كريهة تسور فى الأنوف وتأخذ بالأنفاس وتفسد الجو على هذه الأمة المسكينة ! » .

وتحت عنوان « قصة مريض » [٢] سرد الزيات مأساة من مآسى العلاج فى قصر العينى فى بداية عهد الثورة ذكر فى بداية المقال كيف أخبره بتلك القصة أحد أصدقائه القادمين من الريف إلى القاهرة وروى له خبر مرض أحد أبناء قريته وتردده على أطباء الريف وتعجله الشفاء فى القاهرة فسمع لنصيحة ناصحيه الذين قالوا له كما حكى الزيات : « دعك من أطباء الريف ومستشفياته وسافر على بركة الله إلى القاهرة فزر آل البيت وادخل (القصر) تجمع بين طب الروح وطب الجسد . فآمن إبراهيم بهذا القول وذهب فى الغد إلى سوق الثلاثاء بالمنصورة فباع ابن الجاموسة بعشرة جنيهات . ثم نزل فى مساء الأربعاء ضيفاً على أحد أقاربه فى حى (أبى الريش) من القاهرة .

وفى الصباح غدا مع قريبه الطباخ إلى المستشفى الكبير فقطع تذكرة ودخل بها فى غمار المرضى وانتظم فى الصف ، حتى جاءه الدور فوقف أمام الطبيب الشاب فسأله متبرماً عما يشكو ، ثم وصف له (المزيج الأبيض) من غير فحص ، وانصرف عنه إلى غيره بدون اكتراث . فرفع إبراهيم صوته يلتمس العلاج الداخلى فذهب التماسه فى الضجيج وغاب شخصه فى الزحام ، فرجع إلى منزل قريبه يجر ساقيه من الإعياء ، ويمسك خاصرتيه من الألم واعتراه فى ذلك المساء قيىء دموى وعسر فى البول فقلق أقرباؤه عليه ، وسمع أحد الجيران بأن المستشفى رفض قبوله فيه فتطوع بالنصح لقريبه أن يعطى (تومرجياً) يعرفه جنيهاً وهو زعيم بأن يدخله (القصر) فى أى ساعة من أى يوم .

ودخل إبراهيم المستشفى بفضل الجنيه فوجد سريراً يستلقى عليه وأطباء يعنون به وممرضات يطفن من حوله . وفحصه (حكيمباشى) على حد قوله ، فقرر أن يحلل دمه وبوله ، وأن تصور معدته ومثانته . واستغرقت هذه الأعمال التمهيدية

(١) إشارة إلى ما كان يشاع يومئذ من استغلال النفوذ فى الإخلاص والرشوة .

(٢) وحى الرسالة ٤ : ١٣٧

ثلاثة وعشرين يوماً كان المريض فى أثنائها يعالج بالصبر ويمرض بالدعاء ويواسى بالأمل حتى تبلغت به العلة ونفر منه النوم . وأخيراً ظهرت نتائج التحليل والتصوير ، فتبين الداء وتعين الموضع وتقرر العلاج فاستبشر المريض واخضر ماذوى من أمله . ثم أصبح فإذا سريره محط الاهتمام للأطباء الشباب ، فواحد يخرج وآخر يدخل ، وهذا يفحص بالسماعة ، وذاك يجس باليد ، وهؤلاء يحققون بالمنظار ، حتى بلغ عدد الأطباء الذين فحصوه فى يوم واحد خمسة وثلاثين ! .

قال لى ابراهيم : فلما رأيت هذه الدقة فى الكشف ، وهذه الكثرة من الأطباء ، سبق إلى وهمى أنهم أخطأوا التقدير فحسبونى جليل الشأن عظيم الخطر ، فهم يخصوننى بهذه العناية ... ولكن المظهر الذى يروننى عليه ، والعنبر الذى أنزلونى به ، والزوار الذين يزورننى فيه ، كل أولئك كان ينبههم الى خطأ هذا الحسبان لأول وهلة وبأدنى نظر . إذن لم يبق إلا أن يكون دائى دوياً لايعرف كنهه ولايرجى برؤه . فهم يديمون النظر ويكررون الفحص ويجيلون الرأى والمشورة . ورجح هذا الظن فى نفسى أن الممرضات لم يعطيننى دواء غير المسكن ولا غذاء غير المألوف ... على أننى حمدت الله أن هيأ لى فرصة الاستشفاء فى مصح حشد له أمهر الأطباء ، وجلب إليه ، أندر الأدوية ، ووضع فيه أدق الأجهزة ، وتجلى به عطف الدولة على أمثالى من المرضى الذين يعجزهم أن يجدوا الطبيب الحاذق والدواء الناجع والمضجع المطمئن .

ولكن الأيام توالت ثقالا طوالا على هذه الحال . أطباء كثيرون لايفرغ لهم فحص ولا يظهر لهم علاج ، وممرضات كثيرات لاينقطع لهن أمر ولا تحصل منهن خدمة . والقيىء البنى فى خلال ذلك يعاود ، والألم يشتد ، والبول يعسر ، والهضم يسوء ، والهزال يزيد ، والنتن فى الفراش تزكم ريحه الأنوف ، والوسخ على الجسد يدير زفره الرءوس ، والأقرباء والأصدقاء يزورون ومعهم اللحم والفاكهة والحلوى فتصادره الممرضة لحسابها إشفاقاً على المريض أن تثقل على معدته موزة أو برتقالة! والنقود أوشكت أن تنفذ من جيبى ، لأن الخادم أو الخادمة لايلبى طلباً ولايقضى حاجة إلا بأجر ! فرابنى الأمر وتخالجتنى الظنون ، فملت ذات يوم على جارى فى

السرير وهو شيخ كان فى عمره الذاهب من القراء ذوى الصوت والصيت ، وسألته أفى ملجأ نحن نأكل وننام ، أم فى مستشفى نستطب ونداوى ؟ إن كنا فى ملجأ فلم هؤلاء الأطباء ! وإن كنا فى مستشفى فأين الطب والدواء ؟ فقال جارى وقدفششت بهذا السؤال جوفه المنفوخ بالغيظ ، فأخذ يستريح إلى بمكنون صدره ، لسنا والله فى هذا ولا ذاك ، إن الملجأ رحمة وهنا القسوة ، وإن فى المستشفى صحة وهنا المرض . والظاهر أنك تحسب الشباب الذين يزعجوننا كل ساعة بالجس والنقر أطباء ! لا يارفيقى ، إنهم طلبة الطب يتخذوننا نماذج يطبقون عليها العلم ويتعلمون فيها الفحص . والطبيب المسئول واحد . وهو الذى يصف الدواء وينظم الغذاء ويراقب العلة . وإذا لم يأتنا الممرضات بالأدوية التى يقتضيها العلاج فوزر ذلك لايقع عليه ، إنما يقع على أولئك الذين يدسونها فى جيوبهم خلسة ثم يزعمون أنها صرفت للمرضى ! .

وكان الشيخ أمين يريد أن يسمى الأشخاص ويذكر الوقائع لولا أن دخل الطبيب والطلاب فابتلع لسانه وقر فى فراشه .

نظرت فى أمرى على ضوء ما سمعت من الشيخ فتبين لى أن الشفاء صار خيالاً باليأس بعد أن كان حقيقة بالأمل ، وأن الصحة فى (القصر) أصبحت أسوأ مما كانت فى القرية ؛ وأن الطبيب الخامل مع العناية خير من الطبيب النابه مع الإهمال ؛ وأن الزوجة الجاهلة مع الرقة أنفع من الممرضة الخبيرة مع الغلظة ؛ وأن العلاج بالأجر أرخص من العلاج بالمجان ، فقررت أن أعود إلى قريتى وزوجتى وطبيبى . وعدت وليس عندى من قوة الجسم إلا ما أبلغ عليه القرية ولا معى من ثمن العجل إلا ما أركب به القطار ! .

وعاد إبراهيم بعد ثلاثة أشهر قضاها فى أضخم مستشفى بين يدى أعظم طبيب !! .

فلما فحصه طبيبه الريفى الأول قرر أن قرحة المعدة قد اتسعت وعمقت حتى ليخشى أن تمتد إلى شريان ، وأن قروح المثانة قد سعت وانتشرت حتى ليخشى أن

تتحول إلى سرطان ! ولم يشأ الرحيم الرحمن أن يطيل العذاب على هذا المسكين فانفجر الدم فجأة فى جوفه وتدفق من حلقه ولم ينقطع نزفه حتى انقطعت حياته.

فقلت لصديقى وأنا أترحمْ على ابراهيم وأتألم لمصير عائلته من بعده :

لقد نقل إلى كثير من هذه المآسى وما ينبغى أن نيأس ، فإن عين الثورة لابد أن تقع على أبطالها فى يوم قريب » .

وفى ظاهرة الروتين الحكومى التى كانت عقبة كأداء من عقبات النظام الإدارى يكتب الزيات مصوراً مبلغ ما يقع على المواطنين بسببها من ظلم وغبن ومايصيبهم بسببها من حيف وما يلحقهم من أضرار فى مختلف مناحى الحياة ، فانتقد مسلك وزارة الأوقاف فى إدارة الأوقاف الأهلية وحمل على تقصيرها فيما يتعلق بالأوقاف الخيرية وكتب فى الرسالة مقالين متتاليين الأول « ليت للأوقاف عينا » [1] والآخر « بل ليت للأوقاف قلبا » [2] يقطر كل منهما أسى وحسرة لتردى الأوضاع فى الجهاز الإدارى للأوقاف بتقصيره عن تقديم العون للأسر المنكوبة بفقد عائلها أو مصدر دخلها من جهة ، وبسوء التصرف فى إدارة الوقف الأهلى وتفويت فرص الانتفاع بعائده للمنتفعين به والموقوف عليهم . ونجترىء هنا بفقرة من المقال الثانى الذى أداره الزيات على شكاية سردها على مسامعه واحد من المتضررين بتلك التصرفات الخرقاء من قبل وزارة الأوقاف قال :

ــ إذا عذرنا وزارة الأوقاف على أنها لاتسعف أولئك المنكوبين الذين انفرد بهم البؤس فى ظلام الدور ، ومنعتهم الأنفة عن الخروج إلى النور ، فكيف نعذرها على أنها تدخل البؤس بيدها على قوم جعلهم أهلوهم فى ذمتها وأمانها ، تحفظ لهم الملك وتثمره ، وتبسط عليهم الرزق وتوفره ؟ أنا ضحية من ضحايا الأوقاف الأهلية، اعتمدت منها على جرف منهار فهويت إلى قرارة الفاقة . لم أتهيأ للعمل الحكومى بشهادة ، ولا للعمل الحر بصنعة ، وإنما نشأت فى بيت جدى فلان باشا نشأة المترفين المدللين ، أجيد ركوب الخيل . وأحذق أنواع الصيد ، وأساهم

(١) وحى الرسالة ١ / ٤٧٠ .

(٢) المرجع ١ / ٤٧٤ .

فى تجميل حياة القاهرة بالسرف فى الملاهى ، والقصف فى البيوت ، والمقامرة فى السباق ، والافتنان فى المظهر . وكان أبى رحمة الله ناظراً على وقف جدى على أسرتنا الكبيرة المتشعبة من الضياع والرباع ، فكان يغرق رغباتى فى فيض من المال لايغيض ولا يخلف . فلما توفاه الله آلت النظارة من بعده إلى أرشد أعمامى فانقبض عنى شيء من بسطة العيش . وكان لى بنون وبنات نشأوا فى نعمة أبى كما ينشأ النبات الربعى [1] فى خصيب الأرض ، فلم أرد أن يمس نضرتهم ذلك الضيق الذى جره علينا طمع الناظر . فبعت ما ورثت عن أبى وعشت سنين على الخفض والسعة . حتى إذا لم يبق إلا الوقف أخذت أروض نفسى وأهلى على التدبير ، فاختصرت المسكن ، واختزلت الأثاث ، وضيقت المطبخ ، ورضيت أن أركب (التكسى) وأن أجلس فى (النيوبار) . وليت ذلك ياسيدى دام ! فإن كبار المستحقين شغبوا على الناظر فعزلوه ، وتآلبوا على خلفه فشلوه ، واستحكم بينهم الشقاق ، فلم يتفقوا على ناظر منهم . ثم لم تنقطع أسباب هذا الخلاف ، إلا « بتنظير » وزارة الأوقاف ! .

كان لجوء المستحقين الى تنظير الوزارة كلجوء القطين المتنازعين على قطعة الجبن إلى تحكيم القرد ، فلم يبق لهم على الأعيان الموقوفة يد ولا عين ، وأدارتها الوزارة على المنهج الحكومى فأرهقتها بالكتاب والنظار والمفتشين والمراقبين والخبراء ، ولكل واحد من هؤلاء طريقة فى العمل ورأى فى الإصلاح يتغيران بتغييره . فالبناء الذى أقيم يهدم ، والمصرف الذى حفر يردم ، ثم يستأنف البناء والحفر فى مكانين آخرين ! وهكذا دواليك : يتعاور البناء والتخريب ، ويتعاقب الاقتراح والتجريب ؛ حتى تذهب غلة الأرض بين نفقة الإدارة وحصة الوزارة ! ذلك حال الأرض . أما الدور فهى قصور فسيحة ذات أسوار وحدائق رغب الناس عن سكناها لمخالفة طرازها لمقتضيات المدنية الحديثة ، وأغفلتها الوزارة فلم تفكر فى تجديدها واستغلالها ، ولا فى بيعها واستبدالها ، وإنما تركتها لمعول الزمان فلا تؤجرها إلا مخازن للتجارة وزرائب للحيوان ومساكن للفعلة ! .

---

(١) الربعى : ما ينتج من الحيوان أو ينبت من النبات فى زمن الربيع

(٢) كنايه من قلة البذل فى الطعام

كان دخلى على عهد الناظر الطماع ستمائة جنيه فى العام ، فأصبح على عهد الوزارة شيئاً لا أسميه ! فهو سنة يكون ستين ، وسنة يكون ستة ، وسنة يكون مطلا ، وسنة يكون ديناً ! وأنا وزوجتى وأولادى نكابد غصص الحرمان فى ركن رطيب من إحدى دورنا الخربة . فالبنون لايجدون عملاً لمكانهم من الجهل ، والبنات لايجدن أزواجاً لمكانى من الفقر ، ولا نقضى أيامنا السود إلا على اقتراض من القصاب والبدال والعياش والقماش حتى ضاق بنا العيش وأصبحنا إذا دخلنا أقضنا الهم . وإذا خرجنا أمضنا الخجل ...

يا سيدى ! إن الوقف الأهلى إن حفظ العين فقد أضاع الريع وليس لهذه الغاية الحمقاءوقف الواقفون . فسبيل الإصلاح فى عهد الصلاح أن يحل ؛ فإن المرء أدرى بشأنه وأعلم بخبره . وليس من يعمل لنفسه كمن يعمل لغيره ... » .

واختص الزيات الروتين الحكومى بمقال آخر عرض فيه صوراً من الظلم والظالم والإساءة البالغة التى تترتب فى بعض الأحيان على الروتين الحكومى فتختلط بسببه الحقائق وتلتبس الأمور فيغدو الباطل الصراح صواباً معترفا به وحقًّا مقرراً يصعب على دهاليز الإدارة أن تعترف بغيره أو تصدق سواه .

كتب الزيات تحت عنوان « فى الروتين الحكومى إدارة الصغير إدارة الكبير »[1] مقالا يقول فى مطلعه : « من العجائب التى قلما يعجب لها أحد أن هذه الأداة الحكومية على ضخامتها وجلالتها وخطرها إنما يحركها صغار الموظفين حينا بالعقل وأحياناً بالهوى . فإذا حدث فى أسافلها الخطل أو الخلل — وكثيراً مايحدث ذلك من جهل أو عن علم — اصَّعَّد آليًا فى أعاليها حتى يبلغ ذرى الرياسة فيدخل على المدير أو على الوزير ، مزوداً بالتقارير الشارحة ، مؤيداً بالتواقيع المختصة ، فلايسعه إلا أن يصدق ما بين يديه ، فيقبل الخطأ على أنه صواب ، ويرد الحق على أنه باطل ، وتلك إحدى سيئات البيراشية وهى النظام الإدارى الذى يقضى بتدرج المناصب فى العمال والأعمال والتبعات : فيبدأ الأمر بالأصغر فالصغير ، ثم ينتهى

(١) وحى الرسالة ٣ / ١١٥ .

إلى الكبير فالأكبر . وكلما انتقل الأمر من درجة إلى درجة أسرع النظر فيه ، وقلت الرقابة عليه ، وخفت المسئولية عنه .

فالعهدة فى هذا النظام كما ترى على الضمير ، إذ سلم سلمت الأداة وانتظم العمل ، وإذا اعتل اعتلت الحكومة واضطرب الحكم . أما حياطة القانون (للأوراق الرسمية) بتشديد العقاب على من عبث بها أو زور فيها فذلك أمر لاطائل من ورائه إذا خفى العبث أو غفت الرقابة أو اشتركت المنفعة ! .

تعال أقص عليك بعض ما أعلم عن هذه البيراشية من سوء عسى أن يكون فى قصصه إنعاش لضميرك إن كنت عاملا فى هذا النظام وعبثت به، أو تعزية لنفسك إن كنت معمولا به وتأذيت منه :

غضب مالك الأرض فى قريتنا على شاب من شبابها الأخيار لأنه جرؤ على سعادته يوماً فطلب منه أن يردم بركة من بركه التى تحيط بالقرية إحاطة الغل بالعنق ، وأراه أن من الخير له أن يقى فلاحيه حمى الملريا ليظلوا قادرين على رى أراضيه بعرقهم ، وتغذية خزائنه بدمهم . وكان لهذا المالك الغضبان قرابة ببعض أولى الأمر فى وزارة الداخلية ، فاستعداهم عليه ، فألف الإدارى الصغير تقريراً غيابياً عن هذا الرجل رماه فيه بتهديد حياة الناس بالإجرام ، وتكدير أمن البلاد بالشغب . ووافق المأمور المعاونَ ، وأيد المدير المأمورَ ، وصدَّق الوزير المدير ، وحكم على البرىء حكما عسكرياً بالاعتقال ستة أشهر تجدد لمثل ذلك ، إذا لم يرض عنه المالك ! فلما علمت بالأمر طلبت الإذن على وزير الداخلية ، وكان يومئذ ، ف. س، وعرضت عليه القضية ، فى لغة أنيقة ولهجة رقيقة : إن هذا الرجل من الأشقياء (الخطرين) ، ولا أحب أن يشفع مثلك فى مثله ، فقلت له : يا باشا ، إن الرجل من كرام قريتى ، وأنا أعرفه كما أعرف أبناء أسرتى . فقال : وماذا أصنع فى تقرير رسمى حققه المركز وأيدته المديرية واعتمدته الوزارة ؟ فانصرفت حردان أسفاً على الحق يدمغه تقرير باطل فيزهق ، وعلى العدل يصيبه تقرير جائر فيهلك . وبقى المسكين فى سجنه يقاسى ألم الجور وذل الاعتقال ، حتى سقطت

الوزارة القائمة ، وألغيت العسكرية الحاكمة ، فزالت عن الرجل فى التوّ صفات الإجرام ، وخرج من معتقله إلى أهله بسلام ! .

* * *

وفُصل من وظيفته مُحْضر شاب كان يعمل فى محكمة (عنيبة) من مركز الدر ، لأنه غاب عن مكان عمله خمسة عشر يوماً من غير إذن . وسبب غيابه أن المرض أدركه فى آخر يوم من أيام إجازته السنوية ، وكان يقضيها مع أسرته بالمنصورة ، فطلب إجازة مرضية ، فأباها عليه مفتش صغير كانت بينه وبينه خصومة ، وقرر للرياسة أن الرجل صحيح البدن ولكنه مريض النية ، فهو يأبى العودة إلى بلاد النوبة ويتمارض ليسعى . وصدق الكبير فأمره بالعودة إلى العمل بعد انقضاء الأجل . وكانت العلة شديدة ، والشقه بعيدة ، فلم يدخل عنيبة إلا ليقرأ كتاب فصله ، ويرجع بالشقاء والبؤس إلى أهله ! .

وقضى المسكين فى العطل أشهراً يطعم أطفاله الأربعة وأمهم بالدين ، ويدافع الضر عنه وعنهم بالأمل ، حتى عرضت بنفسى ظلامته على صاحب المعالى ا. ع. وكان يومئذ يتولى وزارة العدل بالنيابة ، فاقتنع ببطلان تهمته ، وأعاده إلى وظيفته بمرتبه ودرجته ومدته .

وقضى المسكين فى العمل أشهراً يجاهد نصب العيش ويكابد وصب الداء حتى أودى به السُّلال على سرير موحش ووساد قلق . وكان فى إدارة المستخدمين بوزارة العدل عصبة من صغار الموظفين تتجر بمنح العلاوات والدرجات ، فينقضون المبرم ، ويبرمون المنقوض ، والكبار من غير فطنة ولا علم يحلون ما عقدوا ، ويعقدون ما حلوا ، فقررت هذه العصبة أن إعادة الموظف المرحوم إلى عمله بعد فصله كانت تعيينا من جديد يجبّ أربعة عشر عاما قضاها فى الخدمة ! وانتظرت العصابة من ورثة الميت المساومة ؛ ولكن اليتامى الأربعة الضعاف ، وأمهم الأيم الصغيرة الفقيرة ، كانوا لايخرجون من مسكنهم النابى ، ولا يفيقون من حزنهم الطويل ، فأمضى الكبار ما قضى به الصغار ، وقدرت المكافأة بجنيهين تقطع منهما الدمغة ! .

وبلغتنى المأساة فعرضتها على صاحب المعالى . م. ب وزير العدل — وكان قد كشف بفطنته ويقظته سر العصابة — فنظر فى هذه القضية بنفسه ، وكتب إلى (المالية) كلمة العدل فيها بيده .

★ ★ ★

وشكوت إلى (مصلحة الطرق والكبارى) بالمنصورة أن ضيعتنا جزيرة فى بحر الأمير عمر طوسون ، لايصلها بالشاطىء العام إلا طريق وعر وغير سالك ، وسألتها أن تمهده ولو على حسابى ، ولكن المهندس الصغير تلكأ لسبب أحذره أنا، وربما تحذره أنت ، فلجأت إلى الرياسة العليا فقررت الطريق وأمرت أن يمهد ويصان . فلما جاء الأمر بالتنفيذ ورم أنفه واستطار عناده وأقسم ليقفن دون هذا الطريق مهما يكن الأمر والآمر . وكتب تقريراً زعم فيه أن الطريق خمسة آلاف متر وهو لايزيد على سبعين قصبة ، وأن فى بعضه عقبة كأداء وهو وحده هذه العقبة! فلما رأت الإدارة هذا الاختلاف بين ما قررت وقرر أرسلت إلى العزبة ثلاثة من مهندسى القاهرة فوافقوا أمامى على ما قررت ، ورسموا الطريق على ماقدَّرت ، ولكنهم حين خلو إليه فى مكتبه أصبح الخفيف ثقيلا ، والممكن مستحيلا ، والكذب صدقا، والعارم خاصا والضرورة ترفا، والمنفعية مضرة! ومن هذا الزور الجرىء ألف الموظفون الصغار التقرير ، ورفعه كبيرهم إلى المدير ، فلم يسعه إلا أن يصدق الأوراق الرسمية ، ويعتمد التوقيعات المختصة .

ورفعت أنا تقريرى إلى صاحب المعالى أمير الأدباء ووزير المواصلات ، فهو ينظر فيه نظر القاضى العالم والحاكم الحازم ، وسيستشهد بالطريق الناطق على التقرير المكتوب ويستدل بالواقع الصادق على التقدير المكذوب ! .

★ ★ ★

هذه أمثلة ثلاثة مما أعرف ، ولعل أمثالها ألوف مما يعرف الناس ، سردتها عليك فى هذا الإيجاز لتصدق أن إرادة الصغير هى إدارة الكبير ، وأن ليس على صغار الموظفين رقيب إلا الشرف والضمير ! » .

أما فيما يتعلق بالتمثيل البرلمانى فقد كان موضع سخرية الزيات فى العديد من كتاباته فى ثنايا مايعرضه من صور التردى فى المجتمع المصرى وما يلاقيه أهل الريف خاصة من جراء ذلك وأفرد الزيات فضلا عن ذلك بعض مقالاته لتحديد الظواهر السلبية فى التمثيل البرلمانى منها مقال بعنوان « على المصطبة »[1] رسم فيه صورة معبرة عن تهافت النائب على الفلاحين المسخرين لزرع أرضه قبيل الانتخابات وبذله للوعود واسترضائه للناس فى حين لم يتعودوا منه ذلك يقول الزيات :

« على المصطبة الغبراء وفوق حصيرها الخشن جلس (البك) وفى عينيه نظرة يكسر من طولها الخجل ، وعلى شفتيه بسمة يمد فى عرضها الملق ؛ وفى يمناه سبحة يقطر من حباتها الرياء ؛ وفى يسراه صحيفة لاتزال على طية البريد ، وتحت قدميه بقية من وحل الشتاء تهدد حذاءه اللامع ، وبين يديه وعن يمينه وعن شماله جلس الفلاحون يسارق بعضهم بعضاً نظر المستفهم عن سر هذا التواضع الغريب ، وسبب هذا التنازل المفاجىء ؛ ورب الدار يذهب ويجىء فى ربكة تبدو دلائلها على حركاته المضطربة . وكلماته المتقطعة وتحياته المتكررة .

صحيح أن صاحب المصطبة رفيع الصوت فى القرية ، نافذ الرأى فى الناس ، ولكنه منذ أيام قلائل كان فى دائرة (البك) فريسة لغضبة هوجاء من غضباته أحذته بالشتم واللطم والسخرية . لأنه جرؤ على أن يسأل (الكاتب) عما له من حساب الإجادة . وأن يعترض على (الناظر) فيما عليه من نفقات الإدارة . ومن العسير على المنطق المحض أن يستخرج هذه النتيجة من تلك المقدمة .

كان (البك) المالك يرد التحيات الساذجة بالانحناء والإيماء والتمنى ؛ فكأنما انقلب جانباً معطفه الأسود جناحين رءومين يرفرف بهما على بنيه ! وكان أكابر القرية قد تسامعوا بمقدم (مالكهم) على حال من التطامن والتبسط لم يألفوها منه. فأقبلوا على المجلس الذى شرفته سيارته بالوقوف عنده .

(١) وحى الرسالة ٢ / ٣٣٤ .

ومهما يكن (البك) عيّ اللسان كليل الذهن فلابد أن يتكلم ليكشف عن سر قدومه . وقد استأذنت الشيخ منصورا راوى هذا الحديث أن أترجمه بلغة الناس فأذن .

قال البك : لم أزركم منذ خمس سنوات لأن أعمال مجلس النواب لم تدع لى وقتاً يتسع للاهتمام بأسرتى ، ولا للتفكير فى معدتى ، فكنت فى أغلب الأحيان لا آنس بأهلى ولا أهنأ بطعامى .

فقال الشيخ منصور مقاطعاً : ولكننا يا صاحب السعادة لم نقرأ لك كلمة واحدة فى محضر من محاضر المجلس .

فقال البك : ذلك لأن فى المجلس فريقاً يتكلمون وفريقاً يعملون ؛ وأنا من هذا الفريق .

فقال الشيخ منصور بلهجة المستدرك الخبيث ؛ ولكنك لم تفارق العزبة فى أكثر الأيام التى ينعقد فيها المجلس ! .

فقال البك : ذلك لأن الكلام يكون فى داخل المجلس ؛ وأما العمل فيكون فى خارجه .

واندلق مالك القرية فى الكلام ليأخذ على الشيخ منصور سبيل الرد فقال : وقد أخذت الحكومة برأيى فى كثير من مشكلات التموين وأزمات الحكم ، واستفاد النواب من اقتراحاتى واعتراضاتى فى (بوفيه) المجلس وفى لجانه ، ولكنى إذا انتخبت هذه المرة فسأوزع مواهبى وجهودى بالعدل بين الحكومة والأمة ؛ وبين القرية (والدائرة) . سأنظر بعين الرحمة إلى ما يكابده إخواننا الفلاحون من الغلاء المرهق ، والعناء المعنِّى ، والمرض المضنى ، والجهل المطبق ، والعيش الخسيس ، فأخفض الإيجار ، وأردم البرك ، وأرمم المسجد ، وأعيد المدرسة ، وأحمل الحكومة على أن تمدكم بالماء النقى والنور الكهربائى ، وأن تخصكم بوحدة طبية أقل مايكون فيها صيدلية وطبيب .

ولعلى بذلك أكون قد أوفيت لكم بذمتى ، وقضيت للوطن واجب خدمتى ، وأديت لله زكاة قدرتى وثروتى .

وكانت عين البك لا تنفك تراقب وجه الشيخ منصور ، فلما رآه يتحفز للكلام بادره بقوله :

ــ وأنت يا شيخ منصور ! ما هذا الحديث الذى قرأته لك فى (الرسالة)؟

ــ أى حديث تعنى يا بك ؟ .

ــ حديثك عن صحة الفقير وثروة الغنى .

ــ لقد قلت شيئاً كهذا ولكنى لم أنشره .

ــ زرنى غداً فى العزبة فأريك عدد (الرسالة) وأسر إليك بعض الحديث .

قال البك ذلك ونهض فودع الناس ثم ركب سيارته الفخمة وذهب يعيد هذه الإسطوانة نفسها فى قرية أخرى ! .

وأقبل القوم بعضهم على بعض يتساءلون : لماذا يُعنى البك نفسه هذا العناء ، ويستخذى للناس هذا الاستخذاء ، وهو بحمد الله ضخم الثروة ، فلا يحتاج إلى مكافأة البرلمان ، زَمِن المروءة فلا يصلح بطبعه لخدمة إنسان ؟ فقال الشيخ منصور : إن فى أربعين جنيهاً لمضرباً ، وإن فى مزايا النيابة لطماعية . وإن الله الذى فطر بعض النفوس على الأثرة والشح جعل من خصائصها الوضاعة إذا تسامى المطلب ، والضراعة إذا تجافى المطمع . وقد رأيتم هذا الرجل المتكبر المترفع الكزَّ كيف طامن من كبره ، وردَّ من جماحه ، وبسط من يده لتعطوه أصواتكم فى الانتخاب ، حتى إذا انتخب عاد إلى معاملتكم بالسفه ، ومحاسبتكم بالدناءة واستغلالكم بالشره ، ومقاطعتكم بالأنفة إنه هو وأمثاله لايرون للفلاح قيمة ولا كرامة إلا فى أيام الانتخاب . وقد كنا أحرياء ألا نعطى أصواتنا إلا من يعيش عيشنا ويشعر شعورنا ويتألم ألمنا ، فإن منطق الطبع يقول إن خصمك لا يدافع عنك ، وإن سيدك لايحب حريتك .

فصاح أحد الحضور . ولم لا ترشح نفسك ونحن نضمن لك أصوات القرية؟.

فقال الشيخ منصور : إنى ــ واأسفاه ــ لا أحرز من النصاب قيراطاً ولا أملك من التأمين مليما ! والنصاب والتأمين عقبتان وضعهما قانون الانتخاب فى سبيل الكفايات الفقيرة ، كأن المال شرط فى صدق الجهاد للوطن وإخلاص النيابة عن الأمة ! وإن مثلك فى ضمان أصوات القرية واستسهال مابعدها كمثل السائح الذى لقى فى بعض طريقه نعل حصان واحدة فالتقطها ثم ضمها إلى صدره وقال :

آه وافرحتاه ! بقى ثلاث كهذه وحصان ثم أركب ! » .

الفصل الرابع

النقائص المرذولة والقَناعات الزائفة

وداخل هذا الإطار أبدع الزيات أنفس ما سطره قلمه فى مقالاته الهادفة ، وحشد أروع مايمكن لداعية من دعاة الاصلاح أن يعتز به ويُغبط عليه ، وأكد على صدق معاناته وعمق تفرسه للظواهر السلبية فى المجتمع المصرى على عهده ، وأكثر تلك النقائص والقناعات والعادات المتمكنة فى السلوك تعد من أخطر الأدواء التى يعانى منها الانسان المصرى وينعكس أثرها الوبيل على المجتمع ، ويمتد خطرها الفتاك من جيل إلى جيل . وتكتسب كتابات الزيات فى هذا الباب أهمية خاصة لأن معظم ما عالجه تحت هذا العنوان مايزال يلاحق الإنسان المصرى ، وتتعثر معه خطواته المبتغاة نحو الرقى المنشود ، والنهوض المأمول .

وأكثر تلك النقائص والقناعات الزائفة متغلغل فى قطاعات عديدة من الناس ، لاينحصر فى طبقة . ولا يقتصر شره على فريق من المجتمع دون فريق ، فالخطر فيه عام والتحرر من أثقاله ليس بالأمر اليسير .

ومن ثم جهد الزيات فى ملاحقة هذه الأدواء والنقائص النفسية فى مختلف مظاهرها وعلى امتداد مستوياتها لدى الغنى والفقير ، والمتعلم والجاهل ، والقروى والمدنى والرفيع والوضيع .

وكان الزيات ثاقب الفكر بعيد النظر سبق عصره فى كثير من الآراء الاصلاحية التى بثها ، والتوجيهات السديدة التى دعا إلى تأصيلها ، وسنرى أن كثيراً مما انتهى إليه وحث على انتهاجه مايزال يتردد على أقلام الكتاب والمفكرين وتتبناه أجهزة الإعلام ويقرره دعاة التقدم على أساس أنه يمثل ضرورة وطنية ، أو مطلباً قوميا يتحتم الأخذ به ، والالتفاف من حوله .

* * *

وأجد لزاما على أن أوجز لك ــ عزيزى القارىء ــ فى هذا الفصل أبرز ماعنى به الزيات فى الموضوعين الكبيرين اللذين يشملهما عنوان هذا الفصل وهما :

النقائص المرذولة ، ثم القناعات الزائفة .

ففى الموضوع الأول انتقد الزيات ظواهر الوصولية ، والكسل والتواكل ، والتعّصب ، وانعدام الضمير ، والكذب والتزيد وشرب المخدرات والاتجار فيها وقسوة الأغنياء وشحهم ...

وكانت معالجة الزيات لتلك الظواهر السلبية متسمة بالموضوعية وعمق التحليل، وحدّة النقد ، وجاءت فى كثير من الأحيان مصحوبة بالنذير المخيف ، والتحذير من سوء العاقبة وسرد الوقائع والأخبار التى تؤكد مايهدف إليه الكاتب من أضرار ذلك السلوك المشين ، وإقناع مقترفيه بضرورة الإقلاع عنه وعدم التمادى فيـــه .

وكما لوّن الزيات أنماط المعالجة وطرائق التناول فى قضايا الإقطاع والتميز الطبقى والفقر والجهل والمرض والفساد الإدارى فى الدولة ــ لوّن كذلك فى هذه الموضوعات مما يدل على أنه ذلك الملمح كان اتجاهاً عاما فى أسلوبه الكتابى ، ولعله اعتمده منهجا لكتاباته العديدة ليبقى فى يده زمام التجديد والتنويع ، ويسلك مع قارئيه أساليب شتى فى التعبير ، ويرتاد دروبا متباينة بقصد الإقناع والتأثير .

الوصولية واهتزاز معايير الأخلاق :

كتب الزيات تحت عنوان « ثورة على الأخلاق » [1] يعالج ظاهرة الوصولية فى المجتمع المصرى وما تفرزه من سخط ، وتدعو إليه من قنوط ، وبخاصة لدى فئات الشباب المثقف الذى حصّل قدراً من المعرفة النّظرية ، وتعلّق بمثاليات الحق والعدل والمساواة ، ولكن الشاب من هؤلاء يفاجأ عندما يدلف إلى عتبات الحياة العامة، وينخرط فى غمارها أن مثالياته التى حصّلها ومعارفه التى استوعبها لايربطها بواقع

(١) وحى الرسالة ١ / ٤١٠ .

الحياة فى المجتمع رابط ، ولا ينتهجها مع ممارسات الناس سبيل ، فتهز فى وجدانه قيمة تلك المعايير الأخلاقية ويعاين أنها لاتوجد إلا فى الخيال ، ولا تنطبق إلا على الأقاصيص المخترعة ، والروايات المدبجة ، أما واقع حياة الناس فإنه يضجّ بالفساد ، ويعجّ بالرذائل والنقائص .

وقد ساق الزيات الظاهرة المؤلمة على لسان أحد أبطاله الذى اختار له اسم « خالد » فبسط على لسانه تلك الشكوى الممضة وأدار معه حواراً عن سبب مايبدو عليه من ضيق وامتعاض فأجابه خالد بقوله :

ـــ ماذا أصنع ياصديقى والناس أصبحوا يشككوننى فى مزايا الأخلاق وقيم الفضائل ؟ كنت أضطرب فى دائرة ضيقة من العيش فيها كل ما فى الدنيا الواسعة من لذة الروح بالأهل ، وسرور القلب بالإخوان ، ومتاع العقل بالكتب ، ونشاط الجسم بالعمل ، وليس فيها البحران الذى يحدث من حمى الهموم ، ولا الجحيم الذى يشبُّ من تحاسد الخصوم ، ولا اللجب الذى ينشأ من تنافس المجتمع ، وكنت وأنا فى هذا العالم الصغير المحدود أعتقد أن القواعد التى سنها الأخلاقيون لتهذيب الإنسان من الخلال المضادة لغريزته ، قد استطاعت على مر القرون أن تخفت فى دمه صوت الحيوان ، وأن تلائم بين موهوب الطبع ومكسوب العادة من تناقض الرأى وتعارض الهوى ، وأن تجعل من سلطانها الغالب دستوراً لحياة الناس فيكون بها مقياس السؤدد وفيها سبب الرقى ومنها وسيلة النجاح . نعم ياصديقى ، كنت أعتقد ذلك وأستبعد أن يكون للمدنية معنى غير الثقافة ، وللثقافة مدلول غير الكفاية وللكفاية نتيجة غير الفوز ، حتى ألجأتنى طبيعة عملى العام إلى توسيع الدائرة فوسعتها بمقدار ما استلزمه العمل مع ملابسة الشعب ومراجعة الحكومة ، فإذا ما قرأته زور ، وما تخيلته وهم ، وما اعتقدته باطل . ماشيت العامة على الدين فلقيت الكفر ، وعاملت الخاصة على هوى الخلق فوجدت النفور ، وعالجت الأمور على مقتضى القانون فأدركت الخيبة . فذهبت أفتش فى الناس عن أسباب الفوز فلم أجد من بينها سبباً يمت إلى الفضيلة أو يتصل بالكفاية .

هذا الباشا فلان يملك القرى بإنسانها وحيوانها وأطيانها ، وله المقعد المرفوع فى

البرلمان ، والصوت المسموع فى الحكومة ، والأمر النافذ فى البنوك ، وهو رجل لايزال على الفطرة الأولى من الوحشية والعنجهية والجهالة .

وهذا البك فلان تشغل عمائره الخلاء والهواء من المدينة ، وله على أغلب الأسر دَيْن،وعلى أكثر البيوت اختصاص . ولو سألت جيرانه الأولين عن مصدر هذا الثراء الضخم لأجابوك بلهجة المحنق الموتور بأنه الربا الذى لايحفل القانون ، والغش الذى لايبال الفضيحة ، والاختلاس الذى لايخشى الله والبخل الذى لايذكر الموت .

هذا الموظف فلان يملك القصر المنيف فى أجمل بقعة ، والسيارة الفخمة من أعلى طراز ، والمرتب الضخم من أول درجة ، وله الوصل والقطع فى أمور الناس ، والمنح والمنع فى أموال الدولة ، فهل بلغ ما بلغ بعلمه ؟ إنه لايحمل غير الشهادة الثانوية ! هل نال ما نال بكفايته ؟ إنه لايحسن غير الإمضاء فى الموضع الذى يضع عليه الكاتب الصغير إصبعه من الورقة ! إذن لم يدرك الرجل ما أدرك إلا بفضل المرونة التى تكون فيمن خلقوا من المطاط لا من الطين ، فرأسه ذو وجهين، ولسانه ذو شفتين ، وضميره ذو بالين ، وشرفه ذو رأيين ، يدارى ويجارى ، وينافق ويمالق ، ويهان فيقضى ويستباح فيبيح . وهو متفرق الأحاسيس فلا تجمع له عاطفة ، متنافر المنازع فلا ينسجم له رأى ، معوج المسالك فلايستقيم له مذهب .

وهذا الأستاذ فلان يأكل فى صحاف الذهب والفضة كالنابغة ، ويخطر فى مطارف النعيم والجاه كابن العميد ، ويملك للناس الضر والنفع كابن عبدالملك ! فلعله أصاب ما أصاب من وراء علمه وخلقه . ليت ذلك كان فتشذ القاعدة ويخطىءالقياس . ولكن الأستاذ نجح وأسفاه لأنه باع العلم بالسياسة ، واشترى الدنيا بالدين ، واضطرب فى مهب الأعاصير حتى رفعه أحدها على متنه ، ثم استقر على المنحدر الشاهق استقرار الريشة القلقة ! .

ثم رجعت أبحث عن أسباب الفشل فوجدتها لا تخرج عن حدود الفضائل التى تعشقها ابن آدم منذ أدرك ! فالعلم والصدق والصراحة والشجاعة والقناعة والأمانة والنزاهة والأنفة والحلم والتواضع والجود ، كل أولئك عوائق عن درك الغنى ونيل الجاه وكسب الشهرة . وأقوى البراهين على إقناعك أن تستقرى أحوال المصابين بهذه الخلال فهل تجدهم إلا أواخر الموظفين فى الديوان ، وأخسر المتعاملين فى السوق ، وأضعف المتنافسين فى المجتمع ؟ .

لقد تدبرت الأمر فوجدت الفضائل لا تنتصر إلا فى الروايات والقصص . أما التاريخ الذى يسجل الواقع ويروى الحق فهو دامى الصفحات بأخبار الأنبياء والعلماء والفضلاء والمصلحين الذين أوذوا فى سبيل الدين ، وقتلوا فى خدمة العلم ونكبوا فى مرضاة الحق ، وشقوا فى حب الفضيلة .

فهل نقول بعد ذلك إن الأخلاق الفاضلة لاتزال عدة النجاح وطريق السعادة؟ .

فقلت له : أما أنها طريق السعادة فنعَام ونعَم ، وأما أنها عدة النجاح فلاأجد فى نفسى الآن قوة على تأييده ، لأن لى فى بعض (المصالح)مسألة لم يفسدها إلا رعايتى للخلق ، ولأن لى فى بعض الوزارات مسألة أخرى لم يعقدها إلا محافظتى على القانون . فليس لك على إلا أن أعرض رأيك على رجال الدين وحماة القانون ودعاة الأخلاق ، ليردوا عليك ما كذب من قولك ، أو يردوا إليك ماعزب من عقلك

ويعرض الزيات فى مقال آخر بعنوان « من عجائب الناس » [1] صوراً من الوصولية البغيضة والتلوّن الممقوت من فئات من الناس ، يتشدق آحادهم بالفضائل ، ويثرثرون حول المثل العليا ، فإذا تعلّق الأمر بمنفعة شخصية لأحدهم نسى ما كان يردد وتنكّر لما كان يدّعى ، ووثب على ما ليس له وثوب الجوارح ، وانقض انقضاض الكواسر ، وافترس افتراس الضوارى يقول الزيات فى مطلع المقال :

---

(١) وحى الرسالة ٢ / ٣٦٨ .

«لعل ابن آدم هو المخلوق الوحيد الذى يرى الشيء الواحد بعينيه الاثنتين أبيض تارة وأسود أخرى على حسب الصبغ الذى يلونه به الهوى ! فقد يتحد الشيء فى ذاته وصفاته ، ولكنه يختلف واعجباه فى نظره أو فى رأيه ، فيكون حسناً وقبيحاً ، أو خيراً وشراً ، أو حلالاً وحراما ، أو نافعا وضاراً ، لا باعتبار حقيقته فى نفسه ، ولكن باعتبار ما تقتضيه الحاجة أو الأثرة أو الرياء أو المحاباة . وبفضل هذه الميزة العجيبة فى الإنسان تعددت مقاييسه ، وتضاربت أهواؤه ، وتناقضت أحكامه ، وتباينت عقائده ، وتفرقت سبله .

كان لكاتب من كبار المصلحين حصة مأكولة فى وقف أهلى ، فظل يكتب فى وجوب حل هذا النوع من الوقف حتى نضب مداده ، ويخطب فى جشع النظارة ، وإهمال الوزارة حتى جف ريقه . وتداول الناس مما كتب وخطب جملة من البراهين الملزمة والنصوص الصريحة والوقائع الثابتة لاتدع لوجود الوقف الأهلى مبرراً ولا للدفاع عنه حجة . فما هو أن آلت النظارة على هذا الوقف إليه حتى بلغ لسانه فلم يخطب ، وكسر قلمه فلم يكتب ، وفرغ لاستغلال الوقف والاستبداد بريعه فلم يقبل رقيباً عليه ، ولم يقابل مستحقاً فيه ! ذكرت بهذا الكاتب المصلح ذلك الاشتراكى المفلس الذى كان يرى الرأسمالية وبالا على المجتمع ، والرأسماليين كلا على الناس ، وكان يسوّغ فى سبيل اشتراكيته الإرهاب والإضراب والمصادرة والقتل ، حتى ورث عن أحد أقربائه الأباعد قطعة من الأرض ، فنصب على كل جهة من جهاتها الأربع لافتة كتب عليها بالخط العريض : « ممنوع المرور » ! .

التواكل وضعف الهمة :

وهى نقيصة من أفدح مايعاب به الإنسان وقد ربطها الزيات كما سنرى بطبيعة حياة المصري فى واديه الخصيب ذى الخير الوفير ، والرزق الرخيّ ، الذى يأتيه فى الأعم الأغلب دون كبير عناء . وقد كتب الزيات تحت عنوان « هل خصب الأرض يستلزم جدب القرائح »[1] يقول :

(١) وحى الرسالة ٢ / ١٣٢

من الأقوال المأثورة أن الحاجة تلد الاختراع وتفتق الحيلة . وهذه الحاجة التى ضمَّنها الله عمارة الأرض ورقى العالم ، هى التى جعلت بيئة الفقر مهبط الإلهام ومنبت العبقرية . فأينما تجد الحاجة تجد العمل والذكاء والقوة ، وحيثما تر الغنى تر الكسل والغباء والرخاوة . وذلك لأن الفقير يضطره العيش إلى أن يفكر فيجيد التفكير ، وإلى أن يعمل فيتقن العمل ، وإلى أن يهاجر فيزداد بممارسة الشدائد ومنافسة الناس جلاء فى الذهن وبسطة فى العلم وسعة فى الحيلة . ومواهب العقل كأعضاء الجسد تقوى وتنمو بالكد وتضعف وتضمر بالعطلة . ولايصعب عليك أن ترى مصداق ذلك فى الفوارق الذهنية والعملية الواضحة بين أبناء الفقراء وأبناء الأمراء ، وبين سكان مصر العليا وسكان مصر السفلى ، وبين بلد كدمياط وبلد كالفيوم ، وبين مدينة كأتينا ومدينة كرومة فى الغرب القديم ، أو بين قطر كفينيقية وقطر كالعراق فى الشرق الغابر . ففى كل من ذكرت لك ترى أن جدب الأرض وضحولة الموارد كانا علة فى إخصاب العقول وإنماء المدارك وكثرة الإنشاء ووفرة الإنتاج ، وأن خصب البلد وسهولة الأرزاق كانا سبباً فيما أصاب بعض الناس وبعض الأجناس من البلادة والقعود والترف والغفلة .

* * *

تستطيع أن تقول إن مصر فى جملتها بلد غنى يؤتى أكله كل حين بيسير الجهد وقليل النفقة . فأهله آمنون من موت الجوع ، لأن الفقير يملك أن يمسك روحه بنصف قرش . وما أيسر مايجد قرشين فى اليوم بالعمل الحقير أو السؤال الملحف ! ومتى حصل المرء من بلده على الكفاف والراحة والأمن ، نشأت فى نفسه فضيلة القناعة الزائفة . والقناعة فى الفقير كالثروة لدى الغنى ، كلتاهما تقتل طموح النفس ، وتسكن قلق الروح ، وتخمد نشاط القريحة ، وتحمل الرجل على الرضا بالدون والتسليم بالواقع .

هذا الفقير القانع الذى لايحس بالحاجة فلا يسعى للغنى ، وهذا الغنى الوادع الذى لايشعر بالنقص فلا يطمح إلى الكمال ، هما الأثر السيىء لتدليل النيل

لبنيه وحدبه البالغ على أهله . فالفلاح لايزال يزرع الأرض بالآلة القديمة على الطريقة القديمة ، لأنه لايجد فى نفسه الحاجة التى تحفزه إلى اختراع آلة وابتكار طريقة مادامت أرضه تغل عليه مايكفيه بهذه الأداة الرخيصة السهلة .

والصانع لايزال يصنع بيده كل اليوم ما تصنعه الآلة فى بعض الساعة ، لأنه يجد فى جيبه آخر النهار ما يملأ به بطنه بخسيس الطعام وغليظه ، فعلام يشغل ذرعه بما يقلل النفقة ويكثر الإنتاج ويحسّن النوع ؟ .

والطالب يقصر جهده على استظهار المختصرات ، لأن الامتحان لايخرج عن هذه المذكرات . والوظيفة لا تطلب إلا بعضاً من الحساب وشيئاً من المصطلحات . وما غناء العلم بعد أن ينال المتعلم الشهادة والوظيفة ؟ .

والمعلم يحصر نشاطه فى كتب الدراسة وما يتصل بها من مقترح التمارين وموضوع الأسئلة ومحلول المسائل ، ثم لايفكر بعد ذلك فى درس مشكلة من مشكلات التربية ، ولا حل معضلة من معضلات المجتمع ، لأنه ضمن لنفسه المرتب آخر الشهر والعلاوة آخر المدة .

والكيميائى أو الفيزيائى يبلغ الدرجة الجامعية العليا فى الكيمياء أو الفيزياء، ثم يعلم أن أقرانه فى البلاد العاملة الجادة لاينفكون يسخّرون للمدنية والإنسانية قوى المادة وأسرار الطبيعة فى شكول مختلفة ومظاهر متعددة : فى البيت والمدينة ، وفى السماء والأرض ، وفى السلام والحرب ، ولا يفكر عالمنا الكبير أن يزيد فى العلم بكشف مجهول ، أو يرفه عن العالم باختراع آلة ، لأنه لايبتغى شيئاً وراء اللقب الفخم والحياة الوديعة .

والطبيب أو الصيدلى يجعل كل همه فى رواج عيادته أو صيدليته ، لأن المال هو غايته من الطبابة أو الصيدلة ، فإذا بلغها على حساب الطب المحفوظ أو الدواء المجهز فلماذا يكدر صفو عيشه بالاحتباس فى معمل ينقب عن جرثومة مرض ، أو يجرب مفعول مصل ؟ .

والسياسى أو المصلح يتوخى بعمله مجد الشهرة وجاه الحكم ، فإذا أدركهما بتملق الجمهور أو بعصبية الحزب فلا عليه بعد ذلك أن يظل حزبه من غير منهاج ولا غاية ، وأن يزاول عمله الخطير من غير خلق ولا دراية . وإذا كان الرمق فى هذا البلد يسد بنصف القرش ، والوظيفة تنال ببعض العلم ، والمنصب والمرتب يعظمان بمضى المدة ، والشهرة والجاه يُدركان بارضــاء العامة ، والزعامة والحكم يُبلغان باحتراف السياسة ، فأى شىء يدعو إلى زيادة العلم وإطالة الفكر وإدامة العمل وإضاعة الجهد والعمر فى تحرير مسألة أو تأليف كتاب أو متابعة كشف أو محاولة اختراع أو وضع خطة للاصلاح أو تدبير سياسة للحكم ؟ .

* * *

حاولوا ياقوم أن تهذبوا القناعة فى ذهن الفقير برفع مستوى عيشه وإصلاح فساد ذوقه . وحاولوا أن تخلقوا الحاجة فى نفس الغنى بتشويقه إلى الكمال المطلق وترغيبه فى المثل الأعلى ، فانكم إن نجحتم فى زعزعة الرضا فى القانع المعتر وفى الواجد المغتر ، ساورهما القلق الروحى الحافز الذى لايقنع بما دون الغاية ، ولايرضى للغير بأقل مما يرضى للذات .

حاولوا أن تحملوا العلماء والأدباء بالجوائز والألقاب على الإنتاج الأصيل والتأليف المبتكر والبحث المنتج حتى ينشأ فيهم على طول الزمن والمرانة حب البحث لفائدة العلم ، وحب العمل لمنفعة الناس .

ثم حاولوا أن تقيسوا كفايات العاملين وأقدار النابغين بغير مقاييس المحاباة والزلفى والقرابة ، فإن كثيراً من الأكفاء إنما يزهدهم فى العمل والإصلاح اليأس من الإنصاف والقنوط من المكافأة ! »

وبهذا التصور الواعى لأبعاد التواكل وقعود الهمة يلخص الزيات داء من أخطر أدواء المجتمع المصرى ويعرض ظواهر ذلك النزوع المحبط لآمال الأمة المعوق لها عن الرقى فى مختلف نواحى الحياة .

وتبلغ هذه النغمة اللاذعة فى نقد الطبقات الدنيا فى المجتمع المصرى ذروتها فى

كتابات الزيات فى مقال آخر . نحس من إيحائه أنّ الزيات كان ذا بصيرة ناقدة، ووعى نافذ لما يراه من وجوه الاصلاح فلم يكن يعلق الأخطاء جميعا على الحكومة أو ذوى النفوذ والسلطان بل كان يوجّه سهام نقده ، ويصبّ جام سخطه على البسطاء المتواكلين الذين لايحاولون أن يغيروا من واقع حياتهم الحقير .. يقول فى مقال بعنوان «تحت ظلال الكافورة من أحاديث القهوة»[1] ناعيا على قطاع عريض من الشعب فى عصره الرضى بالدون والتشبث بالحضيض وقد خص الكاتب هذا الجزء من مقاله للحديث عن صورة من صور ذلك الهوان يقول : « هذه الصورة تمثل الفلاح ابن الأرض وعبد الأرض : قصر نظره على الأرض ليزرع ، كما قصرت البهيمة نظرها على الأرض لترعى ؛ فلا هو يطمح أن يكون إنساناً يترق ، ولا هى تطمح أن تكون طائراً يرتفع . حتى الصلاة لايعرف الفلاح منها غير الركوع والسجود ؛ أما دخوله فيها بالتكبير ، وخروجه منها بالتسليم ، فمعنيان ميتان فى نفسه ، لايفهم من الأول صلته بالله ، ولا من الآخر صلته بالناس . وإذا علمت أن هذا الفلاح فى بعض الأمم الدستورية الشرقية هو الكثرة الكاثرة والسواد السائد علمت كيف يزوَّر فيها الرأى العام ، ويزيف النظام الديمقراطى ! » .

ثم يسرد على لسان أحد أبطال أقاصيصه وهو الأستاذ عدلى سؤالا وجهه لفارس من فرسان تلك الأحاديث هو الأستاذ توحيد يقول السائل :

ـــ إذا صح أن الشعور بالنقص مبدأ الكمال فبماذا نعلل بقاءنا فى هذا الدرك الأسفل من الحياة ونحن لانكاد نسمع فى كل مكان ومن كل إنسان غير شكوى من اختلال النظام واعتلال الحكم وانحلال الخلق ؟ .

فقال الأستاذ توحيد : أما إجماع الناس على الشكوى من سوء الحال فما أظن الواقع يؤيده . وإذا كنت تعنى إجماع أهل الرأى من رجال الثقافة والصحافة، فإن شكوى هؤلاء لاتدل إلا على آلامهم هم . والقول بأن الأمة متمدنة لأن فيها قوماً يأكلون أكل الذوات ، ويلبسون لبس الخواجات ، وبأنها متعلمة لأن فيها جماعة يحملون شهادات من كل نوع ، ودرجات من كل قياس ،

(١) وحى الرسالة ٢ / ٣٠٥ .

وأنها طموحة لأن فيها طائفة من مرهفى الحس وعشاق الكمال يطمحون إلى خطير المساعى ويتشوفون إلى بعيد المطامع ، ذلك القول لايسوغه إلا الغرور أو الهزل .

صحيح أننا كنا نقول قبل اليوم : إن المصريين أصل الناس ، وإن مصر أم الدنيا ، فلما كشفت الأغطية الكثيفة عن العيون كدنا نبصر موقعنا من البلاد وموضعنا من الأمم ، ولكن ذلك لايعنى أننا شعرنا بالنقص ، ووقفنا على العلة ، وبرمنا بالجمود ، ونزعنا إلى التكمل .

إن الفلاحين وهم جمهور الأمة قد مات فى نفوسهم ــ لسبب لا أدريه ــ ذلك القلق الروحى الذى يتحدى القدر ويخلق الطموح ويحقق التطور ، فإذا انبثق فى صدورهم ذلك النور الإلهى اهتدوا إلى الطريق الإنسانى الذى أضلوه ، فلايحتاجون إلى من يبنى لهم المراحيض فى البيوت ، أو يضع لهم النعال فى الأرجل ، وليس العلم شرطاً فى حبِّك النظافة وطلبك الحق وإبائك الضيم ورعايتك الصحة ، فإن ذلك كله من مقتضيات الفطر السليمة . والبدوى على عنجهيته وجهله لايزال المثل المضروب فى الاعتداد بالنفس والاحتفاظ بالكرامة . وفى يقينى أن الواجب الأول على رجال الدين وأقطاب الصحافة ورجال الإصلاح أن يقنعوا الفلاح بأنه إنسان . وذلك وحده كفيل أن يعلمه كيف يعيش ، وأن يلهمه كيف يرقى ! » .

وتمضى بالزيات مشاعر الحيرة والقلق من أوضاع المجتمع المصرى وتعدد الشكوى من قطاعات عريضة من أبنائه دون أن يحدد أى منهم على من تقع مسئولية التخلف والجمود فيحرر مقالا من أروع ما سطره قلمه بل لعله من أروع ما كتب فى بابه وفى عنوانه أيضا وهو مقاله « كلكم حواريون فمن يهوذا »[1] يقول فى مطلعه « لاتسمع من أى إنسان فى أى مكان إلا تذمراً على حال المجتمع، وتضجراً عن نظام العيش ، وتضوراً من فساد الحكم ، وتحسراً على أخلاق الناس ! فما من سياسى تلقاه إلا رأيته لهيف الجوانح ذاهب القلب ، لايملك عينه من الدمع ، ولا قلبه من الوجد ، ولا لسانه من هذا الشكاة : أضاعوا استقلال

(١) وحى الرسالة ١ / ٢٥٤

البلاد ، ووأدوا دستور الأمة ، ونشروا بخططهم على الشعب سوء النبأ ! فقد كان لنا بجانب « الاحتلال » مكان ، ومع « دار الاستشارة » رأى ، وقبل نفاذ الأمور كلمة ، وفوق كل اعتبار كرامة . وكان لهذا كله على ضآلته وهزاله ثمن فادح مرهق، أديناه ضحايا بررة من أرواح الشباب فى ساحة الجهاد ، وملايين تسعة من أقوات الأمة فى « قانون التضمينات » (١) ثم أصبحنا وإذا المكان خلاء ، والإشارة أمر ، والكلمة رجاء ، والكرامة ضراعة ! .

أجل ! يقول كل سياسى هذا الكلام ، ويلوم هذا الملام ، حتى أولئك الذين قتلوا بأيديهم الدستور أمس ، يبكون عليه اليوم بأربعة آماق ، لأن الانجليز أكرموه ودفنوه ! .

وما من موظف تراه إلا حدثك والهم يعتلج فى صدره ، والأسى يتلظى على وجهه : كيف تحكمت المحاباة فى دوائر الحكم ، وفشا التواكل فى دواوين الحكومة ! « فالشهادة العالية » فى التعيين زور مع التوصية ، والكفاية البارعة فى الترقية خُرق مع الهوى ، وحسن العمل فى سبيل الحظوة جناية مع سوء الحظ . ثم ترى « الأقلام » غاصة بالكتبة ، والمكاتب مكتظة بالملفات ، والوزارات مزدحمة بالسائلين والمستعجلين ، والأوراق الحائرة تنتقل من يد إلى يد ، وتخرج من مكتب إلى مكتب ، وترحل من بلد إلى بلد ، لأن « التواكل » الماهر قضى على كل كاتب أو حاسب أن يزيح همها عن نفسه ، ويخرج حكمها من اختصاصه ، فتلبث على هذه الحال بين الحل والترحال شهوراً وسنين ، وهى مع الجد لاتستغرق تفكير لحظة وعمل ساعة ! .

يقول كل موظف هذا الكلام ، ويتهم هذا الاتهام ، حتى أولئك الطفيليون الذين عينوا لقبض المرتب ، وظلوا على الشيوع من غير عمل ولا مكتب ! .

* * *

وما من أديب تخلو إليه إلا نثر عليك دموع الخنساء ، ونظم فى مسمعيك تشاؤم أبى العلاء ، وسألك وهو متبلد من الحيرة ، متلدد من الدهشة متى كان

(١) قانون وضع لأخراج الانجليز من وظائف الدولة بالتعويض .

البذاء من الأدب ، والهجاء من النقد ، والادعاء من الفن ، والتقليد البهيم من العبقرية ، والكيد اللئيم من الصحافة .

كان الأدب سبيلاً بين الله والنفس ، وسلاماً بين الروح والجسم ، ولساناً بين الجمال والحس ، ودليلا بين الهوى والخير ، ونسباً بين القرابة والبعد ، فأصبح كما ترى سبباً من أسباب العداوة ، وسبيلاً من سبل الفرقة ، وبوقاً من أبواق الفتنة ، ومظهراً من مظاهر الجهالة .

يقول كل أديب هذا الكلام ، ويلقى عليك هذا الاستفهام ، حتى أولئك السفهاء الذين يلبسون ظلماً مسوح الأدب ، ثم يلتمسون الظهور بالوقيعة فى كل من كتب ! .

★ ★ ★

وما من رجل من رجال الدين تجلس إليه إلا قال لك ودموع الحسنين[1] تنهلُّ على رُدنه العريض انهلال القطر : لم يبق للدين فى هذه الدنيا سلطان ، ولا للخلق فى هذه الفوضى مكان ، ولا للفضيلة فى هذه المادية قيمة . ولقد استشرى فساد العصر حتى نال من تقوى العلماء فأصبحوا يأنفون من الورع ، وينفرون من البساطة ويتأبَّهون على العامة ، ويمدون أعينهم إلى شهوة الحياة ، ويُذهبون أنفسهم على فتنة الحكم ، ويتخلون عن الدعوة إلى سبيل الله إلى الدعوة إلى أهواء الفرد ! .

يقول كل عالم هذا الكلام ، ويهتم هذا الاهتمام ، حتى أولئك الضعفاء الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ، وجعلوا من نفوسهم إلى الباطل سبيلا ودليلا ! .

★ ★ ★

وما من تاجر تعامله ، أو صانع تقاوله ، إلا ابتدرك بالرزاية من الذين نفقوا على الغش ، وأثروا على الخداع ، وسلبوا ثقة الشعب باسم الأخوة ، وسرقوا مال الجمهور باسم الوطن ، حتى جعلوا التجارة والصناعة فيما بينهم وبين الناس معنى من معانى النهب ، وحيلة من حيل الشطارة ، فأنت تدخل المتجر أو المصنع وفى

(١) الحسن البصرى والحسن بن سيرين .

حسك لا محالة أنك مغبون فى السعر ، أو مخدوع فى النوع : أو مظلوم فى التقدير ! .

يقول ذلك كل تاجر وكل صانع حتى أولئك الذين قضى عليهم موت الضمير أن يصدقوك فى البيع ويكذبوك فى التسليم . ويعاهدوك على نوع فيغيروه ولايزيد رجعهم من غشه على مليم ! .

* * *

وهكذا تسمع هذا السخط الحاقد والنقد اللاذع والتعريض الممض والزراية الساخرة من كل لسان فى أى طبقة ، وفى كل حديث فى أى مجلس ، فتقف موقف المشدوه بين العجب والغضب وتسأل :

إذا كنتم ياقوم جميعاً حواريِّين ، فمن يهوذا الذى خان الوطن بدوانقه الثلاثين[1] ؟ كلكم يلوم فمن الملوم ؟ وكلكم يتهم فمن المجرم ؟...

وعظ مالك بن دينار عظة تقاطرت عليها دموع أصحابه ، ثم افتقد مصحفه فلم يجده ! فنظر إليهم وكلهم من أثر كلامه لايملك دمعه وقال :

ويحكم ! كلكم يبكى ، فمن سرق المصحف ؟ » .

* * *

وأما عن الجانب الآخر من موضوع هذا الفصل وهو القناعات الزائفة فقد ناقش الزيات تحت هذا الإطار كثيرا من القناعات التى يأخذ بها بعض الناس دون مراجعة أو تروّ ، وينساقون وراءها انسياقاً على الرغم مما قد تنطوى عليه من أضرار ، وما ينتج عنها من عواقب غير مرضية وسأكتفى هنا بظاهرتين لهما فى حياتنا العصرية مشابه وهما : قضية التوظف الحكومى ، وقضية هجرة الريف إلى المدينة ، وسنلحظ أن نقد الزيات لكلتا الظاهرتين يتطابق مع ما تدعوا إليه الحاجة فى مجتمعنا المصرى فى وقتنا الراهن .

فى مقال له بعنوان « داء الوظيفة »[1] حكى الزيات فى بدايته حواراً دار بينه وبين أحد الشباب تأسف فيه ذلك الشاب وحزن لضياع فرصة توظفه فى الحكومة فقال الزيات : هون عليك يا بنى ولا تسلط على نفسك أساك . إن معك الشباب القادر ، والأمل الطموح ، والثروة المساعدة ، ودبلوم الزراعة التى تفتح لك كنوز الأرض ، وتدر عليك أخلاف السماء ، وفى القرية متسع لامثالك ممن يحيون مواتها ، ويجددون حياتها ، ويفيضون على أهلها نعمة العلم وخير المدنية ونعيم الحضارة .فلم لاتستأجر مزرعة فى بعض دوائر الأمراء تجرب فى استغلالها كفايتك وإرادتك وحظك ؟ إنك إن فعلت عصمت نفسك من رق الوظيفة ، وخلقك من فتنة الحكومة ، وعلمك من آلية العمل ، ورزق من تحديده بالمرتب ، وقدرك من قياسه بالدرجة .

فأجاب وفى عينيه سهوم العجب من هذا الرأى : ما لى أدفع بنفسى فى هذه المغامرة المجهولة ، والوظيفة تضمن حاضرى بالمرتب ، وتؤمن مستقبلى بالمعاش ؟ والقليل المتصل خير من الكثير المنقطع ، والموضع المتطامن المتماسك أصلح للقرار من الرفيع المترجح ؟! .

فقلت له : ذلك كلام لاكته الألسن حتى تفه ، وتقبلته الآذان حتى سمج ولقد كان له مساغه وبلاغه يوم كانت المدارس لتخريج الكتبة والحسبة للحكومة فأما اليوم وقد امتد أفق التعليم ، واتسع نطاق المنهج ، وانفسح مجال العمل وتحققت الحرية للفرد ، وتيسر الارتجال للشباب ، وحان الحين ليسترد المصريون جماعات ووحداناً مرافق بلادهم وموارد أرزاقهم من الأجانب ، فإن الإخلاد إلى المقاعد الحكومية إخلاد إلى العجز واطمئنان إلى الهون وانخزال عن تحرير الوطن .

قال : ولكن فريقا من الشباب ارتجلوا بعض الأمانى الاقتصادية الجماعية فى الزراعة والتجارة والملاهى ، فوردوا عن خسارة وصدروا عن فشل .

فقلت إن هؤلاء فاروا عن حرارة وقتية ، وثاروا عن ريح عابرة ، فاعتسفوا الأمر قبل أن يخبروه ، وزاولوه دون أن يفرغوا له ، واخطأوا تقدير المنافسة الأجنبية

(١) وحى الرسالة ١ / ١٦٨ .

فأخطأهم التوفيق . ومالك تقيس أمرك بهذا المقياس المختل وأمامك المقاييس العليا تتوائب إلى عينيك من كل مكان ! ألم تر إلى اليونانى أو الطليانى كيف يفد عليك من غير رأس مال ولا شهادة جامعية ولاتوصية وزير ولا تعضيد جمهور ولا تحميس صحافة ، فيحترف وضائع الحرف ، ويحتمل مكاره الفوز ويتفرع معالى الأمور فى روية وصبر ، حتى بلغ به نشاطه أن يدير عمارة المدينة ويصرف تجارة القرية ، وينتج زراعة العزبة ، فيبيع عليك غلة أرضك ويتعبدك بربا مالك ، وأنت جالس جلسة الأجير على مكتبك الحقير فى دار الحكومة تكنس لنعليه الطرق ، وتشق لعينيه الحدائق ، وتكفل لتاجره الأمن ، وتدبر لمزارعه الماء ، وتتقبل على كل ذلك دغل الصدر وقسوة اللسان وقحة النظر ! .

* * *

رأى صديقى الفتى أن لهجتى لا تلائم همه الغالب ، وأن منطقى لا يساير منطقه اليائس . فتولى عنى غير راض ولا مقتنع ، وتركنى أحدث نفسى ، وأقارن بين يومى وأمسى ، فأجدنى بين عملى المقيد الذى انصرفت عنه ، وبين عملى الحر الذى انصرفت إليه ، أشبه بالسجين المغلول يعمل برأى غيره ولحساب غيره . يتحرك ولا يسكن إلا بأمر ، ويسير ولا يقف إلا فى نظام . وهو يأكل حين لايشتهى ، وينام حين لايريد ، ويستيقظ حين لايحب ، وتتعطل ملكاته حتى يصبح كالإنسان الصناعى : قوة محركة وآلة . ثم يدرك السجين لطف الله فتتفكك عنه السلاسل ، وتتفتح له الأبواب ، فيجد عقله فى النور ، وخلقه فى الطبيعة ، وحريته فى الجو ، ووجوده فى المجتمع ! فينبت الريش الناسل ، ويخفق الجناح المهيض ، وتتكشف الآفاق الجديدة ! .

* * *

إن أولى الناس بالرثاء لأولئك الذين سلبوا جوهرة الحياة وحرية العيش ، وعاشوا فى ظلام الوجود مكبين على مكاتبهم ، مغلولين عن الحركة ، مكمومين عن

الشكوى ، يستقطرون الرزق من شق القلم ولايصيبون من أجورهم سداداً من عوز ولا غنى من فاقة .

يدخل الموظف الديوان وهو ابن عشرين ، فيودع عاماً ويستقبل عاماً حتى يأخذ بمخنّق الستين وكأن لم يحدث فى العالم شىء ! يختلف الليل والنهار ، وتتبدل الأحوال والأطوار ، وهو على مكتبه الضيق فى غرفته المظلمة ، يعمل ساعة ويجترُّ أخرى ، دون أن يشعر بدوران الفلك ، ولا أن يفطن إلى حركات العالم ! يدخل الديوان وهو طرير الشارب ، أثيث الجمة ، ريان من الشباب والقوة والأمل ، ثم يودعه وهو مخدد الوجه ، أشيب الشعر ، متداعى الجسم ، فقير من المنى والذكريات والمال ، لايصلح إلا أن يكون عموداً فى مسجد أو منضدة فى قهوة . وربما أقصدته [1] المون لانقطاعه بغتة عما ألف من عادة شديدة وحياة رتيبة وأعمال واحدة ، فى ساعات لا تختلف ولا تتبدل .

★ ★ ★

أيها الموظفون ! إن لابتغاء الرزق موارد غير هذا المورد الناضب ، وإن لخدمة الأمة مواقف غير هذا الموقف الكاذب . فتجافوا بأنفسكم عن هذه المقاعد فإنها مواطن الذل والملق ، ومساكن الفقر والجهل ، ومكامن الخمول والموت واقرأوا على أبوابها ما كتبه « دانتى » على أحد أبواب الجحيم :

« قوضوا حصون آمالكم ، وأضمروا اليأس من مآلكم ، أيها الداخلون ! » .

ويعاود الزيات تقرير فكرته فى مقال آخر بعنوان « مثل من الشباب الصالح » [2] يذكر فى بدايته أنه عرف شابا بعيد الهمة نبت فى أكرم المنابت من إقليم الغربية ، أبوه عميد أسرته ، وزعيم بلدته ومن أعيان إقليمه ، وهذا الشاب رباه والده وأحاطه بصنوف النعيم ، وكان حريا بأن يفسده ذلك أو يدفعه إلى الخمول ولكنه كان على العكس من ذلك ذكى حكيم ذو عزم وثقة بالنفس وجرأة فى الحق وهو مع ذلك كله جم الأدب أمام والده لاينقد له رأيا ولا يعصى له أمرا ولا يخالف له نصيحة .

(١) أقصدته المنون : رمته فلا تخطئه .

(٢) وحى الرسالة ١ / ٢٥١ .

وبعد أن يسرد الزيات صفات ذلك الشاب الصالح يذكر أنه تخرج منذ وقت قريب فى كلية الزراعة وكان من أوائل الناجحين وقد لقيه كاتبنا فوجده على غير عادته مشغول القلبى منقبض الصدر ، لا أثر عليه للنجاح فسأله عن سر وجومه فعرف منه أن الشاب واجم حزين لأنه يحس بثقل الفراغ عليه وأنه يريد أن يعمل فى مزارع والده ولكن والده يمنعه من ذلك ضنا به على مخاطر الفلاحة ومتاعب الفلاحين وهموم المسئولية ويريد له أن ينتظر الوظيفة الحكومية على الرغم من أن شهادته فى الزراعة ووالده يملك المزارع الواسعة . وقصة هذا الشاب تأتى على طرف النقيض من قصة سابقة فى مقال « داء الوظيفة » وقد سردها الزيات بأسلوب مؤثر واستقاها من واقع الحياة لتكون مثالا على نوعية من الشباب ذوى الطموح للعمل الحر والفرار من ربقة الوظيفة الحكومية التى يضطر إليها ضعاف الحيلة قصار الآمال صغار النفوس ، أما من يجد فى نفسه القدرة وفى بيته رأس المال وفى أرضه مكان العمل فلا عذر له فى التشبث بالوظائف أو البحث عن قيودها وأغلالها .

وفيما يتعلق بهجرة الريف إلى المدينة كتب الأستاذ الزيات تحت عنوان : « إلى القرية يابك »[1] حكى فى افتتاحيته قصة لقاء على سبيل المصادفة مع أحد سراة الريف ممن يعرفهم وقد لحظ عليه تغيرا أثّر فى جسمه ونفسه وتتابع مع الزيات قصة ذلك الرجل فنعرف أنه منذ رغب أبناؤه فى أن ينقل البيت من القرية إلى الحاضرة انقلب وجوده هو رأسا على عقب ، فقد نقصت غلة الأرض لاتكائه فى زرعها على الناس ، وزادت كلفة العيش لاعتمادهم فى الوجاهة على السرف ، وركبته الديون وخرج من يده زمام قيادة الأسرة ، « فالبنون لايريدون العمل فى غير الحكومة ، والبنات لايرغبن الزواج فى غير المدينة ، والزوجة تأبى إلا أن تكون كزوجة فلان باشا لها فى كل يوم ملهى ، وفى كل أسبوع وليمة وفى كل شهر « مودة » ، ولى كل عام مصيف ... » .

ثم يعقب الزيات على حديث البك وشكواه الممضة بقوله :

---

(١) المرجع السابق ١ / ١٨٠ .

فقلت له وقد تمثل فى خاطرى ما دهى القرية وأصاب الأمة من أمثال هذا الرجل : لو أن سراة الريف استقبلوا من أمرهم ما استدبروا لما كانوا على أنفسهم شراً وعلى قراهم جناية ، فإنك لو بقيت فى قريتك ، وقمت كما كنت تقوم على تدبير ثروتك ، وعاد بنوك من الجامعة إلى القرية فاستثمروا علمهم فيها ، ونشروا مدينتهم وثقافتهم بين ربوعها وأهليها ، ورجع بناتك من المدرسة فبثثن فى نسائها النظام والتدبير والذوق بالإرشاد والقدوة ، ثم فعل غيرك ما فعلت ، إذن لوفر فيها الرزق ، ورف عليها الأمن ، وانتقل إليها العلم ، وتذوّق أهلها المساكين طعم الحضارة ونعيم الصحة ولذة المعرفة ، وشعرت أنت فى هذه البيئة شعور الغبطة والرضا ، لأنك أعنت فريقاً من ضعاف على أن ينعموا بحياتهم ويقوموا بواجباتهم على الوجه الأكمل .

ولكن أكثر القرويين متى ارتجع [1] كثيراً من المال ، أو شدا قليلاً من العلم ، أغلق (المضيْفة) وخرَّب (الدوَّار) ، وخلَّف القرية للفاقة والجهالة والمرض .

فلولا أشعة من نور الأزهر الخالد تنتشر فى هذه القرى فتدعو إلى الله وتهدى إلى الحق ، لظل الريف وساكنوه على الحال التى عثر فيها التاريخ بطلائع الإنسان.

أنت ياسيدى لا تزال عميد أسرة مجيدة لها فى سياسة الأمة صحائف مشرقة ، وفى ثروة البلاد جهود موفقة ، فافزع إلى ماضيك ، واستصرخ عزيمة الجنس فيك ، واستعد سلطانك على أهلك وبنيك ، ثم عد إلى مسقط رأسك ومهبط نفسك ومنبت عواطفك ومنشأ هواك ومرتع صباك وموطن مجدك ومدفن جدودك ! عد إلى القرية يابك !! » .

(١) ارتجع ، ربح .

الفصل الخامس

تحرر المرأة والارتقاء بها

وهو من الموضوعات التى نالت جانبا من اهتمام الزيات وأدار حوله عددا من مقالاته الإصلاحية ، وكان الزيات منصفا فى موقفه من قضية تحرر المرأة داعيا إلى الارتقاء بها ، وإتاحة الفرصة أمامها لتأخذ حظها من التحضر ، وقسمها من التعليم والتثقيف ، وأن تعنى الأمة فى جملتها والأسرة فى نطاقها بتربية الفتاة تربية إسلامية فاضلة . ونستشف من مجمل ما كتبه الزيات فى تلك الجوانب وعيه وإنصافه وقوة حجته واستواء منهجه الإصلاحى ، فقد نظر بعين التقدير لدعوة قاسم أمين فى تحرير المرأة ، وعلق عليها فى بعض المناسبات محللا أصولها متعقبا أطوارها ، مصححا جوانب الخطأ ونواحى التجاوز فى فهمها وتطبيقها .

ففى حديث للزيات فى حفل المؤتمر النسائى الذى أقيم فى الثلاثين من إبريل عام ١٩٥١ فى مناسبة ذكرى قاسم أمين السنوية حلل الزيات دعوته لتحرير المرأة تحليلا موضوعيا ، وأنصفه من المتهجمين عليه وأوضح أن الرجل كان مَعْنِيّاً « باصلاح المجتمع المصرى فى خلقه وعاداته ، ونظمه واقتصادياته ، وتربيته وتعليمه ، ولغته وأدبه ، ولكنه رأى أن علة العلل فى فساده هى حال المرأة . والمرأة قوام الأسرة ، والأسرة نواة الأمة . فإذا صلحت المرأة صلح الرجل ، وإذا صلح الرجل صلح المجتمع والنساء نصف الشعب الذى يربى نصفه الآخر ... »[1] .

وهكذا يمضى الزيات مبينا وجاهة دعوة قاسم أمين الإصلاحية مصوراً حال المرأة فى الوقت الذى حمل فيه ذلك الرجل لواء دعوته الإصلاحية من جهل وتخلف ، وسجن وإهمال . ثم يبين نتائج هذه الدعوة الاصلاحية وما آل إليه أمرها من خروج المرأة للحياة العامة ، وتمتعها بقدر كبير من حريتها ، ووقوفها جنبا إلى

(١) وحى الرسالة ٤ / ٢١ .

جنب مع الرجل فى مختلف ميادين الحياة . ولايدع الزيات الفرصة دون أن ينبه ويحذر ــ وهو يخاطب تجمعا نسائيا مثقفا ــ إلى إيجابيات التحر وسلبياته فيقول فى ختام حديثه :

« ... وهكذا ترعرع غرس قاسم ، وأضاءت شعلة قاسم ولكن دعوته أسرعت فى طريق وأبطأت فى طريق . أسرعت فى طريق الحرية والسفور حتى كادت تخرج عن الحدّ ، وأبطأت فى تضييق الزواج وتقييد الطلاق حتى كادت تنقطع عن السير . والعجيب أن المطلبين اللذين نجحا كانا مثار الخلاف والسخط ، وأن المطلبين اللذين فشلا كانا موضع الوفاق والرضا . والعلة فى السرعة أو النجاح هنا، وفى البطء أو الفشل هناك . أن الحرية والسفور أمرهما بيد المرأة ، وأن تضييق الزواج وتقييد الطلاق أمرهما بيد الرجل »[1] .

ثم ينهى الزيات حديثه الجامع فى ذكرى قاسم أمين بتوجيه نصحه لرائدات النهضة النسائية بقوله :

« فأنتن ياسيداتى خليقات أن تنقين مبادىء قاسم أمين من شوائب الهوى والغى ، وإنكن لتعلمن أن جوهر هذه المبادىء قيام الأمر بين الزوجين على المودة والرحمة ... والناس يقولون إن المرأة وهى معنى الوئام والحب فى الأمة ، أصبحت عاملا من عوامل التنافر والفرقة فى الأسرة ، وإن أسباب الطلاق بعد أن كانت تُعْزَى إلى استبداد الزوج ، أصبحت تعزى فى الغالب إلى استهتار الزوجة ، وقد زعم المحصون أن عدد المطلقات بلغ فى بعض السنين الأخيرة خمسة وسبعين ألفاً خرجن من دار الزوجية لأسباب يسأل الرجل عن أكثرها فى بيئة العامة وتسأل المرأة عنها كلها فى بيئة الأوساط والخاصة . فعالجن ياسيداتى الزعيمات جموح الفتاة كما عالج زعيمكن العظيم عناد الفتى . واحملن المرأة الجديدة على أن تذكر الواجب حين تذكر الحق ، وأن تفكر فى الكون العام حين تفكر فى الكون الخاص »[2] .

(١) المرجع السابق ٤ / ٣٣

(٢) وحى الرسالة ٤ / ٢٤ ، ٢٥

ومن تلك العبارات نستطيع أن نستخلص جملة آراء الزيات فى قضايا تحرير المرأة . ونظرته إلى جوانب الاصلاح بإيجابياته وسلبياته ، وسترى أنه صدر عن تلك القناعات فى مختلف كتاباته عن المرأة كما سنلمح إعجاب الكاتب وتقديره للمرأة الريفية على العموم لما تضطلع به من مسئوليات وما يلقى على كاهلها من مشاق ، وما تكابده فى سبيل كسب الرزق وتتحلى به من صفات التحشم والوقار فى حين ينتقد تبرج المرأة فى المدينة وتحللها من القيم وتقليدها الأعمى للأوربيات فى الأزياء والانحلال دون أن ترقى إلى مستواها فى الفكر والمعرفة .

* * *

من بواكير المقالات التى لمس فيها الزيات موضوع تحرر المرأة وأذاع فيها موقفه المؤيد لمشاركتها فى الحياة وخروجها إلى ميادين الحضور فى المجتمع عضواً له أثره فى ترقيق الأذواق وإشاعة البهجة وإكمال الصورة الصحيحة للأمة مقال له بعنوان « فى العيد » [1] نشره فى الخامس عشر من إبريل عام ١٩٣٣م. تحدث فى بدايته عن جهومة المظهر العام للعيد عيد الأضحى لدى المسلمين وفتور إحساس الناس به وقارن بين ذلك المظهر المسيطر على الأعياد الاسلامية ومظاهر البهجة ورق الذوق وشيوع البهجة فى أعياد النصارى واليهود على الرغم من قلة عددهم ويعلل الكاتب ذلك التباين فى نهاية المقال بقوله :

« ... الحق أن لذلك أسبابا مختلفة ، ولكنها عند الرؤية والتأمل ترجع إلى سبب رئيسى واحد . هو غيبة المرأة عن المجتمع الإسلامى ذلك السبب هو علة مانكابده من جفاء الطبع ، وجفاف العيش ، وجهومة فى البيت ، وسآمة فى العمل ، وفوضى فى الاجتماع .

كرهنا الدور لاحتجاب المرأة ، وهجرنا الأندية لغياب المرأة ، وسئمنا الملاهى لبعد المرأة ، وأصبحنا كالسمك فى الماء ، أو كالهباء فى الهواء ، نحيا حياة الهيام والتشرد ، فلا نطمئن إلى مجلس ، ولا نستأنس لحديث .

(١) وحى الرسالة ١ / ٢٣ .

فإذا لم تصبح المرأة فى البهو عطر المجلس ، وعلى الطعام زهرة المائدة ، وفى الندى روح الحديث ، وفى الحفل مجمع الأفئدة ، فهيهات أن يكون لنا عيد صحيح ، ومجتمع مهذب ، وحياة طيبة ، وأسرة سعيدة » [1] .

ويتبع الزيات مقاله الآنف بمقال آخر عنوانه « فى المرأة » [2] يطلعنا فى بدايته على أن مقاله المتقدم عن العيد قد لقى ترحيبا من قطاع عريض من القراء واعتراضاً وانتقاداً من متكلفى الصلاح وأنصار الانغلاق . فأعاد كاتبنا القضية على بساط البحث وشرح فكرته شرحاً مؤيدا بالحجة مقوى بالأدلة والبراهين موضحا أن إقصاء المرأة عن الحياة العامة كما يدعو إليه أنصار الانغلاق ليس أمراً من أوامر الدين ولا قاعدة من قواعد الخلق ... ثم يقول :

« أما صلة الحجاب بالدين فقد فرغ من توهينها العلماء من أمد طويل . وشديد على العقل أن يسلم بأن البدويات والقرويات ومعظم الحضريات — ومجموعهن يربى على تسعين فى كل مائة من جميع المسلمات — قد تعدَّين بسفورهن حدود الله منذ ظهر الإسلام ولم يأخذ على أيديهن إمام ولا حاكم حتى اليوم ! .

وأما الاعتقاد بأن احتجاب المرأة هو الضمان الوحيد لحصانتها وعفتها فذلك إفلاس للتربية وسوء ظن بالدين وإلقاء بالنفس إلى الرذيلة ... فلو أن الفتاة وهى صغيرة فتحت عينها على القدوة الحسنة ، وأذنها لصوت الواجب ، وقلبها لنور الله ، لوجدت من روحها القوى ، وضميرها النقى وزراً من الفتنة وعصمة من الغواية .

فالتربية الصحيحة إذن هى الضمان الذى لا يضر معه سفور ، ولا ينفع بدونه حجاب . وهى وحدها السبيل المأمونة إلى الغاية التى قصدناها من تلك الكلمة. ومازلنا نعتقد اعتقاداً لا ظل عليه للريب أن غاية الكمال الاجتماعى أن يكون الرجل فى كفة والمرأة فى كفة من ميزان المجتمع . وتلك هى السنة التى فطرنا عليها الله ، والنظام الذى فرضته علينا الطبيعة ، والواجب الذى يتطلبه منا العدل . أما

(١) وحى الرسالة ١ / ٢٥ .

(٢) المرجع ١ / ٢٦

المجتمع الأعرج الأشل البليد الخشن فغير جدير بالسباق ولا باللحاق فى هذا العصر الطموح الطائر . ومجتمعنا بغير المرأة هو ذلك المجتمع : فهو أعرج لأنه يمشى على رجل واحدة ، أشل لأنه يعمل بيد واحدة ، بليد لحرمانه حدة العواطف، خشن لفقدانه لطافة الأنوثة .

لاحظ مجلساً من مجالسنا احتشدت فيه الرجال شباباً وشيباً ، فماذا تجد ؟ تجد الحركات العنيفة ، والأصوات الناشزة ، والمناقشات الفجة ، والأحاديث الجريئة والكلمات المندية [1] والذوق العامى ، والإحساس البطىء ! .

ثم لاحظ هذا المجلس نفسه وقد حضرته امرأة ـــ امرأة واحدة لاغير ـــ تجد الحركات تتزن ، والأصوات ترق ، والمناقشات تنتج ، والأحاديث تحتشم ، والكلمات تنتقى ، والذوق يسمو ، والإحساس يدق ! ذلك لأن الرجل حريص بطبعه على أن يجمل سَمته [2] فى عين المرأة ، ويحسن صوته فى أذن المرأة ، ويسوغ رأيه فى عقل المرأة ، والأخلاق المكتسبة تبتدىء بالتطبع وتنتهى إلى الطبع.

جهل الأولون وظيفة المرأة فلم يعرفوها إلا متاعاً وزينة . لذلك اشتد تنافسهم فيها ، وتنازعهم عليها ، واستئثارهم بها ، حتى ضربوا دونها الحجب ، وأحصوا عليها الأنفاس ، وبثوا حولها العيون ، فجعلوها بذلك قنية لا شريكة ، ومملوكة لامليكة. وكان من جريرة ذلك عليها أن وهن جسمها لقلة العمل ، وساء خلقها لفقد الحرية، وضعف تفكيرها لترك التدبير ، وغفل ضميرها لعدم المسئولية ، فلم تفكر إلا فى حللها وحليها ، ومدافعة الضرائر والجوارى عن نصيبها من زوجها .

لقد كان للأسلاف ولاشك عذر فى إقصاء المرأة عن مكانها من المجتمع ، وخير أعذارهم أنهم كانوا ينظرون إلى المرأة نظرهم إلى الكنز الثمين . وكان من عاداتهم فى الكنوز أن يدفنوها فى الأرض أو يحفظوها فى الخزائن . ذلك إلى أن

---

(١) المندية : المخجلة .

(٢) السمت : هيئة أهل الخير

عمرانهم لم يكن من السعة والتعقيد بحيث يطلب نشاط الجنسين جميعاً ، فحمل الرجال وحدهم أعباءه وقالوا :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

أما نحن ، فبأى عذر نعتذر ، وعلى أى حجة نعتمد ؟ إن الأمم الراقية التى نعاصرها ونصارعها ، لم تزل تنظر إلى المرأة نظر الأسلاف إليها ، ولكنها عرفت كيف تحتفظ بالكنوز وتستفيد منها ، فهى تعرضها اليوم فى المتاحف أداة علم وفى المصارف رأس مال وقوة . وعمراننا قد زخر واستبحر حتى اعتدى فيه العمل على الراحة ، والتنافس على العدل ، والقوة على الحق ، وتسلح الغربى فى جهاده الحياة بقوى الطبيعة فى السماء والأرض ، ونحن مازال نصفنا اللطيف قاعداً عن الانتاج عاطلا عن العمل ! .

أنا لا أريد أن ندفع بفتاتنا فى أتون الحياة المستعر فتحمل الفأس وترفع المطرقة وتعقد البيع وتجلس للحكم ، إنما أريد أن تعطى حريتها الطبيعية فى حدود عملها الطبيعى ، وأن تعلم كيف تساهم فى شركة الزوجية : فتربى الولد ، وتدير البيت ، وتدبر الأسرة ، وتعدل ميزانية الرجل ، وتشعر أنها تعمل متضامنة مع بنات جنسها وبنى قومها لتكوين أمة متماسكة الأجزاء ، وثيقة البناء ، لاينال من وحدتها شهوة من هوى ولا نزوة من جهل .

ذلك ما قصدنا إليه فى تلك الكلمة الموجزة بسطناه اليوم بعض البسط لعل فيه جلاء لما اختلج فى بعض النفوس من هذا الموضوع » .

وقد بقى الزيات على قناعته بذلك الرأى وتلك الوجهة فى قضية تحرير المرأة ، فأتت مقالاته العديدة بعد ذلك مؤكدة للحقائق التى قررها فى مقاله المتقدم ، فكان يحمل على إسراف الفتاة فى التبرج وإساءتها استعمال الحرية ، وخلعها ربقة التقاليد الأصيلة المتوائمة مع سمو الإسلام وجمال الفضيلة . وعنى الزيات بصفة خاصة بتربية الفتاة وعالج فى عدد من مقالاته مشكلات وظواهر تتعرض لها المرأة نتيجة سوء التربية ، وقصور التنشئة ، واختلال الفهم فى محيط الأسرة ، بالاسراف

فى الحجر والتقييد ، أو بالتسيب والإباحية ، فكان موقفه وسطا ينبذ المغالاة ، ويدعو إلى الاعتدال ، ويوائم بين مقتضيات التصوّن والتعفّف ومتطلبات الرقى والتحضر ، ولايسع الباحث المنصف إلا أن يؤيد موقف الزيات حول قضية تحرير المرأة ويقدر فيه سداد الرأى وصواب الفهم ، واستواء الفكر .

انتقد الزيات فى أكثر من مقال عرى المرأة المسلمة وإسرافها فى تقليد الأجنبيات وبخاصة فى المصايف على الشاطىء وله مقال بعنوان « على الشاطىء[1] أدار من خلاله حواراً مع فتاة كانت فى وقت سابق تلميذة من تلميذاته لقيها مصادفة على أحد شواطىء الاسكندرية ، وكان كاتبنا يظن للنظرة الأولى أن هذا الحشد الذى يراه هو من « بيئة أجنبية ناسها غير ناسنا وإحساسها غير إحساسنا، ولغتها لغة فرنسا لا لغة مصر ، وسمرتها سمرة الشمس لا سمرة الجنس ... » .

ويفاجأ الزيات كما حكى بتلك الفتاة التى دعته إلى الجلوس وجعلت تعرفه بمن حولها من صديقاتها وزميلاتها : « هذه ابنة فلان وهذا الذى معها أخوها ، وهذه ابنة فلان وهذا ابن عمها ... » .

ويحكى الزيات مجمل الحوار الذى دار بينه وبين الفتاة والذى نستشف منه رأيه فى هذا السلوك بقوله :

فقلت لها : لولا علمك « يا عقيلة » لحسبت هؤلاء جميعا أجانب .

ـــ ما الذى يحملك على هذا الحسبان ؟ .

ـــ هيف القدّ واكتناز اللحم واتساع الحرية .

ثم يعقب الزيات فى نهاية المقال على تلك الأفكار التى رددتها الفتاة عن الحرية والروح الرياضية ... بقوله :

« أرى يا آنسة أن المرأة تسىء إلى نفسها بهذا التبذل حتى من الجهة النسوية

---

(١) وحى الرسالة ١ / ٤٥ .

الخالصة ، فإنها متى فقدت سحر المحجوب وجاذبية المجهول أصبحت كسائر الإناث من سائر الحيوان . عفوا يا آنسة إذا اتخذت فى خطابك لهجة الأستاذية، فإنها لاتزال أقوى الصلاتْ التى أمتّ بها إليك ، ألا تلاحظين أننا فى الجد نتطور ببطء موئس وفى المنزل نتطور بسرعة جامحة ؟ لقد كنّا بالأمس نتجادل فى السفور، وها نحن أولاء اليوم نتجادل فى العرى ! .

ثم يختتم الزيات مقاله مقرراً أن الرجل يتحمل جانبا كبيرا من وزر هذه الظواهر المخزية فيقول :

« على أن من الظلم الموروث أن الرجل يشارك المرأة فى الذنب ثم يفردها بالعقوبة . فالأب يقود ابنته عارية إلى الشاطىء ، والزوج يجلس مع زوجته عارية على المقصف ، والأخ يتعرى مع أخته فى الكشك وفى البحر ، ثم يندلع لسان النقد على المرأة وحدها فيتهمها بخنق الفضيلة ، ويرميها بذبح الخلق ! .

يا قوم لقد فتشتم فى الشواطىء كثيرا عن حياء المرأة ، ففتشوا فيها ولو قليلا عن نخوة الرجل ! » .

وبهذا نرى الزيات يذهب فى قضية المرأة مذهبا وسطا ويدعو إلى تحررها بقدر، ويطالب بأن يرعى أهلوها نشأتها وتربيتها ويشركهم فى مسئولية انحرافها عن الطريق السوى .

ويولى الزيات اهتمامه لخطر آخر من أخطار الاسراف فى إطلاق حرية المرأة وهو موضوع اختلاطها غير المحسوب بالرجل مما قد يدفعها إلى مزالق الرذيلة ومهاوى الضياع ، وصاغ الزيات فى معرض تقرير تلك الحقيقة والتحذير من عواقبها عددا من مقالاته فى صورة أقاصيص من واقع الحياة تؤكد أحداثها أفكاره وتكشف عن رؤيته وموقفه . كتب تحت عنوان « شيطان » [1] يقول : « كان الناس منذ عهد قريب يقرأون فى القصص الغربية أفانين من فجور النفس ، وقحة الهوى وبغى الفتنة ، فتفيض عيونهم من الدمع رحمة للزوجة التى أعمتها الغواية ، وللزوج الذى

(١) وحى الرسالة ١ / ٤٦٤ .

أشقته الخيانة وللطفل الذى أيتمه الطلاق . ثم يسرّى عنهم أنها فجائع إن تكن فى الغرب فنحن فى الشرق ، وإن تكن من زور الخيال فنحن فى حقيقة الواقع ، حتى عشنا معيشة أوربا ، وفتحنا دورنا لكل طارق وصدورنا لكل متودد ، فأصبح مايجرى هنا صورة لما يجرى هناك وما كان معدوداً من خداع الفن صار جاريا على نظام الطبيعة ! » .

ويحكى الزيات بعد تلك المقدمة ذات الدلالة قصة عرف أبطالها : زوجين شابين عاشا فى صفاء غير مشوب ، والزوج مثل فى الإخلاص والرعاية لزوجه ، والزوجة آية فى الوفاء والطاعة لزوجها ، وكانت حياتهما الأوربية تقتضى عليهما أن يكابدا التعرف العارض والخلاط المستمر يقول الزيات معقبا على ذلك الوضع الخطر « والعصمة من شرور الأخلاق فى مثل هذه الحال لا تجد لها مناطا إلا ثقة الزوج فى الزوج ، واطمئنان النفس إلى النفس .. والثقة أصبحت فى المجتمع الحديث من القضايا المسلمة والأمور المفروضة ، فلا ينبغى أن تحوم حولها شبهة ، ولا أن يقوم عليها جدل » .

ثم يكمل الزيات القصة فيذكر أنه كان من بين المترددين على منزل الشابين فتى من أهل الرواء خداع الملامح ، خلاب الأحاديث دخل جنة الزوجين دخول إبليس فوسوس لحواء حتى أغواها وتتتابع فصول القصة المفجعة ويستولى على الزوجة شعور جارف بالضيق من حياتها وبيتها ، وتصارح زوجها بمكنون نفسها وأنها وقعت فى غرام ذلك الشيطان المغوى ، وتطلب إليه أن يساعدها على التخلص من هذا الخبال الذى أصابها ، فاتفقا على أن ترحل إلى أوربا تنشد السكينة والسلوّ ، حتى إذا أقبل الصيف وتعطل العمل لحق بها زوجها ، فربما انجاب الغشاء عن العين والقلب .. ولكن الفاجر علم بسفرها المفاجىء ، فطلب إجازة طويلة من عمله وتبعها إلى مصيفها وهى وحدها توازن فى هدوء العزلة بين ماضى الزوج الواضح ومستقبل الحبيب المبهم ، فأسقط من يدها الميزان ، وأيقظ فى صدرها الحيوان وأفسدها على نفسها وعلى زوجها وعلى أهلها فسادا لايرجى معه صلاح » وتنتهى القصة المفجعة كما يذكر الزيات بقوله : « ثم امتدت يد القدر تحل

عقدة هذه الرواية ، فإذا الزوج وحيد يعانى غصص الألم ، والزوجة مطلقة تتجرع مرارة الندم ، والشيطان الرجيم يقطع البحر عائدا إلى منصبه الكبير ...!! » .

وعلى الرغم من وقوف الزيات إلى جانب المرأة ومناداته بضرورة إفْساح المجال أمامها لتسهم فى بناء المجتمع العصرى الناهض ، فقد كان يرقب فى أسى وحسرة نتائج دعوة التحرر وما آل إليه أمرها من انحراف عن القصد وضلال عن الهدف المنشود ، وكان كلما كربته سلبيات التحرر عادت به الذاكرة إلى أوضاع المرأة قبل أن تدخل إلى ذلك المعترك الوسيع وبخاصة من نساء الريف وفتياته اللائى كن يشاركن الرجل العمل والنصب ، ويحرصن على سمت العفاف والتصون ، ويأخذن زينتهن بقدر ، ويجملن أنفسهن بالحياء والخفر مستلهمات هدى الاسلام ، وأدب الفطرة ، مراعيات تقاليد المجتمع وما تواضع عليه الناس من مثاليات ، ولم يكن ينقصهن سوى نشر الوعى والمعرفة عن طريق التعليم والتثقيف .

الفصل السادس

دور الإسلام فى إصلاح المجتمع

يستطيع المتتبع لأفكار الزيات الإصلاحية وجهاده الدءوب لتحرير المجتمع المصرى من أدوائه ، وتحليل مشكلاته وعلله أنه كان يؤمن إيمانا راسخا بأن التمسك بآداب الإسلام ، والأخذ بتشريعاته وأحكامه من أنجع الوسائل ، وأنجح السبل فى إصلاح المجتمع والقضاء على سلبياته ، وتحقيق السلام والأمن وإشاعة الطمأنينة والرضى بين أبنائه ، وإبعاد أشباح الظلم والبؤس والتخلف عن ساحته ، وقد بسط الزيات آراءه تلك فى مقالات كثيرة ، وفى مناسبات شتى ، تنتظم مختلف جوانب النشاط الإنسانى وتتغلغل فى نواحى عديدة من علاقات الناس بعضهم بعضا : فى السياسة والحكم ، وفى الاقتصاد والاجتماع ، وفى الآداب العامة والسلوك ، وفى الفكر والشعور ، وفى النزوعات والأخلاق .

وتكتسب آراء الزيات المستوحاة من مبادىء الاسلام الحنيف المتوائمة مع روح تشريعاته وآدابه أنها تصدر عن وعى راشد ، وفهم عميق ، وأفق رَحْب ، لايكتفى بالقشور ، ولايقف عند الشكليات ، بل يستصحب فى معالجاته لقضايا المجتمع المسلم وتحليل أدوائه وعلله مقتضيات العصر وما انتهى إليه المجتمع الإنسانى فى أطوار رقيه وتحضره .

وانطلاقا من ذلك كله أتت معالجة الزيات لإصلاح المجتمع تأسيسا على هدى الاسلام نمطا مكتملا فى بابه ، ونظاماً متسقا ، ونموذجا للوعى الاصلاحى على أساس صلب يستمد من قيم الإسلام الخوالد مقومات ثبوته ورسوخه ، ويستوحى روح العصر ومقتضيات التقدم الذى ينشده مجتمعنا المسلم ، وكان من مظاهر استواء الفكر الاصلاحى للزيات أن الراصد لتلك الآراء الاصلاحية فى مختلف

نواحى النشاط الانسانى يجدها خلوا من التخبط والتذبذب ، لاتصطدم مع روح المبادىء الاسلامية ولا تجمد أو تغفل عن متطلبات الحياة العصرية على نحو سوىّ، ترتبط فيه حياة الناس بأصول عقيدتهم وأحكام شريعتهم ، وتنطلق خطاهم الطموحة نحو الأخذ بأسباب الحضارة الناهضة عن طريق الاستفادة بعلوم الأوربيين والنافع من نظمهم ومناهجهم .

* * *

بنى الزيات أفكاره الاصلاحية فى مجملها على أسس من مبادىء الاسلام — كما أشرنا — وكان على قناعة راسخة بأن الدعوة الاسلامية الغراء رسمت للانسانية سبل الخلاص من نقائصها وأرست دعائم السلام الاجتماعى والتكافل فى أكمل صوره وأكرم وجوهه . ومن ثم حرص فى كثير من مقالاته على إبراز الحلول الاسلامية لمشكلات المجتمع الانسانى ، وكرّس جانبا كبيرا من إمكاناته الأدبية وبراعته البيانية فى شرح تلك الحلول واستخلاص القواعد العامة التى قررها الإسلام ، واجتهد فى حث المسلمين على ضرورة الأخذ بها ، والعودة إليها لتستقيم حياتهم على منهج الله ، وهو المنهج الأوحد الذى يعصمهم من الزلل ، ويحميهم من مخاطر المذاهب الهدامة ويعفيهم من اللجوء إلى التوجهات الدخيلة التى لاتتفق مع ماشرعه لهم ربهم — عز وجل — ولا ترعى لمعانى الأخوة الانسانية والسلام الاجتماعى حرمة ، كالشيوعية والرأسمالية وغيرها مما اعتمدته المجتمعات الأوربية من « أيدلوجيات » .

ومن أبرز الموضوعات التى عنى الزيات بها وأفاض فى مقالاته الاجتماعية فى شرحها وبيان مراميها الموضوعات التالية :

١ — التكافل الاجتماعى فى الاسلام .

٢ — الاسلام عقيدة وشريعة .

٣ — الاسلام والمذاهب الهدامة .

٤ — الاسلام وحقوق الانسان .

٥ ـــ تربية الضمير المسلم .

٦ ـــ تخلف المسلمين وتقصيرهم بسبب بعدهم عن منهج الاسلام .

وهذه الموضوعات أو القضايا كانت ـــ وما تزال ـــ الشغل الشاغل لمفكرى الاسلام والمخلصين من دعاة الاصلاح فى المجتمعات الاسلامية منذ خيّم الظلام والتخلف على خريطة العالم الاسلامى وبرز واضحا فى العصر الحديث بعد أن عاين المسلمون مظاهر النهضة لدى الأوربيين وقارنوا بين حال هؤلاء وحالهم .

بيد أن ما يميّز كتابات الزيات حول تلك القضايا هو أسلوب المعالجة ، وقوة الحجة ، وسلامة المنهج ، وحرارة الإقتناع وذلك كله ينعكس على ما كتب ، فيدع قارئه على يقين من صلاحية الحلول الاسلامية وجدواها ، ويزيل غشاوات النفوس ، ويجلو الحقائق فتبدو وضيئة الرواء ، موفورة الألق ، ويبرز ذلك كله جليا فى طريقة التناول وبراعة العرض ، وتبديد أوهام المشككين ، وإشاعة ضياء اليقين فى نفوس المسلمين ، والإبانة عن الجوهر النفيس لمبادىء الاسلام وتشريعاته وآدابه .

هذا إلى أن الزيات لم يكتبْ ما كتب عن تعصب أو حماس فج ، بل استصحب فى كل ماسطره قلمه عقل المفكر ومنطق العالم وثقافة الناقد البصير ، ومعرفة المصلح ، ورؤية الفيلسوف فلم يسلك فى كتاباته الاسلامية مسلك الواعظ المتحمس لأفكاره ، ولم ينهج نهج المتزمتين الذين يصمّون آذانهم ويغلقون عقولهم فى وجه أى جديد ، ويعيشون دائما فى إسار الماضى .

وتلك الميزات مجتمعة تجعل لكتابات الزيات وتوجهاته الاسلامية أبعاداً مهمة ، فهى جديرة بالتأمل واستخلاص العبر والدلالات وتمثل ـــ فوق ذلك كله ـــ أصلا فكريا متكاملا للمنهج الاصلاحى الذى ينبغى أن يحتشد حوله دعاة اليقظة الاسلامية فى أقطار العالم الاسلامى فى عصرنا الحديث .

ولا يغيب عن فهم القارىء أن الزيات لم يكن وحده بين كتاب عصره فى هذا التوجه ولكنه بلا ريب كان أحد الأعلام الذين ارتكزت آراؤهم الاصلاحية على أسس صلبة من هدى الاسلام وتمثُّل روحه واليقين بشمولية منهجه وصلاحيته

لإسعاد المجتمع المسلم فى حاضره ومستقبله كما سعد به ونعم بعدالته وسماحته فى ماضيه عندما تمسك بأهدابه وارتوى من نبعه الثر وخيره العميم .

وبعد أن ألمحنا لمنهج الزيات فى كتاباته ذات التوجه الاسلامى نتناول فيما يلى الموضوعات التى جعلها محوراً لإبراز قناعاته فى صلاحية الحلول الاسلامية وعلاجها لأدواء المجتمع ، ودعوة أولى الأمر وأرباب السلطان للتحرك الراشد لتطبيقها والأخذ بأحكامها .

التكافل الاجتماعى فى الاسلام :

كتب الزيات تحت عنوان « كيف عالج الاسلام الفقر » [1] مقالا جامعا ، ذكر فى بدايته أن معظم المشكلات التى تعانى منها المجتمعات الانسانية تنبع من الفقر ، وأن المعارك التى تحتدم بين بنى الانسان تدور حول القوت .. ثم أجاب على التساؤل الذى جعله عنوانا لمقاله بقوله :

« عالج الاسلام الفقر علاج من يعلم أنه أصل كل داء ومصدر كل شر ، وقد أوشك هذا العلاج أن يكون بعد توحيد الله أرفع أركان الاسلام شأناً ، وأكثر أوامره ذكراً ، وأوفر مقاصده عناية . ولو ذهبت تستقصى ما نزل من الآيات وورد من الأحاديث فى الصدقات والبر ، لحسبت أن رسالة الإسلام لم يبعث بها الله محمداً آخر الدهر إلا لينقذ الإنسانية من غوائل الفقر وجرائر الجوع . وحسبك أن تعلم أن آى الصيام فى الكتاب أربع ، وآى الحج بضع عشرة ، وآى الصلاة لاتبلغ الثلاثين : أما آى الزكاة والصدقات فإنها تربى على الخمسين .

كأنما اختار الله لكفاح الفقر أشح البلاد طبيعة وأشد الأمم فقراً ليصرعه فى أمنع حصونه وأوسع ميادينه ! فإن الفقر إذا انهزم فى قفار الحجاز كانت هزيمته فى ريف مصر وسواد العرق أسرع وأسهل . ثم اختار الله رسوله فقيراً ليكون أظهر لقوته ، كما اختاره أميا ليكون أبلغ لحجته .

---

(١) وحى الرسالة ٢ / ٣٢٨ .

كانت جزيرة العرب إبان الدعوة العظمى مثلاً محزنا لما يجنيه الفقر على بنى الإنسان من تَضْرية الغرائز ، وتمزيق العلائق ، ومعاناة الغزو ، ومكابدة الحرمان ، وقتل الأولاد ، وفحش الربا ، وأكل السُحت ، وتطفيف الكيل ، وعنت الكبرياء ، وأثرة الأغنياء ، وفقد الأمن ، وانحطاط المرء إلى الدرْك الأسفل من حياة البهيم . فلما أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق كانت معجزته الكبرى هذا الكتاب المحكم الذى جعل هذه الأشلاء الدامية جسما شديد الأسر عارم القوة ، ونسخ هذه النظم الفاسدة بدستور متين القواعد خالد الحكمة ؛ ثم كانت بوادر الإصلاح الإلهى أن قلَّم أظفار الفقر . وأسا كلوم الفقراء ، وقمع جرائر البؤس ، فألف بين القلوب ، وآخى بين الناس ، وساوى بين الأجناس ، وعصم النفوس من القتل الحرام ، وطهر الأموال من الربا الفاحش . ثم عالج الداء الأزلى نفسه بما لو أخذ به المصلحون لوقاهم شرور هذه الحروب التى أمضَّت حياة الناس ، وكفاهم أخطاء هذه المذاهب التى قوضت بناء المجتمع . عالجه بالسفارة بين الغنى والفقير على أساس الاعتراف بحق التملك ، والاحتفاظ بحرية التصرف ، فلا يُدفع مالك عن ملكه ، ولا يعارَض حر فى إرادته . إنما جعل للفقير فى مال الغنى حقاً معلوماً لايكمل دينه إلا بأدائه ! ذلك الحق هو الركن الثالث من الأركان الخمسة التى بُنى عليها الإسلام ، فلا هو فرع نافلة ولا فضلة ، وليست الزكاة بالقدر الذى يخفى أثره فى حياة الفقير ، فهى ربع العشر فى المال ومايُقدَّر بنحو ذلك فى غيره . فإذا جُبيت الزكاة بالأمانة على حسابها المقدَّر ، ووزعت بالعدالة على نظامها المفروض ، شفت النفوس من الحقد ، وأنقذت المجتمع من البؤس ، فلا تجد سائلاً فى شارع ، ولا جائعاً فى بيت ، ولا جاهلاً فى عمل .

ولم يقف الإسلام فى علاج الفقر عند فرض الزكاة ، وإنما شرع للبر فى العبادات والمعاملات موارد لا يأسن لها مَعين ولا ينقطع عنها رافد :

يحنث الرجل فى يمينه فيكفِّر بإطعام عشرة مساكين من أوسط مايطعم أهله ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة .

ويقسم ألا يفعل شيئاً ، ثم يرى أن فعله خير من تركه ، فيكفّر بإطعام المساكين ثم يفعله .

ويظاهر من زوجه ثم يبدو له أن يعود ، فيطعم ستين مسكيناً أو يحرر رقبة .

ويرمى فيقتل نفساً عن غير عمد ، فيطعم أو يعتق فضلا عن أداء الدية .

ويعجز عن صوم رمضان لسقم أو هرم ، فيفطر ويطعم كل يوم مسكيناً .

ويفطر عامداً فى رمضان من غير علة ، فيطعم ستين فقيراً أو يفك رقبة .

ويخل الحاج بشرط من شروط الحج فيكفر عنه بذبح يقدمه للمساكين .

ويتجرد عن المخيط فإذا لبس شيئاً منه لزمته الفدية .

ويُرزق الرجل غلاما فيعق عنه بذبيحة ويطعمها الفقراء يوم أسبوعه .

ويقبل عيد الفطر أو عيد الحج فيجب على الأغنياء أن يرفهوا عن الفقراء بزكاة الفطر أو بلحوم الأضاحى .

وينذر المسلم لله نذراً فيوجب عليه الدين أن يفى به براً بالفقراء وعوناً للمساكين .

ويعجز الرجل عن تكاليف العيش فيوجب الدين على من يرثه بعد موته أن ينفق عليه ! فينفق الابن على الأب ، والأب على الابن ، والأخ على الأخ ، والزوج على الزوج ، عملا بالقاعدة الإسلامية الحكيمة : (الغرم بالغنم) . ولقد رأى الفاروق عمر بن الخطاب يهودياً لايقدر على شىء ، فوقف به ثم قال له : ماأنصفناك أيها الذمى ! أخذنا منك الجزية فى قوتك ، فيجب ألا نضيعك فى ضعفك . ثم أجرى عليه من بيت المال مايمسك نفسه .

وجاءت الشريعة بالوصية لمن حضره الموت : يوصى بثلث ماله لوجوه البر فضلا عن الوصية للوالدين والأقربين .

ونوهت السنة بالصدقة الجارية ، فكانت بركة من بركات الرسول الكريم على المرضى والزمنى وذوى الخصاصة وأبناء السبيل وطلاب العلم وحجاج البيت ، بما وقف عليهم أولو الفضل والسعة من المستشفيات والملاجىء والخانات والزوايا والأربطة والمدارس والمساجد والمكاتب . وكفى شهيداً على أثر (الصدقة الجارية) فى علاج الفقر وإشاعة البر ، أن تحصى الأوقاف فى الأقطار الإسلامية ، ثم تنظر فيما حبست عليه من وسائل الإصلاح ووجوه الخير ؛ ثم تحكم على ماقدمت لذوى الحاجات والعاهات من إحسان لايغب وإسعاف لا يغيب .

كا أولئك إلى ما جاء فى كتاب الله وفى سنة رسول الله من الحث على الإنفاق فى سبيل الله والترغيب فيما عند الله من حسن المثوبة ، بفنون من القول الرائع والتشبيه المحكم .

* * *

كذلك عالج الإسلام الفقر من طريق آخر غير طريق الزكاة والصدقات والكفارة . عالجه من طريق الكسر من حدة الشهوة ، والكف من سورة الطموح ، والغض من إشراف الطمع ، فرغب الغنى فى الزهد ، وأمر الواجد بالقناعة ، ومدح الفقير بالتعفف .

* * *

ذلك ما عالج به الإسلام داء الفقر الذى أعيا الإنسانية منذ الدهر الأول . وهو على إحاطته وبساطته ونجوعه ينهض وحده دليلا على حمق الذين يقولون إن دستور القرآن لا يأتلف مع المدنية ، وشريعة نابليون أصلح للناس من شريعة الله، ونظام كرْل مركس أجدى على العالم من نظام محمد .

فلو أن كل مسلم أدى حق الله فى ماله ، ثم استقاد لأريحية طبعه وكرم نفسه ، فأعطى من فضل ، وواسى من كفاف ، وآثر من قلة ؛ ثم قيض الله لهذا كله من ولاة لأمر من يجمعه على أكمل حال ، ويدبره على أفضل وجه ، ويوزعه على أعدل

قسمة ، لكان ذلك عسيا أن يقر السلام فى الأرض ، ويشيع الوئام فى الناس ، فتهدأ ضلوع الحاقد ، وترقأ دموع البائس ، ويسكن جوف الفقير ، ويذهب خوف الفتى ؛ ويتذوق الناس فى ظلال الرخاء ، سعادة الأرض ونعيم السماء ! » .

ويفيض الزيات فى تناول مظاهر التكافل الاجتماعى فى الاسلام فيفرد لها العديد من مقالاته ومنها مقال بعنوان « تنظيم الاحسان » [1] أشار فى بدايته إلى أن الاحسان فى مصر وبلاد الإسلام عامة فوضى لا ضابط لها ، وهو على الصورة القائمة يتيح للقادر على الكسب أن يظفر بالمال ويحتال على الواجدين بألوان الاستجداء وفنون الخداع ، فى حين أن المحتاجين المتعففين تطحنهم الفاقة ويقعدهم العجز ، ويسرد الزيات بعد ذلك قصة فتى من هؤلاء المحتالين الذين يتفننون فى استرحام القلوب وخداع الناس ، ويجمعون من وراء ذلك الأموال التى ينفقون منها ببذخ ... وينتهى الزيات من ذلك إلى المطالبة بتطبيق شرع الله فى وجوب جباية الزكاة وتوزيعها على المستحقين لها ، ويختتم المقال بقوله : « ... افرضوا الاحسان كما فرضه الله ونظموه كما نظمته الشريعة ، واجبوه كما جباه الراشدون ووزعوه كما وزعه القرآن ، تضمنوا للفقير سكون الجوف والغنى زوال الخوف ، وللأمة بأسرها السلام والوئام والمحبة » [2] .

ويؤكد الزيات هذا المعنى الذى خلص إليه من من مقاله المتقدم فى مقال آخر بعنوان « يوم الفقير » [3] يقول فيه مبينا جهاده فى هذا المجال « ... لقد قطعنا سنة من عمر (الرسالة) فى تذكير المترفين بأن لهم إخوة من خلق الله يأكلون ماتعاف الكلاب من المآكل وينامون مع الحيوان فى المزابل ، ويقاسون من الأدواء مالايقاسيه حى فى غير مصر ، فلم يؤثر فيهم ماكتبناه إلا كما تؤثر النسمات اللينة فى الصخر الأصم . ذلك لأن حق الله فى أموالهم قد وُكلَ أداؤه إلى ضمائرهم ، والضمائر قد نامت على هدهدة الشهوات ، والعواطف قد قست

(١) وحى الرسالة ١ / ٤٨٢ .

(٢) المرجع السابق ١ / ٤٨٥ .

(٣) وحى الرسالة ٢ / ٢٧٠ .

على جفاف المادة وبين غفوة الضمائر وقسوة العواطف ذهب وازع الدين ولم يبق إلا وازع السلطان .. »[1].

وهكذا نرى الزيات يدعو ويلح فى ضرورة تطبيق شرع الله وإحياء الركن المهم من أركانه وهو الزكاة لينتصف الفقير المحروم من أثرة الغنى القابض يديه عن الإحسان المقصر فى أداء فضول ماله .

الاسلام عقيدة وشريعة :

خُدع كثيرون من ولاة الأمور والقابضين على مقاليد السلطة فى أغلب بلدان العالم الاسلامى منذ بداية العصر الحديث بدعاوى دخيلة على الفكر الاسلامى الصحيح ، مثل دعوى العلمانية السائدة فى أوربا ، وتبنوا عن جهل وقصر نظر أفكار المنظرين الأوربيين الداعية إلى فصل الدين عن الدولة بزعم أن ذلك يفسح المجال للمضى قُدُماً فى النهضة الحضارية الحديثة جريا وفق معطيات التقدم العلمى، وبعيدا عن كل ما يحد من جموح التحرر المادى ، والانطلاق مع تقريرات العقل المجرد .

وتأسيساً على هذا الفهم السقيم لدور الدين فى حياة الانسان دأب جماعة من أرباب هذا الاتجاه المنحرف إلى محاولة إقناع الشعوب الاسلامية بتلك الأفكار ، والصدور فيما يقولون ويفعلون عن قناعة وافتتان بما تأخذ به المجتمعات الأوربية التى قطعت أشواطا بعيدة الشأو فى الرقىّ المادى والتقدم الحضارى .

وقد أدرك زعماء الاصلاح فى العالم الاسلامى خطورة هذا الاتجاه ومجافاته لحقائق الإسلام ، واجتهدوا فى التصدى لأنصاره وتفنيد أباطيلهم ، مؤصلين أن الاسلام عقيدة وشريعة ، دنيا ودين ، معاش ومعاد .

ولعل الزيات من خيرة من كتبوا حول هذه القضية فى ميدان المقال الاجتماعى الهادف، رابطا رؤيته فى الاصلاح الاجتماعى بقناعاته الفكرية النابعة من فهم سديد لجوهر الاسلام ، وتفرّس واع لغايات دعوته السمحة التى أرست دعائم العدل

(١) المرجع ٢ / ٢٧٢

ومهدت السبيل لكى تُبنى علاقات الانسان بأخيه الانسان على المودة والرحمة .

كتب الزيات تحت عنوان « يا أغنياءنا قولوا أسلمنا ولا تقولوا آمنا »[1] يثنى على أحد أمراء الأسرة الحاكمة لحديث نشرته له « الأهرام » ذكر فيه أنه يؤمن بأن كل خير أصابه أو ناله منذ نشأته كان مرجعه إلى التزامه بأوامر الدين وانتهائه بنواهيه ، ثم يعقب الزيات على تصريح الأمير بقوله : « لماذا اقتصر أمير الأمراء من فضائل الاسلام على المحبة والسلام والصلاة والصيام والعمل والصبر والطهارة وقد كنا نطمع فى صدق إيمانه وسمو بيانه أن يذكر كذلك الزكاة والإحسان ، والبر والتعاون ، ليعلم أولئك الأمراء الذين أسلموا ولم يؤمنوا ، وهؤلاء الأغنياء الذين أساءوا ولم يحسنوا أن الدين عمل ومعاملة ، وتثقيف وتكليف ، وإيثار وتضحية ؟ نعم كنا نطمع فى سمو الأمير وهو القدوة الحسنى فى قول الحق وعمل المعروف أن يدعو إلى الجهة العملية من الدين عسى أن يستجيب له أولئك الذوات المدللون المرفهون الذين ميزهم الوطن كرها على بنيه ، وآثرهم الشعب جهلا على نفسه ... »[2] .

وفى مقال آخر بعنوان « العقيدة الساذجة »[3] يقول فى بدايته فى عبارات تفيض حسرة ومرارة على واقع الغالبية العظمى من المسلمين :

العقيدة الساذجة هى عقيدة الكثرة الكاثرة من مسلمى اليوم ! وربما كان الأشبه بالحق أن نصفها بشر من السذاجة ؛ فإن أيلولة الدين فى نفوس أهله إلى هذا القدر العامى من العبادة الشكلية والزهد الكاذب والتفويض الذليل والورع المنافق والتصوف المشرك هى الفساد بعينه . وماذا بعد أن ترى كتاب الله وسنة رسوله يقرآن لالتماس البركة لا لاكتساب الفقه ، ودستور الإسلام وفلسفة وحيه يدرسان لمجرد العلم لا لإرادة العمل ؟ .

---

(١) وحى الرسالة ٣ / ٢٤٢ .

(٢) المرجع السابق ٣ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٣) وحى الرسالة ٢ / ١٧٩ .

وماذا بعد أن ترى الأحكام والآداب والأنظمة التى أصلحت الأرض ومدنت الخليقة ، تصبح فى الجوامع والمجامع رهبنة وشعبذة لايستقيم عليها فرد ولاتنتظم بها جماعة ؟ .

لقد كان من أثر فساد العقيدة فى النفس أن فسدت آثارها فى الناس . فالفقه فى الدين تفيهق وجدل ، والصلاح فى الدنيا تبطل وفشل ؛ والعبادة مظاهر آلية لاأثر فيها للروح ولا صلة لها بالقلب ! والأخلاق مياسم وراثية تنطق بالحق على ذلة الماضى وجهالة السلف ؛ والمعاملة ألاعيب اجتماعية تخادع الله وتزعم لنفسها الرضا والسكينة ! » .

الاسلام والمذاهب الهدامة :

عرض الزيات فى مقالاته ذات الطابع الاجتماعى لبعض الاتجاهات والمذاهب الرائجة فى أوربا والتى لها علاقة بالأوضاع العامة للمجتمع من حيث التأثير فى حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية. وقد طرح فى أكثر من مقال رأيه فى «الشيوعية» وكانت الدعوة إلى هذا الاتجاه تجد صدى فى نفوس بعض الناس فى مصر على عهد الزيات بزعم أن الشيوعية تخلص من طغيان الإقطاع وأغلال الرأسمالية فكان الزيات واحداً من أبرز الكتاب المصريين الذين تنبهوا إلى فساد هذا الادعاء ، وطرح بديلا عن ذلك الحل الاسلامى المتمثل فى الحفاظ على حق الفرد فى التملك مع الأخذ فى الحسبان إلزام الحاكم له بأداء الزكاة ، وتنبه الزيات مبكراً إلى سلبيات النظام الشيوعى وبخاصة فيما يتعلق بوأد الباعث الفردى على العمل والكسب طالما أن النظام يسوى بين الجميع فى ضمان الحد الأدنى مما يسد الرمق ويستر الجسم ويكفل المأوى .

كتب الزيات مقالا تحت عنوان « الاسلام والمذاهب الهدامة »[1] قرر فى بدايته أن الاسلام هو السلام الإلهى على هذا الكون جعل رب العزة فيه أفضل ما فى الديمقراطية وأعدل ما فى الاشتراكية وأجمل ما فى المدنية من طريق التوحيد

(١) وحى الرسالة ٣ / ١٨٦ .

والمؤاخاة والمساواة والحرية والسلام،فالتوحيد سبيل القوة،والمؤاخاة سبيل التعاون والمساواة سبيل العدل ، والحرية سبيل الكرامة ، والسلام سبيل الرخاء . وبعد هذه البداية يقول الزيات : « ثم علم الله جلت حكمته وعز شأنه أن الفقر من أمراض المجتمع المحتومة مادام فى الناس القادر والعاجز ...

ثم يستطرد الزيات فيبين أن أصحاب النحل الخبيثة وذوى النفوس الضعيفة من الناس قديما وحديثا كبر عليهم الوقوف عند أوامر الله عز وجل ووصايا الرسل فتمردوا على الدين وتحللوا من الخلق وتحرروا من القيود ... ويذكر من هؤلاء قديما القرامطة والبابكية والمزدكية .. ثم يقول :

« وفى هذا العصر الحديث تجددت المزدكية والبابكية باسم الفوضوية والشيوعية فقامتا تدعوان باسم الإنسانية إلى الإلحادو الاباحية سراً وعلانية . تقول الشيوعية للاسلام : إن ربك ظالم لايعرف العدل . جائر لايعرف المساواة ، مستبد لايعرف الحرية . لايعرف العدل لأنه يقول : والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، وأنا أريد أن يكون الرزق مشاعاً ينال كل امرىء منه مايشاء . ولايعرف المساواة لأنه يقول . ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات ، وأنا أريد أن يكون الناس جميعاً فى كل أمر سواء . ولا يعرف الحرية لأنه قيد كل شىء بقيد : قيد الرزق بالملكية ، وقيد المرأة بالزوجية ، وقيد تصرف النفوس بالعقيدة والخلق ، وقيد تداول الأموال بالوقف والإرث . أما أنا فأقول كل شىء « مشاع » وكل أمر مباح ، وكل إرادة طليقة ، حرمت الملكية ، ومحوت الأسرة ، وألغيت الجنسية ، وأنكرت الوطنية، وجعلت المزارع والمصانع والنساء وسائل للإنتاج العام : آخذ من كلّ حسب كفايته ، وأعطى كلا على حسب حاجته . على الناس أن يعملوا ، ولهم أن يأكلوا... أما أن يكون للأفراد أملاك تغنيهم عن الإنتاج ، وللآباء أبناء يشغلونهم عن العمل ، فذلك فى شرع الشيوعيين لايجوز . المِلك مِلك الدولة ، والولد ولد الدولة . وليس بين الرجل ووطنه ، ولا بين الوالد وولده ، إلا كما يكون بين القطعان والمرعى ، أو بين الحملان والكبش ! .

ذلك ما يقوله الشيوعيون فى الله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً .

يزعم الشيوعيون أنهم أعلم من الله بأحوال خلقه ، وأعدل منه فى تقسيم رزقه . فهم لذلك ينكرون دينه ، ويغيرون شرعه ، ويحاولون أن يهدموا كل ما أنتجته القرائح وخلفته القرون ليبنوا على أنقاض ذلك كله شيئاً لايقولون صراحة ماهو ؛ ولا يُرون الناس جهرة كيف هو ؛ وإنما يضربون من دونه الأسداد والحجب . فلا يقع فى الأسماع منه إلا مايريدون هم أن يقع ! وفاتهم قبل أن يلغوا الفضائل والعقائد والقيم أن يلغوا العقول حتى يصدق الناس أن هذا الشيء الذى يذكر فى السر ، ويبذل فى سبيله الأموال والأنفس والثمرات والجهود ، إنما يقصد به العدل المطلق والخير العام ، ولايقصد به طغيان بشر على إله ، ولا سلطان دولة على عالم ! .

ليست الشيوعية عقيدة تقوم على الخير ، ولا طريقة تعتمد على الحق ، ولا رسالة تؤدىّ بالمعروف ، إنما هى أطماع من عمل الشيطان وسوس بها فى صدر جماعة من مغامرى الروس كابدوا استبداد القيصرية ، وقاسوا استعباد الأرستقراطية ، فلم يكادوا يثلون عرش المستبد ويقوضون صرح المستعبد ، حتى أدركهم مركب النقص ، وأخذتهم سورة الانتقام ، فتقاسموا بينهم جبروت القياصرة وصلف الأشراف ، وسخروا كل ما تنتج العقول وتخرج المصانع وتنبت الأرض للجيوش والأسلحة ليتخذوا عباد الله كلهم عبيداً ، ويجعلوا أرض الله كلها لهم ضيعة ! » .

وفى مقال آخر بعنوان « الشيوعية على المصطبة » [1] يقرر الزيات رأيه فى الشيوعية بقوله : « ... إن الشيوعية تأخذ لنفسها لا للناس ، وتدعو إلى باطلها لا إلى الحق ، إنها لا تسوى بين الخلق فى الغنى والحرية ، وإنما تسوى بينهم فى الفقر والعبودية وتجعل الغنى فقيرا بانتزاع ما يملك ولا تجعل الفقير غنيا بامتلاك مايستأجر ، تصادر الأرضين لتكون خالصة لها من دون المواطنين ثم تستغلها بتسخير الأيدى العاملة فلا تعطى الزارع غير أجرته ولا تؤجره إلا على حسب قدرته » .

---

(١) وحى الرسالة ٣ / ٢٩٣

الإسلام وحقوق الانسان :

وتحت عنوان « كيف أعلن محمد حقوق الانسان »[1] كتب الزيات مقالا رائعا يعد من أبدع ما سطره قلمه وأبينه دلالة على تأصل النزعة الاسلامية فى روحه وتغلغلها فى وجدانه ، ومثولها فى وعيه وعقله ... أشار الزيات فى بدايته إلى إعلان هيئة الأمم المتحدة حقوق الانسان فى شهر ديسمبر من عام ١٩٤٩ م فى فورة من فورات النفاق الدولى ، ويتساءل الزيات بعد ذلك عن المعنى الذى يريده الغربيون من لفظ (الإنسان) الذى أعلنوا له هذه الحقوق وأبدوا تجاهه ذلك العطف . ثم يجيب الزيات عن التساؤل الذى طرحه قائلا :

« أغلب الظن أنهم يريدون بإنسان هذه الحقوق ذلك الإنسان الأبيض المترف الذى تحدر من أصلاب اللاتين أو السكسون أو التوتون ؛ أما الإنسان الأحمر فى أمريكا فهو فى رأى أبناء العم السام ضرب مهَين من الخلق ، عليه كل واجب وليس له أى حق ؛ ولكن وجوده المعدوم فى بلاد الديمقراطيين الأحرار لايزال فى رأى المسلمين أغلظ كذبة فى دستور الديمقراطية بواشنطون ، وأكبر لعنة على تمثال الحرية بنيويورك ! وأما الإنسان الأسمر والأسود فى أفريقيا ، أو الأخضر والأصفر فى آسيا ، فهو فى نظر الفرنسيين والإنجليز نوع من بهيمة الأنعام ، وجنس من المواد الخام ، يولد ليسخَّر ، ويروّض ليستثمر ، وينتج ليستهلك . وهو موضوع الخصومة فى السلم ، ومادة الغنيمة فى الحرب ؛ ولكن حقه المهضوم بين أمم العلم والدستور لايزال فى نظر المسلمين اتهاماً لصحة الثقافة فى جامعات فرنسا ، وإنكاراً لحقيقة العدل فى برلمان انجلترا ! ومن هذا التفسير المزور لمعنى الإنسان فى القديم والحديث اضطرب الأساس وفسد القياس واختلف التقدير. فلكل جنس وزنه ، ولكل لون قيمته ، ولكل دين حسابه . ومدار الوزن والتقويم والحساب على قدرة الإنسان وعجزه ، لا على إنسانيته وفضله . فالعلم والغنى والقوة سبيل السيادة ، والجهل والفقر والضعف سبيل العبودية ، والسيادة حق ليس بإزائه واجب ، والعبودية واجب ليس بإزائه حق .

(١) وحى الرسالة ٤ / ٥

المسملون وحدهم هم الذين يفهمون الإنسان بمعناه الصحيح لأنهم أتباع محمد ، ومحمد وحده هو الذى أعلن حقوق الإنسان بهذا المعنى لأنه رسول الله . والله وحده هو الذى ألهم رسوله هذه الحقوق لأنه أرسله رحمة للعاملين كافة .

أرسله رحمة للذين استضعفوا فى الأرض لقلة المال كالمساكين ، أو لفقد العشير كالموالى ، أو لضعف النصير كالأرقاء ، أو لطبيعة الخلقة كالنساء ، فكفل الرزق للفقير بالزكاة ، وضمن العز للذليل بالعدل ، ويسر الحرية للرقيق بالعتق ، وأعطى الحق للمرأة بالمساواة .

والمستضعفون الذين رحمهم الله برسالة محمد لم يكونوا من جنس مبيّن ولا من وطن معين ؛ إنما كانوا أمة من أشتات الخلق وأنحاء الأرض اجتمع فيها العربى والفارسى والرومى والتركى والهندى والصينى والبربرى والحبشى على شرع واحد هو الإسلام ، وتحت تاج واحد هو الخلافة . والإسلام الذى يقول شارعه العظيم « لقد كرمنا بنى آدم » لم يخص بالتكريم لوناً دون لون ، ولا طبقة دون طبقة . إنما ربأ ببنى آدم جميعاً أن يسجدوا لحجر أو شجر أو حيوان ، وأن يخضعوا مكرهين لجبروت كاهن أو سلطان .

كان اليهود يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وسائر الناس سواء والعدم ! وكان الرومان يدعون أنهم حكام الأرض وما سواهم خدم ! وكان العرب يقولون إنهم أهل البيان وما عداهم عجم ! وكان الهنود يعتقدون أن الله خلق البراهمة من فمه والرجبوت من عضده والمنبوذين من رجله ولا يستوى الأمر بين رأس وكتف وقدم! وكان النظام الاجتماعى كله قائماً على الامتياز بالجنس أو بالدين ، وعلى السيادة بالنسب أو بالمال ، حتى جاء محمد اليتيم الفقير الأمى بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ؛ فأعلن المساواة بقول الله عز اسمه : « إنما المؤمنون إخوة » « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وأكدها بقوله صلوات الله عليه : « الناس سواسية كأسنان المشط » « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب » .

ثم كان الرقيق والمرأة شيئين من الأشياء لا يملكان ولا يتصرفان ، فضيق الإسلام حدود الرق ، وجعل كفارة الذنوب على الصدقة والعتق ، وسوى بين الرجال والنساء فى الحق والواجب .

ثم أعلن حرية العقيدة بقول الله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » واحترم عقائد أهل الكتاب ، وضمن لهم حرية العبادة وأمان العيش وعدل القضاء ، وأمر الولاة أن يرعوهم ويعطفوا عليهم ، وأوصى المسلمين أن يبرّوهم ويقسطوا إليهم . ثم أعلن الإسلام حرية الفكر والرأى فلم يقبل إيمان المقلد ولا حكم المستبد ، وأمر بالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، ووسع صدره لأهل السياسة حتى تعددت الأحزاب ، ولأهل الجدل حتى كثرت الفِرق ، ولرجال الفقه حتى تنوعت المذاهب . وسمح لأهل الذمة وأصحاب النِّحل أن يدعوا إلى أديانهم ويدفعوا عنها فى المدارس والبيع ، ونهانا ألا نجادلهم إلا بالتى هى أحسن .

ثم احترم الملكية وثبَّت لها الأصول ، ونظم المواريث ورتب عليها التعامل . وهذه هى جُماع الحقوق الطبيعية التى كفلها الإسلام للإنسان على اختلاف ألوانه وأوطانه وألسنته . أعلنها محمد بن عبد الله منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن ، والأمر يومئذ للجهالة ، والرأى للضلالة ، والحكم للطغيان ، فأنقذ بها الإنسانية من إسار المادية والعصبية والأثرة . ثم أكرمها ونعمّها وهداها الطريق المستقيم إلى نظام أكمل وعالم أفضل وحياة أسعد . ولكن الإنسانية واأسفاه أضلت هذه السبيل ! أضلها أولئك المنافقون الذين يعلنون لها اليوم هذه الحقوق ، وهم يسرون فى أنفسهم تأكيد الامتيازات وتأييد الفروق » .

تربية الضمير المسلم :

حرص الزيات فى كثير من كتاباته الإصلاحية النابعة من هدى الإسلام على إيقاظ الضمير لدى المسلمين وتقوية الوازع الذاتى الذى هو دعامة أساسية من

دعائم الأخلاق ، وركيزة لا غنى عنها لغرس معانى التراحم والتكافل والإخاء بين بنى الإنسان .

وقد سلك الزيات فى سبيل تحقيق هذه الغاية مسالك متعددة ونثر أفكاره الموحية بذلك فى مقالات متنوعة جاء بعضها فى معرض الزراية على قساة القلوب والأكباد من الأغنياء الذين لايشعرون بأن لهم إخوانا فى الوطن يعيشون معيشة الأنعام ويقاسون فنون الحرمان ، وبعضها فى معرض طمأنة القانعين من الفقراء المتعففين مبينا لهم أن الله عز وجل قد عوّضهم عن فقرهم وحرمانهم ألوانا من النعم منها الصحة والقناعة وطمأنينة الإيمان . وأحيانا يوازن الزيات بين ما عليه الحال فى مصر وبلدان العالم الاسلامى من غفلة الأغنياء وطغيانهم وقسوتهم على إخوانهم وجهلهم بوجوه البر التى ينبغى أن تبذل فيها أموالهم بما يحدث فى بعض بلدان أوربا من أعمال خيرية ينهض بها الأغنياء وأصحاب رؤس الأموال عن طواعية ورغبة قوية فى أعمال الخير التى يعم نفعها ويمتد أثرها كإنشاء المدارس والمصحات والملاجىء وغيرها .

وأعرض فى هذه الفقرة لمقتطفات من مقالات الزيات التى تؤكد ماسبقت الإشارة إليه .

كتب تحت عنوان « هل لأغنيائنا وطن » [1] يقول بعد افتتاحية المقال مجيباً عن تساؤله الحائر :

« الواقع الذى لامراء فيه أن ليس لأغنيائنا وطن ، إنما لهم قصور لإتلاف النعمة، ومزارع لعصر الفلاح ، وبرك لصيد البط ، وميادين لسباق الخيل ، وأندية لقتل الوقت ، ومنازه لإظهار الأبهة ... هل سمعت أن غنيا من الأغنياء أو أميرا من الأمراء قال إن له وطنا فتبرع له بطائرة فى الجيش أو بجائزة فى المعارف ، أو بكرسى فى الجامعة ، أو بمستشفى فى الصحة، أو بملجأ فى الأوقاف ؟ ...

ولئن سألتنى عن تعليل ضعف الوطنية فى هؤلاء الناس لأقولن لك إنى عنه

(١) وحى الرسالة ٢ / ٥٧ .

عاجز ... ومن الصعب على العقل أن يتصور أن أصحاب المجد وأصحاب السعادة لايجدون فى أنفسهم من الحب لمصر الحبيبة الخصيبة ، مايجده الإنسان الفطرى للغابة السليبة والبادية الجديبة » .

ثم يقول مؤكدا تقصير الأغنياء فى مصر وقعود همتهم واشتغالهم بصغائر الشهوات وتافه الملذات ، فى حين يعنى الأجانب الوافدون بشئون الاقتصاد والتجارة ، ويؤدون للوطن خدمات نافعة ليس بدافع الوطنية وإنما بدافع الكسب المشروع ، والجد المثمر ... يقول الزيات :

« يكاد النيل يعتقد أن أكثر الأجانب الذين يعيشون فيه ، خير له من أكثر الأغنياء الذين يعيشون عليه ! لأن أولئك يعاملونه معاملة الراعى الذى يحلب ويرعى ، وهؤلاء يعاملونه معاملة العَلق الذى يمتص ويهمل ، فأينما رأى التجارة والعمارة والإنتاج رأى ضيوفه ، وحيثما رأى الإسراف والإتلاف والتبطل رأى أهله ؟ .

ليتنى أدرى ماذا يقول الغنى الأصيل إذا نافره الأجنبى الدخيل أمام قدس الوطن ؟ أيقول له . هذه رءوس أموالى تنشىء الشركات وتقيم المصانع وتنمى الثروة! أم يقول له هذه (مشروعات) أعمالى تقر الأمن وتحيى البلاد وتقتل البطالة ! أم يقول له : هذه ثمار إفضالى تعزز الدفاع وتشجع الإبداع وتنشر الثقافة ! الله أعلم يومئذ أيهما يقول ذلك وغير ذلك ، وأيهما يقف ناكس الرأس خاضع الطرف عىَّ اللسان ، لايجرى على باله إلا أنماط الثياب وسلائل الكلاب وفصائل الخيل وطُرز السيارات وأندية القمار وحسان هوليود ! .

يظهر أن التفدية والتضحية والخدمة العامة إنما تكون أثراً لقوة الروح وصحة الخلق ، فإن أول من تطوع للجهاد شباب الأمة ، وأول من تبرع للدفاع رجال الدين ، فالحيلة فى أغنيائنا إذن هى حيلة الله . هو وحده الذى يملك أن يحيل فى النفوس عبادة المال عبادة للوطن ، ويجعل فى القلوب محبة النفس محبة للناس .

* * *

يا أغنياءنا إنما نريد أن نحبكم فساعدونا على خلق هذا الحب . إن ديننا ينهانا أن ننفس عليكم نعمة الله . وإن وطننا يمنعنا أن نضن عليكم بأخوة الوطن ، ولكن العقيدة والوطنية اللتين تحببانكم إلينا ، هما كذلك اللتان تغضباننا عليكم! لأن الأمة تريد أن تقوى وفى نفوسكم قوتها ، وتبغى أن تعتز وفى رءوسكم نخوتها ، وتحاول أن تدافع وفى أيديكم ثروتها ، فحرمتموها كل ذلك ووضعتموه فى غير موضعه ، وأضعتموه فى غير سبيله ، ثم مكنتم للجهل والفقر والمرض أن تدهمها من كل جانب ، فقعد القوى لجهله عن السعى ، وفتر العالم لفقره عن البحث ، وعجز الضعيف لمرضه عن الإنتاج » .

وفى مقال « العقيدة الساذجة » الذى سبقت الإشارة إليه يعرض الزيات صوراً من الفهم السقيم للدين وموات الضمير لدى بعض الأدعياء .. فيقول :

« تذكر معنى الزكاة فى دين الله ثم قل لى أين منها ما كان يصنع أحد شيوخ الأزهر ، وقد كان يملك فى القاهرة شوارع بما عليها من البنى عن شمال ويمين . لقد حدثوا أنه كان يجعل زكاة ماله كلما حال الحول فى قفة ، ثم يغطى الذهب والفضة بطبقة من الحنطة ، ثم يأمر فيأتونه بأحد المساكين الذين يتكففون على حاشية الطريق ، فإذا أدخل عليهً قال له :

« هذه زكاتنا يارجل آثرناك بها ابتغاء مرضاة الله » فيدعو المسكين ويهم بأخذ القفة ، ولكن الشيخ قارون يريد أن يخفف عنه ويختار له فيبادره بقوله : « وماتصنع بها يا رجل وليس عندك من تطحن وتعجن وتخبز ؟ أتبيعنى إياها بكذا قرشا ؟ » فيلهج المسكين بالدعاء ، ويبالغ فى الحمد والثناء ثم ينصرف بالقروش وتعود مئات الدنانير المروعة آمنة إلى صدر الخزانة الحنون !! » [1] .

ثم يسرد الزيات بعد ذلك خبر أحد زعماء الشيعة الهنود الذى زار ضريح الإمام على كرم الله وجهه بالعراق ولما عاد إلى الهند شرع فى إقامة ضريح رغب فى أن يكون مضرب الأمثال واستقدم لذلك أمهر الصناع ، فصنعوا ضريحا من الأبنوس ثم زخرفوه بروائع النقش الهندى ، ورصعوه بخمسة عشر رطلا من الذهب وبمثلها من

(١) وحى الرسالة ٢ / ١٩٧ ، ١٨٠ .

الفضة حتى بلغت تكاليفه نحو اثنين وأربعين مليون جنيه ... ويعقب الزيات على تلك الحادثة بقوله :

« فهل نحسب أن هذا المؤمن الساذج قد بلغ بما أنفقه مكانة الزلفى من الله وموضع الرضا من إمامه ؟ لا والله ! إن الله الذى يقترض من عباده القرض الحسن ليضاعفه لهم لايقبل هذا القرض العقيم . وإن الإمام الذى كان يطوى الأيام ليطعم على حب المسكين واليتيم .والأسير ، لايرضى هذا الإحسان الميت.. »[٢] .

تخلف المسلمين وابتعادهم عن حمى الاسلام :

يربط الزيات العديد من أدواء المجتمعات الاسلامية بغفلة المسلمين عن شرع الله وابتعادهم عن حماه الحصين وسياجه المكين ، ويرجع ما أصابهم من فرقة وضعف وهوان إلى ضلالهم وجريهم وراء الأهواء ، وضعف الوازع الدينى لدى الكثرة الكاثرة منهم ، وتفشى الجهل والخرافات بينهم وزيغهم عن جوهر عقيدتهم الصافى ومنهل شفائهم المرجو .

وهذا الجانب فى فكر الزيات الاصلاحى يسير فى اتجاه واحد مع جهوده فى تبصير المسلمين بعظمة الإسلام وصلاحية حلوله ، وجدارته بإسعاد البشرية على امتداد العصور وتباين الأجناس والشعوب .

وبهذين الجانبين المتلازمين يكتمل فى مقالات الزيات الاصلاحية منهجه القويم فى التبصير بأهمية الدور الذى تضطلع به أحكام الاسلام وآدابه فى تخليص الانسانية من أدران الظلم وقسوة الجحود وسورة النوازع الدنيا التى يكمن فى خباياها فظائع الحروب وجرائم الاستعمار ونعرات العنصرية ورذائل الاستغلال .

كتبت تحت عنوان « يوم الجمعة »[٢] يشرح خواطره المكروبة لما يراه من

(١) المرجع السابق ٢ / ١٨١ .

(٢) وحى الرسالة ١ / ١٢٦ .

ظواهر تقصير المسلمين وضعف الوازع الديني في نفوسهم وانعكاس ذلك على سلوكهم في يوم عيدهم الأسبوعي موضحا السمة الغالبة على حياة الأسرة المسلمة في ذلك اليوم في مقابل حال كل اليهود والنصارى في الاهتمام بعيدهم الأسبوعي يقول الزيات :

« كان أمس يوم الأحد ، ومن قبله كان يوم السبت ، ومن قبلهما كان يوم الجمعة ؟ ثلاثة أيام تتعاقب في مدار الأسبوع تعاقب الجياد في مضمار السبق يحمل كل منها في رأسه عَلم دولته ، وعلى صدره عنوان ملته ، ويشرق على قومه في المسجد أو في الكنيس أو في الكنيسة إشراق الحب في الفؤاد الغرير ، أو الإيمان في النفس الرضية ، فيؤلف ما نفر من القلوب بالمودة ، ويعود بما شرد من النفوس إلى الجماعة ، ثم يكون في البيت مصدر أنس وبهجة ، وفي المدينة مظهر استقلال وعزة . ولقد كان فيما سلف من مؤاتاة الدهر شأن يومنا في الأيام ، كشأن قومنا في الأقوام . صدارة يكنفها جلال ملك ، وإمارة يسندها سلطان دين ، وعيد يأتلق جماله في كل مكان وفي كل نفس ، وفترة تحدد للناس مواقيت العيش ومراحل الزمن . وكان له في أدب الدين قواعد مقررة كالاغتسال والتطيب واتخاذ الزينة وشهود الجماعة ومودةً القربى وصلة المساكين وترفيه البدن بالراحة ، وتطهير النفس بالعبادة ، وإعلان مجد الله بإعزاز دينه ، وسلطان الشعب بإعلاء أمره . ولم يكن السبت والأحد يومئذ إلا شعاعاً لضوئه واتساعاً لمداه ؟ .

ثم غيرنا فغير الله ، فإذا بالتابع يأخذ المهلة [1] على المتبوع ، وإذا يوم الجمعة يصبح طرفاً في ذيل الأسبوع ، فلا تخشع له أسواق العالم كيوم السبت ، ولاتسكن له حركة الدنيا كيوم الأحد ، ولا يبقى له من الرعاية عند أهله إلا إغلاق دور الحكومة في وجهه ؟ .

أستعرض هذه الأيام الثلاثة بالاعتبار والموازنة تجد كلا منها صادق الدلالة على حال أهله ؟ فيومنا يجيء كما ترى خافض الجناح خافت الصوت حائل اللون

---

(١) أخذ عليه المهلة : سبقه .

مخضود الشوكة مغموط الحق ، لايدخل فى حساب الناس ، ولايقدم ولا يؤخر فى حياة المجتمع ! .

فمنظره الدينى تضاءل حتى صار صلاة عادية لا يقيمها إلا القرويون الطارئون على المدينة ، والحضريون الفارغون من العمل ! .

ومظهره المدنى انحصر كما قلنا فى عطلة الحكومة : ومن المؤونة[1] المعجزة أن تطلب العطلة وما يتبعها عند غير الحكومة ؛ فإن جمهور الشعب إما تاجر يتبع فى نظامه البنوك الأوربية ، وإما عامل يخضع فى عمله لرءوس الأموال الأجنبية : فلم يبق إلا الموظفون الرسميون وهم وحدهم الذين يستطيعون بما تهيأ لهم من اليسر والفراغ إحلال هذا المظهر وأعلان هذه الشعيرة . فتعال ننظر كيف ينقضى هذا العيد فى بيت الموظف ! .

فى البيت الذى ألهمنى هذا المقال أسرة مسلمة عميدها موظف كبير ، وأسرة يهودية كاسبها تاجر صغير ؛ وأسرة مسيحية عائلها مستخدم وسط .

ففى يوم السبت ينبعث فى المسكن اليهودى تاريخ إسرائيل بأساطيره وتقاليده وعقائده ؛ فالتوراة تتلى ، والصلوات تقضى ، والذكريات تستيقظ والمجارى الروحية تتحدر من الأجداد إلى الحفدة فتوثق الروابط وتجدد القوى وتهون العظائم ؛ ثم تخرج الأسرة بأسرها فى زينتها وبشرها فتتناول عشاءها فى مطعم سامر ، وتقضى أمسيتها فى ملهى ساهر .

* * *

وفى يوم الأحد يحول المسكن المسيحى إلى عرس أنيق مترف : فالأسرة تعود من القداس فى ألوان الزهر وأفواف الوشى ، والغرف تضحك من طلاقة النفوس واتساق الأثاث ، والمائدة المزهرة تحفل بأفانين الشراب السائغ والطعام الهنىء ، والبيان الفخم تحت الانامل الطفلة يقطر بالنغم العذب واللحن البهيج والفتغراف

(١) المؤونة : الثقل والشدة والتعب .

يدور بأناشيد الرقص فيمسى البهو بالزائرين والزائرات أشبه بأعشاش الربيع كله مناغاة وهديل وهزج ؟ .

* * *

وفى يوم الجمعة يصبح المسكن الإسلامى عابساً كالكهف ، ساكناً كالمقبرة (فالبك) قضى ليله سهران فهو نائم نومة الضحى ! فلا تسمع حساً ولا حركة إلا صوتاً شديد الخفوت يستعين بالإشارة على أن يهمس الحين بعد الحين فى أذن الطفل :

ـــ هس ؟ خفض من صوتك ؟ خفف من مشيك ؟ لا تلعب بهذا ، لا تعبث بذاك . أبوك نائم ؟ .

(والبك) يأخذ حمامه الأسبوعى الحار فيشغل الحمام ساعتين ؟ فتمضى الظهيرة والفتاة لا تستحم والعجوز لا تتوضأ ؟ .

(والبك) مدعو إلى العشاء عند بعض الأصدقاء ، فالمطبخ بارد هادىء ، وطعام اليوم بقية طعام الأمس ؟ .

(والبك) يتهيأ للخروج ، فالأسرة كلها فى خدمته : هذه تنظف البدلة ، وتلك تمسح الطربوش ، وهذا يذهب برباط الرقبة إلى الكواء : وذلك يستعجل الخادم بالحذاء ، وأخيراً يخرج البك ؛ فيتنفس البيت الصعداء ؛ ويستروح المكروب نسيم الرخاء ؟ .

وهكذا يمر عيد الأسبوع على هؤلاء القوم وهم يقولون :

يا الله ما أثقل روح هذا اليوم ! » .

وكتب الزيات تحت عنوان « أين المسلمون اليوم من الاسلام »[1] مقالا جامعا حشد فيه خلاصة فكره فى صلاحية المبادىء الاسلامية لإسعاد البشرية وأبدى حسرته وقلقه على واقع المسلمين المزرى وابتعادهم عن منهج الله الذى شرعه لهم

(١) المرجع السابق ٤ / ٩٧ .

فتفرقت بهم السبل فى مفاوز الضلال وتبدل حالهم بانحرافهم عن دينهم الذى ارتضاه لهم خالقهم عز وجل .

يقول : « أصبح من المعلوم فى بدائه العقل الحر أن الدين الإسلامى هو الصورة الكاملة لشرائع الله ، والقوة المهذبة لقوانين الطبيعة . وضع فيه شارعه الأعظم وهو فاطر الأرض ، وواهب الحياة ، ومنزل الوحى ، أسس القواعد التى تكفل للعالم نظامه وسلامه ، وللمجتمع وحدته وقوته ، وللفرد سعادته وكرامته ، مهما يتطاول الأمد وتتغير الحال ، ومن غير الله جلت قدرته يفجّر نور الهدى للأرض من غار مظلم موحش ، ويبجس نبع الحياة للناس من جبل مجدب وعر ! وهل كان لولا وحى الله فى غار حراء من جبل النور ، وفى مقدور أمى نشأ ربيب اليُتم والعُدم فى قرية جاهلة من قرى الحجاز المقفر ، أن يعلن فى أوائل القرن السابع حقوق الإنسان وحرياته ، وهى الحقوق التى أعلنت بعضها فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر بعد الثورة ، وأعلنت بعضها أمريكا فى أواسط هذا القرن بعد الحرب !

وما كان لبشر سليم الفطرة أن يستريب فى أن الدين الذى أكمله الله لنبيه ، ورضيه لخلقه ، ونسبه إلى نفسه ، هو وحده مصدر الخير المحض ، ومظهر الكمال المطلق ، وسبيل الغاية التى يجد عندها ابن آدم المكدود نفَساً من كربه ، وراحة من تعبه ، وسكينة من اضطرابه ؛ تلك الغاية التى كان يراها ، منذ هبط العاصى من الجنة ، حداً لشقائه ونهاية لألمه ، فكان يتشوف إليها من وراء الغيوب ، ومن خلال القرون ، فلا يراها ، لا فى الحروب التى شن ، ولا فى النظم التى سن ، ولا فى الشرائع التى اعتقد ، حتى أراد الله للاغب الضال أن يهتدى ويسترفه ، فكان محمد هو المنار ، وكان الاسلام هو المرفأ ! .

إن من المبادىء التى ميزت الإسلام التوحيد وهو سبيل القوة ، والاخاء وهو سبيل التعاون ، والمساواة وهى سبيل العدل ، والحرية وهى سبيل الكرامة ، والبر وهو سبيل المحبة ، والسلام وهو سبيل الرخاء . وكل هذه المبادىء معلومة من القرآن بالنصوص الصريحة ، فلا موضع فيها لتأويل أو تحميل أو تعسف . وهى كما ترى تضمن أفضل ما فى الديمقراطية ، وأعدل ما فى الاشتراكية ، وأجمل ما فى

المدينة ؛ فهى حرية أن تصلح ما فسد من أمور الناس ، وأن تقيم ما أعوج من نظام الدنيا . وقد كانت كذلك يوم كان لحماتها دولة ، ولدعاتها صوت ، ولمعتقديها يقين . فلما دالت الدولة ، وخشع الصوت ، وأراب اليقين ، تمزق المسلمون قطعاناً فى فدافد الأرض ، لا مرعى يجود ، ولا راع يذود ، ولا حظيرة تؤوى . ثم كانوا بتخلفهم عن ركب الحياة حجة على الإسلام فى رأى السفهاء من مرضى الهوى أو الجهل ، فصموا عن دعائه ، وعموا عن ضيائه .

أين المسلمون اليوم من إسلام عمر وخالد فى الحجاز ، والرشيد والمأمون فى العراق ، والناصر والحكم فى الأندلس ، والعزيز والحاكم فى مصر ؟ ألم يبلغ هؤلاء بفتح الجيش وفتوح الدين وفتوح العلم وفتوح الخلق من السلطان والعمرآن مالم تبلغه أمة من قبل ، فنزل على حكمهم الدهر ، ودخل فى ملكهم العالم ؟ .

إن الدين الذى رفع هؤلاء السادة والقادة إلى الذروة ، وضمن للخلافة فى عهودهم العزة والمنعة والقوة ، لايزال هو الدين الذى لايغيره الزمن ، ولا تجافيه الطبيعة ، ولا يعاديه العلم ، ولا تنسخه المذاهب ، وإنما الأمر فيه كما قال الرسول صلوات الله عليه ؛ مثل ما بعثنى به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، كان منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى ؛ إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ » .

والمسلمون اليوم هم هذه القيعان ، تحدرت إلى ما ركد فيها من سلسل الوحى عكارات المذاهب الطارئة ، ورواسب العقائد الخاطئة ، فكان منها ذلك الخلط العجيب الذى يعوق عن السعى ويمنع من النظر ويصد عن الفكر . ثم كان من أثره أن نرى اليوم مواطن العروبة والإسلام ، مراكش والجزائر وتونس وليبيا ومصر وفلسطين وسورية والعراق وإيران وباكستان والصين وأندونيسيا وسائر جزر الهند الشرقية ، قد أصبحت نهباً مقسماً بين دول الاستعمار يتنازعون فيه ، ويتقاتلون

عليه ، وليس من أهلها من يقول فيسمع قوله ، أو من يفعل فيخشى فعله ، وإنما هم أشياء كثروة الأرض ، خسارة على المغلوب وربح للغالب .

لقد تغيرت عقائد الإسلام الحرة النقية فى نفوس الكثرة من المسلمين كما يتغير الشراب الخالص فى الإناء القذر ! انحلت الأخلاق فلا تماسك فى قول ولا فعل ، وتقاطعت القلوب فلا تتواصل فى دين ولا وطن ، واستأثرت النفوس فلا تعف فى صداقة ولا نسب ، واستبهمت المذاهب فلا تستبين بنجم ولا شمس ؛ وأصبحت غاية الدين فى رأيهم مظاهر من العبادة لا تخدع ، وظواهر من البدع لا تنفع ، وأقاويل من الوعظ لا تدل .

من يصدق أن المسلمين اليوم يفقهون القرآن حق الفقه ، وهو الكتاب المبين الذى يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويهديهم إلى صراط مستقيم ، وكل انتفاعهم منه أن يحملوه للحفظ كما تحمل التمائم ، وأن يقرءوه للبركة كما تقرأ الأوراد ، وأن ينشدوه للطرب كما تنشد الأغانى ؟ .

من يصدق أن المسلمين اليوم يقدُرون الرسول حق القدر ، وهو الذى قال فيه أصدق القائلين : « وإنك لعلى خلق عظيم » وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » وكل ما يمدحونه به أن يرفع المؤذن عقيرته فى الأذان بالصلاة على « مليح الوجه » وأن يتغنى منشد سيرته المطهرة بحمرة خديه وسواد عينيه ، كأن الصباحة والوسامة والرواء هى كل ما يمتاز به محمد نبى التوحيد والوحدة ، ورسول السلام والمحبة ، وداعى الحرية والكرامة ! لقد أنف عبدالملك بن مروان أن يمدحه ابن قيس الرقيات بقوله :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فقال : وماذا من الفضل فى تألق التاج ونصاعة الجبين ؟ هلا مدحتنى بمثل مامدحت به مصعب بن الزبير إذا تقول فيه :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

ثم حرمه عطاءه العمر كله . والفرق بين فضل الرسول وفضل الخليفة كالفرق بين الجبل والذرة ، أو بين الشمس والشرارة ! .

من يصدق أن المسلمين اليوم يؤمنون بالاسلام وفيهم من يؤمن بالشيوعية وأهلها يزعمون أنهم أعلم من الله بأحوال خلقه ، وأعدل منه فى تقسيم رزقه ، ثم يقولون بكل وسيلة من وسائل القول : كل شىء مشاع ، وكل أمر مباح ، وكل إرادة طليقة ! والمسلمون يسمعون هذه الأضاليل تبث فى الاذاعة ، وتنشر فى الكتب وتردد فى المجالس ، فيرهفون لها سمع الغبى ، وتدفعهم شهوة الاباحية إلى أن يشتروا الضلال بالهدى ، ويستبدلوا الخبيث بالطيب ، ويؤثروا أن يكونوا كالذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم .

والعلة فى كل أولئك هى الجهل التام والعلم الناقص . فلو أن المسلمين اعتقدوا ربهم اعتقاد المؤمن،وفقهوا دينهم فقه المقتنع،واتبعوا رسولهم اتباع المصدق،لما أصبحوا فى الحال التى تنبأ بها الرسول صلوات الله عليه إذ قال : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن » . فقال قائل : أو من قلة نحن يارسول الله يومئذ ؟ قال : لا ، إنكم حينئذ لكثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ! فقال قائل : وما الوهن يارسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهة الموت » .

* * *

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحلق ، ولايكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ؟ » .

بلى ، والحمد لله قد أنى للمؤمنين أن يكشفوا عن العيون غشاوة الباطل ، ويجلوا عن القلوب صدأ الغفلة ، فيبصروا الطريق ويستبينوا الغاية . وإن فى يقظة الوعى الإسلامى التى بدت فى تعاطف المسلمين على البعد ، وتناصفهم فى القرب ، وتحالفهم على الأحداث ، لأشعة من تباشير الصباح ، قبلها الليل المظلم ، وبعدها

النهار المشرق . ولعل الأزهر وحده هو الذى يملك أن يقوى هذا الوعى ويوجه هذا الشعور إذا عمر الصدور بالإيمان الخالص عن طريق التعليم فى المدارس ، والوعظ فى المساجد ، والنشر فى الصحف ، والحديث فى الاذاعة ، والنظر قبل ذلك كله فيما يقرأ المسلمون من كتب ، وفيما يقمش المموهون من بدع ، فإن تنقية الدين مما علق به ودس فيه تكشف للناس عن جوهره وتصلهم بروحه . والقتام يحجب الشمس ، والقذى يفسد الشراب . وإن الماء إذا راق ساغ ، وإذا ساغ روى » .

الباب الثالث

الظواهر الفنية
للمقال الاجتماعى عند الزيات

الفصل الأول : الفكـــرة .

الفصل الثانى : العاطفة .

الفصل الثالث : قيم التعبير .

الفصل الرابع : المقالات فى الميزان .

تمهيـــد :

النتاج الأدبى المتميز حصيلة خصبة لتجارب وخبرات تتداخل وتتكامل وتتضامّ لتعكس صورة كاشفة عن معدن الأديب وأبعاد موهبته ، ومدى إمكاناته ، والكاتب ذو الموهبة الأصيلة ، والثقافة الوسيعة ثروة إنسانية نفيسة ، يمتّد عطاؤها جيلا بعد جيل ، ونتاج أولئك الرواد الكبار زادٌ معنوى ، ورصيد فكرى يتعدى فى أهميته وبُعد أثره حدود الزمان والمكان ، ويبقى دوما مثالا ناطقا على قدرة المدبّر الأعظم ـــ وهو الله عز وجل ـــ الذى يمنح من يشاء من عباده فيوضاً من عطاءاته ، ويسبغ على المصطفين منهم أقباساً من إلهاماته ، فتتحدر على أقلامهم ، أو تجرى على ألسنتهم آيات السحر ، وروائع البيان .

ومن هؤلاء الموهوبين أديبنا الزيات الذى درج ـــ شأن كثيرين من رواد جيله فى ربوع الريف ، وخطا خطواته الأولى على دروبه المعطاءة ، فوعت نفسه الصافية صور الحياة من حوله ، واختزنت مخيلته اللماحة قسمات البيئة ، بما اشتملت عليه من ألوان البؤس ، ومجالى السرور ومظاهر الفطرة البريئة ، التى لم يدنّسها زيف ولم تغلفها ستور الملق المتكلّف ، أو الزهو المصطنع ثم اتسعت بعد ذلك معارفه وثقافاته ، وتجاربه وأسفاره ، وعرف كيف يختار طريقه فى الحياة ، واجتهد فى تحقيق «رسالته» التى امتلأت بها نفسه ، واعتدّها دَيْناً فى عنقه يطالبه به أهله ووطنه وعقيدته ، فكرّس لها زهرة سِنىّ عمره وأنفق فى سبيلها « رصيده » كله ، ولقى ربّه راضياً ، قرير العين ، بما بذل وحقّق ، وأعطى وأنفق ، ومهدّ وهيّأ ، وأفاض وأبدع ، فى شتى ميادين التنوير والإصلاح ، والنضال الموصول بغية تحرير وإبراز المثل العليا ، والمبادىء السامية والأخلاق الفاضلة ، والجهد الجهيد لإنقاذ صرعى الظلم والقسوة ، وفرائس الجهل والغفلة ، وطرائد البوس والفاقة ، والحرب الشريفة لفضح عبيد اللهو واللذة ، وهواة التسلط والسطوة ، وأدعياء العلم وذوى

الذمم الخربة ، والنفوس المريضة ، والعقول الجوفاء ، وأشباه العلماء ، والرواء الخادع، والبهرج الزائف .

وحسب الزيات أنه أسهم بقلمه الثرّ فى كل تلك الميادين ، ووضع الأساس القوى للنضال الفكرى ، والاصلاح الاجتماعى ، عن طريق الأدب العالى ، والمعالجة المتعقلة ، التى يترفع فيها عن السفولية والتشهير ، أو المجاملة والإغضاء ، فأبرز ملامح كتاباته : استقلال الرأى ونزاهته ، ووضوح الرؤية ، ونبل الغاية . يضاف إليه — أو يأتى من قبله — قوة الحجة ، وروعة الأسلوب ، وبراعة الأداء ، التى تكفل لما يقوله أو يسطّره أثرا عميقا فى النفوس ، وصدى هائلا فى الفكر والشعور ، وتعاطفا قويا مع آراء الكاتب ، والتفاتا متزايداً حول مايدعو إليه ، وقناعة تزداد على الأيام رسوخاً وشموخاً ، فتغدو أملاً يراود الجميع وغاية يسعى لها الكافة ، وذلك أقصى مايرجوه الداعية ، وأنجح مايرومه المصلح ، وأعظم ما تصبو إليه نفوس أرباب البيان ، وعباقرة أصحاب الأقلام .

وقد رأينا فى الفصول المتقدمة ألوان الكفاح الاجتماعى الذى عالجه الزيات ، وأبعاد القضايا التى نالت جانبا بارزاً فى مقالاته ، ونتناول فى الفصول التالية بشىء من البسط والإيضاح ملامح البراعة فى أدائه الفنى ، الذى كان بلا ريب أحد الجوانب المهمة فى ذيوع أفكاره ، وإقبال جمهور المثقفين والقراء عليها ، وتأثرهم البليغ بها .

الفصل الأول

الفكـــــرة

حرص الزيات فى تصميم مقالاته على إبراز فكرته ممهداً لها فى بدايته المقال أو مقدمته ، ثم يفيض بعد ذلك فى شرحها وبسط جوانبها ، وإيراد الشواهد على صوابها فى العرض ، وينهى المقال بإيجاز النتائج المتوخّاة من فكرته ، والأهداف التى يقصد إليها فى الخاتمة .

فمقالاته فى الأعم الأغلب مكتملة البناء دقيقة التصميم واضحة الهدف ، مبلورة النتائج ، وذلك من أهم أسباب نجاح مقالاته وذيوعها لما تنطوى عليه من قيمة إصلاحية وما تحمله من دور تهذيبى ، وما يعقد عليها من آمال فى التنوير والتوجيه .

وبهذه المقومات اكتملت لكتابات الزيات الاجتماعية أسباب البقاء ، فأكب القراء والمحللون عليها ، وحرصوا على الانتفاع بما حشد الكاتب فيها من أفكار بناءة وتأملات صائبة وتحليلات مستفيضة لكثير من مشكلات الحياة وقضايا الفكر الإنسانى على اتساع مداه وتشعب ميادينه .

ولعل هذه الأهمية هى التى حفزت الزيات على أن يجمع تلك المقالات فى مؤلف يضم شتاتها وييسر للقراء الإفادة بما تحويه من آراء وما تشتمل عليه من ملاحقات وتأملات لها أهميتها وقيمتها ، فضلا من أنها تمثل حصيلة فكره ونتاج قريحته وعصارة عقله وشعوره على امتداد عشرين عاماً من الدأب والمعـــاناة ، لم يدخر فيها الكاتب جهدا فى سبيل « الرسالة » الإصلاحية التى كرس لها حياته وفكره وبذل فى أدائها أكرم بذل وأعطى أنبل عطاء . فكانت « رسالته » مدرسة

ثقافية عظمى بل جامعة أفاد من إشعاعها الفكرى كثيرون من المثقفين وجمهور القراء .

وللفكرة فى مقالات الزيات ملامح متميزة وقسمات بارزة من أهمها :

الترتيب — المنطقية — الوضوح — العمق — الشمولية . وباجتماع هذه الخواص تكتمل لأفكار مقالاته عناصر البناء العقلى للمقالة ، فى حين يصحبها عناية بعناصر الأداء التعبيرى كما سنرى فى الفصول التالية . ولكننى سأقتصر هنا على تناول ملامح التصميم العقلى للمقالة عنده مستعرضا الشواهد التى توضح كل ملمح منها .

الترتيب :

وأعنى به ترابط عناصر الفكرة العامة التى تقوم عليها المقالة ، وتسلسل جزئياتها بحيث تؤدى كل جزئية دورها فى إبراز الفكرة الأساسية ، وتتعاون تلك الجزئيات لإقناع القارىء بالمضمون الذى يهدف إليه الكاتب فيبدو من خلال ترتيب جزئيات الفكرة العامة واضحا جليا لا التواء فيه ولا انفصال بين حلقاته .

وسأعرض مثلا لذلك مقال « القرية أمس واليوم » [1] فإننا عندما نحلل عناصر التصميم العقلى له تتضح لنا الحقائق التالية :

أولاً : الفكرة العامة فى المقال تدور حول : تردى أوضاع أهل القرى فى مصر مقارنا بحالهم فى الماضى وحال إخوانهم أهل المدن فى الحاضر .

ثانياً : بنى الزيات الفكرة العامة لهذا المقال على أفكار جزئية تؤلف فى مجموعها الفكرة العامة وهذه الأفكار الجزئية هى :

(ا) الكساد الذى تعانى منه القرية ممثلا بشكل واضح فى انهيار أسعار القطن وهو السلعة الرئيسية التى يعتمد عليها عامة القرويين فى تدبير متطلبات عيشهم وشئون اقتصادهم فى كل عام .

---

(١) وحى الرسالة ١ / ٦٥ .

(ب) المفارقة الواضحة بين حياة القرويين بما تحفل به من بؤس وحرمان وحياة سكان المدن الذين تتيسر لهم كل أسباب الراحة والتنعم .

(جـ) خطورة هذه الحالة التى تعانى منها القرية المصرية على المجتمع كله بحسبان أن القرية هى مفتاح الخير والنماء للمدينة لأنها مصدر الغذاء والكساء والثراء الذى تستمد منه المدينة مقومات ازدهارها ونعيمها .

وتتلاقى هذه الجزئيات كلها لتؤدى الغاية المستهدفة من المقال وهى ضرورة الاهتمام بنهضة القرية والعمل على رفع المعاناة عن أهلها لتظل رافدا يتدفق بالخير على الوطن كله لأن إهمال القرية سيؤدى فى النهاية إلى فقدان عنصر مهم من عناصر العمران والازدهار الذى تقوم عليه حياة المدينة .

وعنصر الترتيب واضح فى هيكل الفكرة العامة لهذه المقالة ، فقد بدأ الزيات بجزئية تمهد للفكرة العامة وهى إيضاح مدى البهجة والنشاط الذى كان يسرى فى كيان القرية بإقبال موسم جنى القطن وكيف كان استبشار الكبير والصغير به والآمال التى يعلقها عليه هؤلاء وهؤلاء ، وكيف كان ذلك الموسم يرتبط فى أذهان الجميع بتحقيق الغايات وبلوغ الأمانى ، فالثياب تتجدد والديون تقضى والأعراس تقام وشمل الأحبة يلتئم ، وتجار المدن يغدون على القرى ويتدفقون ...

ثم انتقل إلى الجزئية الثانية التى تكمل بصفة أساسية الفكرة العامة فوصف صورة الكساد العام الذى أحاط بحياة القرية تبعا لكساد سوق القطن فأصبح ذلك المحصول الذى كان مناط الرجاء ومعقد الأمل ، مبعثا للأسى ومصدراً للمعاناة ، إذ صارت تكلفته أفدح من عائده ، وموسم جنيه نذيراً بالشؤم والهم ومطالبة الدائنين وإلحاح المرابين ومطاردات « المحضرين » .

ثم تأتى الجزئية التالية فى موضعها وترتيبها الطبيعى ، فبعد أن أوضح الزيات فى الجزئتين الأوليين حال القرية المصرية بين أمسها ويومها مع محصولها الرئيسى ، انتقل فى إطار فكرته العامة مبينا ألوان المعاناة التى يتعرض لها أهل الريف ويرزحون تحت نيرها القاسى ، فبيوتهم مهملة لاحظ لها من النظام ، ولا تتوفر لها ألزم

مقومات المسكن اللائق بالانسان فى عصر المدنية والتحضر ، فلا مرافق نظامية ، ولانظافة تكفل مراعاة بدهيات الصحة العامة ، ولا مياه نقية ، ولا كهرباء ، ولا طرق تيسر الانتقال ، ولا عناية بالبيئة ، بل جهل متفش ، وأمراض مستشرية ، وأوبئة فتاكة ، والناس يواجهون ذلك كله دون عون أو توجيه ، وكأن هذه القرى لاتعنى القائمين على أمر الوطن فى شىء ، ولا علاقة للأغنياء المترفين بها إلا من حيث استحلاب جهد المسخرين فيها لخدمة السادة أرباب الإقطاعات المترامية ، التى امتلكوها واحتكروا خيرها ، واستغلوا ما عليها ومن عليها أبشع ألوان الاستغلال .

ثم تأتى بعد ذلك الجزئية التالية وهى تصوير حياة الوادعين فى العواصم والمدن لإبراز عنصر المفارقة الصارخة بين حياة القلة المستغلة على حساب الكثرة البائسة.

وفى النهاية تبرز النتيجة المؤلمة التى يريد الزيات أن يحذر من أخطارها وهى أن استمرار هذه الأوضاع المنكوسة سينعكس حتما على المدينة على أساس أن القرية هى مصدر ازدهار المدينة واستقرار كيانها واتساع أبهتها فهى التى تمدها بمصادر الغذاء والكساء ومقومات العمران .

وهكذا نرى البناء الفكرى أو « التصميم » العقلى للمقال دقيقا مرتبا تسلم كل جزئية فيه إلى التى تليها ، وتأتى فى موضعها ونسقها الصحيح دون أن يفقد القارىء حلقة من سلكها المنظم ، وبنيتها المتصاقبة .

المنطقية :

وأعنى بها قيام الفكرة العامة على حقائق مسلمة ومقدمات لايرتاب فى صوابها ومطابقتها للحقيقة عقل ، ومن ثم تكون اللبنات الأولى للفكرة مسلمة للكاتب ويكتمل لمقاله عنصر الإقناع والتشويق ، فيتعاطف القارىء مع الكاتب ويتابع فكرته ويتأثر بمضمونه .

والظاهرة الواضحة فى مقالات الزيات عامة والاجتماعية منها خاصة أنها مبنية فى الأعم الأغلب على مسلمات وحقائق منها ما هو من قبيل الحقائق المطلقة . ومنها ماهو من قبيل الواقع الملموس ، وبهذه المنطقية تكتسب أفكار الزيات الاصلاحية بعداً خاصاً ، وتحتفظ لنفسها بقدر مهم من المصداقية ، وصوابية التأمل والاستنتاج ، وهذا الأساس الذى بنى عليه الزيات أفكاره وآراءه فى مقالاته المتنوعة يكشف عن أصالة الرجل وصدق معاناته لما يكتب ، فلم يكن يسطر ليملأ فراغا أو يؤدى وظيفة مكلفا بها كما نرى فى كتابات كثيرين من المقاليين فى الآونة الأخيرة ، بل يكتب لأن لديه فكرة|مقنعه ورأياً سديداً وتأملاً دقيقاً للظاهرة التى يدير حولها مقالة .

ولعل أخطر ما تعانيه صحفنا ومجلاتنا فى الوقت الحاضر يعود فى الأساس إلى أن أكثر الأفكار المثارة بها مبنى على مقدمات متهاوية وأسس منهارة ، ومن ثم تُحدث خلطا وتشويها لأفكار الناس ، وبلبلة محيرة ، وتتفاقم آثارها الضارة عندما يبنى عليها الآخرون أفكاراً جديدة فتتفاقم الأخطاء وتستشرى الأباطيل ويلبس الباطل مسوح الحق ، وتختلط المفاهيم ، وتضيع فى غمار ذلك كله ثمرة الكتابة النافعة والتوجيه السديد .

ولو عدنا إلى مقال « القرية أمس واليوم » الذى سبق لنا تلخيص فكرته العامة لوجدنا أن منطقية الفكرة فيه مستمدة من مطابقتها للواقع الذى عايشه الكاتب ولمسه معه القارىء ، فهو يحدثه عن وقائع يعرفها ، وحقائق يمترى فى صدقها وليس للكاتب فيها سوى عرضها وتسليط الأضواء عليها ، ثم استخلاص العبرة التى يود التأكيد عليها والخطر الذى يحذر من تفاقمه ، وهو يتمثل كما أسلفنا فى إهمال القرية وترك الاهتمام بشئونها والاقتصار على الاهتمام بالمدينة وتوفير الخدمات ووسائل الراحة لها .

الوضـــــوح :

وهو سمة لازمة من سمات الفكرة فى مقالات الزيات الاجتماعية ، وهى نتيجة

طبيعية للتأمل واستواء الفكرة ومنطقيتها ، وكان الزيات فريداً بين كتاب المقالة فى الحرص على ذلك الوضوح . ولاريب أن وضوح الفكرة للقارىء يأتى انعكاساً لوضوح الفكرة لدى الكاتب واكتمال عناصرها فى تفكيره ، ومكمن الغموض فى أفكار الآخرين التى نقرأها لهم أو نسمعها منهم يعود إلى أحد أمرين :

ــ إما أن الفكرة غير واضحة أو بعبارة أخرى غير ناضجة فى فكر صاحبها .

ــ وإما لأنه لم يستطع الإبانة عنها وقصرت عبارته عن إعطاء صورة واضحة لها.

وقد سلم الزيات من الاحتمالين كليهما فهو حريص كما رأينا على تناول القضايا التى يستوحيها من واقع الحياة حوله ، ويجتهد فى إجالة فكره فيها وسبر أغوارها ورصد أبعادها ومسبباتها فإذا تم له ذلك وتكونت لديه فكرة عن حل أو حلول لها تناولها بالعرض والتحليل ، منتهيا إلى تقرير مايراه .

ثم هو من ناحية أخرى فارس من فرسان البيان وصاحب أسلوب من أدق الأساليب وأقدرها على الشرح والإقناع ، فى تدفق لاينقطع ، ومقدرة لايعوزها الأداء المعبر ، والإلمام الدقيق بجوانب ما يعرض له أو يدير حوله فكره وقلمه .

وبهذا الوضوح الذى يتجلى على أكمل صورة فى مقالات الزيات تكتسب كتاباته الاجتماعية أهمية خاصة ، لأنها تعالج فى كثير من الأحيان ظواهر لها امتداداتُها فى حياة شعبنا ومن ثم تكون الأصول التى بنى عليها الرجل فكره وتأمله صالحة لأن تبقى أمثلة تحتذى ، ومنهاجاً ينبغى إبرازه والإفادة منه للأجيال الخالفة وذلك وحده دليل على عبقرية الكاتب وأصالة فكره وامتداد عطائه .

ونضرب على تلك السمة مثلا من مقالات الزيات الاجتماعية وهو مقالة « داء الوظيفة » [١] .

فالفكرة العامة فى هذه المقالة تدور حول تشبث عامة المتخرجين من معاهد

(١) وحى الرسالة ١ / ١٦٨ .

التعليم والجامعات بالوظائف الحكومية وانصرافهم عن العمل الحر على الرغم من قيود الوظيفة الحكومية وأثقالها وإهدارها لعمر الموظف وطاقاته فى حين أن العمل الحر يحفظ على الانسان حريته ، ويفسح المجال لطموحه ويحقق للوطن النهوض والازدهار .

ساق الزيات هذه الفكرة العامة من خلال حوار أداره مع شاب حديث التخرج لقيه ساخطا مهموماً لأن الوزارة التى كان يعقد الأمل على أحد وزرائها ليوقع قراراً بتعيينه فى وظيفة حكومية سعى جاهداً لنيلها ـــ قد قدمت استقالتها قبل أن يتم للشاب ما أراد . وعبثا حاول الزيات أن يوضح للشاب مزايا العمل الحر ، ويزهّده فى الوظيفة التى أسف على فواتها ، ولكنْ الشاب كان ـــ شأن كثيرين من أبناء جيله ـــ راغبا عن المغامرة فى ميادين العمل الحر ، متعلقا بأهداب الوظيفة التى تضمن له المرتب فى حاضره والمعاش فى مستقبله ، مردداً قول القائلين : القليل المتصل خير من الكثير المنقطع .. ذاكراً شواهد على فشل فريق من الشباب ممن حاولوا اقتحام تلك الميادين ... عندئذ يبسط الزيات على مسامعه الحجج القوية والأدلة المقنعة قائلا له :

« ... مالك تقيس أمرك بهذا المقياس المختل ، وأمامك المقاييس العليا تتواثب إلى عينيك من كل مكان ، ألم تر إلى اليونانى أو الطليانى كيف يفد عليك من غير رأس مال ، ولا شهادة جامعية ، ولا توصية وزير ، ولا تعضيد جمهور ، ولا تحميس صحافة ، فيحترف وضائع الحرف ، ويحتمل مكاره الفوز ، ويتفرع معالى الأمور فى روية وصبر ، حتى بلغ به نشاطه أن يدير عمارة المدينة ، ويصرف تجارة القرية ، وينتج زراعة العزبة ، فيبيع عليك غلة أرضك ، ويتعبدك بربا مالك ، وأنت جالس جلسة الأجير على مكتبك الحقير فى دار الحكومة تكنس لنعليه الطرق ، وتشق لعينيه الحدائق ، وتكفل لتاجره الأمن ، وتدبر لمزارعه الماء ، وتتقبل على كل ذلك دغل الصدر وقسوة اللسان وقحة النظر » .

ثم انتقل الزيات من ذلك الاحتجاج القوى لفكرته بحكاية واقِعِه هو وتجربته الخاصة مع الوظيفة وشعوره بعد أن خلع ربقتها وثار على قيودها يقول : « رأى

صديقى الفتى أن لهجتى لا تلائم همّه الغالب ، وأن منطقى لايساير منطقة اليائس . فتولى عنى غير راض ولا مقتنع ، وتركنى أحدث نفسى ، وأقارن بين يومى وأمسى ، فأجدنى بين عملى المقيد الذى انصرفتُ عنه ، وبين عملى الحر الذى انصرفت إليه ، أشبه بالسجين المغلول يعمل برأى غيره ، ولحساب غيره . يتحرك ولا يسكن إلا بأمر ، ويسير ولا يقف إلا فى نظام ، وهو يأكل حين لايشتهى ، وينام حين لايريد ، ويستيقظ حين لايحب ، وتتعطل ملكاته حتى يصبح كالإنسان الصناعى : قوة محركة وآلة . ثم يدرك السجينَ لطفُ الله فتتفكك عنه السلاسل ، وتتفتح له الأبواب ، فيجد عقله فى النور ، وخلقه فى الطبيعة ، وحريته فى الجو ، ووجوده فى المجتمع ! فينبت الريش الناسل ، ويخفق الجناح المهيض ، وتتكشف الآفاق الجديدة » .

وهكذا يجول الزيات بقلمه حتى تغدو فكرته واضحة جلية لا التواء فيها ولاغموض ، وتمثل من خلال العرض البارع بناء منطقياً يتنامى شيئاً فشيئاً حتى تكتمل له صورته القويمة وهيكله الشامخ .

الشمولية والعمق :

وأعنى بها اتساع مجال الفكرة العامة واستقصائها للظاهرة موضع التأمل والتنبه لمداخلها ومواردها كلها دون إغفال لجانب أو إهمال لدافع من الدوافع المعينة على وجودها .

وهذه الظاهرة أيضا تكشف عن بعد جديد من أبعاد الفكر الاصلاحى للزيات فهو فكر عاقل متزن ، يبحث فى موضوعية ، ويترفع عن الجموح ولايتشبث بأفكار سابقة أو مواقف جامدة يجد لزاماً عليه أن يجادل عنها وينتصر لها ، وهذه وتلك آفة من أخطر الآفات التى تصيب الفكر فى الصميم فتدع الكاتب أسيراً لقناعات مغلوطة ، ومما حكات ممجوجة ، وافتراءات مكشوفة ، وادعاءات مردودة على زاعميها .

ومن دلائل شمولية الفكر وعمق التأمل أن الزيات كان يحرص فى كثير مما

يكتب وعلى الأخص فيما يتعلق بمشكلات المجتمع على تتبع الأراء الشائعة ومايتردد على الألسنة ويساور العقول فيضَعه تحت تأمله وفى مجال فكره ، ثم يجيل الرأى فيه ويدير البحث حوله لينتهى من ذلك كله إلى الرأى السديد والسبيل السوىّ .

وبهذه الشمولية تكتسب كتابات الزيات قيمة كبرى ، إذ تأتى مقنعة للقارىء كاشفة له عن مختلف جوانب الموضوع ، محترمة لعقله ، مجيبة عن تساؤلاته ، مبددة لحيرته ، مضيفة إلى تجاربه حقائق جديدة ، جديرة بالمراعاة ، قمينة بالموافقة والقبول .

ومما تتأكد للقارىء معه صفة شمولية الفكرة وعمقها مقال « هل خصب الأرض يستلزم جدب القرائح »[1] ، وفكرته العامة تدور حول تشخيص ظاهرة التواكل وضعف الهمة والاستنسلام للواقع لدى غالبية سكان مصر وعلاقة ذلك ببيئتهم وأسلوب حياتهم . وقد شرح الزيات تلك الفكرة العامة شرحا مستفيضا مستعينا فى ذلك بالتأمل والتنظير منتهيا من خلال ذلك كله إلى نتيجة خلاصتها ، ضرورة تنمية بواعث النشاط والتشجيع على العمل الجاد ، والابتكار والطموح ، وعدم الاقتصار على ما يسد الرمق ، ويدفع العوز ، لأن الرضا بتلك الدرجة يُهدر طاقات الأمة ، ويحرمها من طلاقة الإبداع والنهوض، ويدعها عالة على غيرها من الأمم والشعوب فى شتى الميادين ، وهى بتلك الوضعية تنحط عن رتبة الإنسان المتحضر ، وتتقهر إلى مستوى الحيوان الأعجم .

ونتابع الزيات فى شرحه للفكرة وتفرسه لدوافع الظاهرة وتحديده لمنابعها ومخاطرها فنراه يبدأ بمقدمه تمهد للفكرة وتستلفت الأنظار إليها وهى أن الحاجة أم الاختراع يقول « من الأقوال المأثورة أن الحاجة تلد الاختراع وتفتق الحيلة . وهذه الحاجة التى ضمنها الله عمارة الأرض ورقى العالم ، هى التى جعلت بيئة الفقر مهبط الالهام ومنبت العبقرية . فأينما تجد الحاجة تجد العمل والذكاء

(١) وحى الرسالة ٢ / ١٣٢ .

والقوة ، وحيثما تر الغنى تر الكسل والغباء والرخاوة . وذلك لأن الفقير يضطره العيش إلى أن يفكر فيجيد التفكير ، وإلى أن يعمل فيتقن العمل ، وإلى أن يهاجر فيزداد بممارسة الشدائد ومنافسة الناس جلاء فى الذهن ، وبسطة فى العلم وسعة فى الحيلة . ومواهب العقل كأعضاء الجسم تقوى وتنمو بالكد وتضعف وتضمر بالعطلة » .

ويستطرد الزيات فى مقدمة المقال مؤكداً هذه الجزئية الأولى أو المقدمة الصغرى لقياسه فيؤكد الفكرة بشواهد مُعاشه وأخرى مستفادة من استقراء التاريخ .

ثم يعرض للظاهرة التى يوحى بها عنوان المقال فى حياة المصريين معللا بها مايعهد لدى غالبيتهم من القناعة الزائفة التى تقتل طموح النفس، وتسكن قلق الروح ، وتخمد نشاط القريحة ، وتحمل الرجل على الرضا بالدون والتسليم بالواقع » ثم يتابع انعكاسات هذه النقيصة المستشرية فى نفوس المصريين فى مختلف قطاعات الحياة لدى الزارع والصانع والطالب والمعلم والكيميائى والفزيائى والطبيب والصيدلى والسياسى ، وفعلها الخبيث فى وأد الطموح ، وإشاعة اليأس وتزيين التبطيل والكسل والاكتفاء فى الأعمال والأنشطة بالحد الأدنى أو ربما بما دون الأدنى إن سمحت به الظروف .

ثم ينتهى إلى الغاية من المقال والهدف منه فيوضحه فى خاتمته مخاطبا عامة المصريين وخاصة أولى الرأى والأمر منهم ، قائلا لهم :

« حاولوا يا قوم أن تهذبوا القناعة فى ذهن الفقير برفع مستوى عيشه ، وإصلاح فساد ذوقه . وحاولوا أن تخلقوا الحاجة فى نفس الغنى بتشويقه إلى الكمال المطلق وترغيبه فى المثل الأعلى ، فإنكم إن نجحتم فى زعزعة الرضا فى القانع المعتر ، وفى الواجد المغتر ساورهما القلق الروحى الحافز الذى لايقنع بما دون الغاية ، ولا يرضى للغير بأقل مما يرضى للذات .

حاولوا أن تحملوا العلماء والأدباء بالجوائز والألقاب على الانتاج الأصيل والتأليف المبتكر والبحث المنتج ، حتى ينشأ فيهم على طول الزمن والمرانة حب البحث لفائدة العلم ، وحب العمل لمنفعة الناس .

ثم حاولوا وحاولوا أن تقيسوا كفايات العاملين وأقدار النابغين بغير مقاييس المحاباة والزلفى والقرابة ، فإن كثيرا من الأكفاء إنما يزهدهم فى العمل والإصلاح اليأس من الانصاف والقنوط من المكافأة » .

وهكذا يغوص الزيات بفكرة الثاقب وتأمله الواعى وروحه المتوثبة ورغبته فى الاصلاح الشامل إلى أعماق الظاهرة المؤلمة فى حياة مواطنيه ويتتبع مظاهرها فى سلوكهم وأسلوب حياتهم ، ويقترح لها الحلول الناجعة ، ويرصد للخلاص منها الوسائل الجديرة بالنجاح .

* * *

الفصل الثانى

العـــــاطفة

العاطفة فى النتاج الأدبى هى الباعث الذى يحرك المشاعر ، والجذوة التى تستمد منها التجربة حرارتها الجياشة ، والقبس الذى يبدو الأثر الأدبى على ضيائه فيّاضاً متدفقاً ، وهى كذلك الوشيجة التى يتسلل الأثر المبدَع من خلالها إلى وجدان المتلقى ساحراً جذابا ، وهى مِلاكُ الإبداع وروحه ، ومناط الإعجاب والإكبار ، إذ تصوّر لنا جانبا من ذات الأديب ، وتدخل بنا إلى عالَمِهِ ، وترينا مسارب نفسه ومكامن حسه ، وبواعث رؤاه ، ومنابع انفعالاته فى رضاه أو سخطه وفى حُبوره أو بؤسه وفى طموحه أو يأسه وفى إقباله أو إدباره .

وبالعاطفة ــ والعاطفة وحدها ــ يكتسب الأدب صبغته الخاصة وميسمه المميز ، فيخرج عن كونه ركاما من العبارات المحدودة الدلالة إلى آفاق رحبة تتجاوز حدود الأداء المعنوى المجرد ، وتشكف عن موقف إنسانى مفعم بالرؤى والآمال ، حاشد بالأحاسيس الدافقة ، عميق الدلالة ، شفيف الإيحاء .

وبحرارة العاطفة يعلو بنيان الأثر الأدبى ويسمق ، وبفتورها يتداعى ويتطامن مهما جهد صانعه فى تنميقه وتوشيته ، إذ يبدو وقد حُرم العاطفة الباعثة جسداً بغير روح ، وكائنا ليست له هوية .

والعاطفة ــ تأسيسا على ما تقدم ــ هى الروح التى تسرى فى العمل الأدبى فيبْدو بتَأثيرها حيّاً نابضاً ، قويا متدفقا ، تتعاطف القلوب معه ، وتتلاقى الأفئدة حوله ، ويحس المتلقى أن الأديب كأنما يعبر عن نفسه ويشرح عاطفته ، والعاطفة هى المعيار الذى تقاس به الأعمال الأدبية ، إذ تبرز بقوة العاطفة وحضورها أصالة الأديب ، ويدرك بخفوتها وفتورها تقليده وتزييفه .

بدت عاطفة الزيات فى مقالاته الاجتماعية قوية حادة ، وانعكس ذلك بطبيعة الحال على قرائه ، فتلقوا ما كتب بشغف واهتمام ، لأن الزيات كان يعبر فيما يكتب ويبدع عن عاطفته وشعوره ، ويكشف عن تأثير الموضوع الذى يكتب حوله فى نفسه ووقعه فى حنَاياه .

ولقد كان الزيات — كما أشرنا — وفيّاً لوطنه ، باراً بأمته ، يبتهج لما يحرزه الوطن من إنجازات ، ويأسى لما يعانيه من سلبيات ويغضب إذا انتهك حق من حقوقه أو بغى على فئة من فئاته أو فرد من أفراده . وتشغله قضايا وطنه ومجتمعه عن كل شاغل وتعلو على كل غاية وتأتى قبل كل مأرب .

وقد نقلنا فى حديثنا عن « الزيات وأدب المقالة » تقريظ الدكتور زكى مبارك لكتاب « وحى الرسالة » الذى قرر فيه أن الزيات كان شقيا بهموم المجتمع يعانى البلاء بمحنه وتضطرم لها روحه [1] .

وموضوعات المقال الاجتماعى بطبيعتها تدخل فى نطاق البحث الموضوعى بحسبانها تدور حول مشكلات وظواهر خارجة عن ذات الأديب ووجدانه ، ولكن الزيات — شأن كبار الأدباء — عالج تلك القضايا بأسلوب المقالة الذاتية ، فلم يتوار خلف موضوعه ، بل جعل الموضوع يذوب فى داخله ويمتزج بأحاسيسه ، ويبين عن عاطفته وأمله ورغباته الكامنة ، ومن هنا أتت كتاباته حية نابضة عذبة آسرة ، إذ سلمت من جفاف البحث العلمى وجهومته ، وارتفعت عن التقرير الموضوعى المجرد ، ولم تخل مع ذلك كله من عطاء العقل والفكر ، فلم تكن وليدة العاطفة الجياشة وحدها ، بل أتت مزيجا من عطاء العاطفة الباعثة ، والفكر الراصد ، أو بعبارة أخرى جاءت نتاجا من الذات والموضوع ، وذوْبا من العقل والوجدان .

* * *

(١) وحى الرسالة ١ / ٤٩٩ .

كانت العاطفة إذاً هى القبس السحرى الذى يشيع الحيوية فى مقالات الزيات كلها ومن بينها مقالاته الاجتماعية ، وقد أدرك الزيات بحسه اللماح أثر العاطفة فى وَلُوعه ببعض القضايا وإلحاحه على الكتابة فيها والعودة إليها ، فكان يشرح لقرائه من حين لآخر سبب ذلك الولوع وبواعثه ، وقد مر بنا بعض من ذلك ففى مقال « يا أذن الحس اسمعى » (١) يدور بخاطر الزيات أن من قارئيه من قد يختلج فى رأسه هذا السؤال :

« لماذا يمتد نَفَسى بهذ الأنين الموجع ، ويستمد قلمى من هذا الدمع القانى ؟ .

فيشرح أديبنا الكبير هذا الباعث بقوله :

« وجوابى أنى نشأت فى قرية من أولئك القرى العشرين التى سلط القدر عليها الباشا والأمير ، فانشقّ بصرى على مناظر البؤس ، وتنبه شعورى على مآسى الجور ، وعلمت حين تعلمت أن وطننا يفيض بالخير ، وديننا يأمر بالإحسان ، فأيقنت أن فقر الناس ناشىء من فقر الإحساس . فإذا طلب الفقير حقه ، وأدّى الغنى واجبه ، تلاقت الأنفس على حدود الإنسانية الكريمة . فأنا أحاول بمواصلة هذا الأنين أن أعالج وقْر المسامع وسَدَر العيون وخدر المشاعر ، عسى أن يتذكر المترفون أن لهم إخوة من خلق الله يأكلون ما تعاف الكلاب من المآكل ، وينامون مع الحيوان فى المزابل ، ويقاسون من الأدواء مالا يقاسيه حىّ فى غير مصر . ولكنى علمت واحسرتاه بعد شهرين مضيا فى الشكوى والاسترحام ، أن بين أبناء الذهب وأبناء التراب أطباقا من اللحم والشحم ، والحديد والأسمنت ، ترتد عنها أصوات الضارعين أصداء خافتة ، ثم تتجاوب هذه الأصداء فى أكواخ المساكين ، ثم تتهافت على بريد « الرسالة » تهافت الأرواح الهائمة على الشعاع الهادى ، تتلمس فى ضوئه الطريق إلى الله وائل الضعيف وعائل المعدم ! ... » .

بهذا الإحساس القوى عالج الزيات الكتابة فى قضايا المجتمع والإنسان ، وعن

(١) وحى الرسالة ٢ / ١٤ .

تمثل المعاناة فى أقسى صورها صدر ، وبهواتف العاطفة الحانية صدح ، وعن شجو النفس الكبيرة وأساها سطَّر .

وهذا التواصل العاطفى القوى بين الكاتب وموضوعه هو الذى يمنح كتاباته قيمتها الأدبية ، ويرتقى بها إلى ذروة الفن الرفيع . إذ يشعر المتلقى أن الأديب لايكتب له عن ظواهر خارجة عن ذاته ، ولا يصف له عوارض وأهوالاً وقعت لآخرين ، بل يحس أن القضية قضيته ، والمعاناة معاناته . وهذا هو جوهر الفن بمفهومه الأصيل .

فلم يكن الزيات إذاً يكتب ليملأ فراغا فى صفحات « الرسالة » بل كان يكتب ليشبع رغبة قوية فى نفسه ، ويرضى عاطفة غالبة تلح عليه . ومصداق ذلك ماثل فى كتاباته كلها ، بل فى إبداعاته جميعا ، سواء فى ذلك المؤلفات التى دبّجها والروايات التى ترجمها والمقالات التى سطرها ، وقد كتب الزيات فى الرسالة مقالا بعنوان « لماذا ترجمت آلام فرتر » [1] . نتعرف منه أن الزيات ترجم الرواية فى مرحلة من حياته تعرضت فيها لتجربة عاطفية عنيفة ، لم يجد لنفسه رواحا ، ولا لكربه متنفسا إلا مع تلك الرواية التى كان كأنما يقرأ فيها نفسه ، ويرى هواه كما عبر بقوله :

« كنت أقرأ ولا أقرأ فى الحادثة سواى ، وأشعر ولا أشعر إلا بهواى ، وأندب ولا أندب إلا بلواى ، فهل كنت أقرأ فى خيالى أم أنظر فى قلبى ، أو هو الصدق فى نقل الشعور ، والحذق فى تصوير العاطفة ، يظهر قلوب الناس جميعا على لون واحد ؟! ... » .

* * *

اتضح لنا مما تقدم أن صدور الأديب عن عاطفة باعثة ، وشعور حافز هو المعيار الذى تقاس به التجربة ، ويقوّم على أساسه الإبداع ، وقد تأكد لنا أن الزيات صدر فيما كتب وألّف عن إحساس صادق وعاطفة قوية . وقد استبان لى

(١) وحى الرسالة ١ / ٥٠ .

من استقراء مقالاته وتأمل بواعثها ، وتتبع الروح السارية فيها أن عاطفة الزيات فى كتاباته تتسم بمجموعة من السمات البارزة من أهمها :

الصدق ــ القوة ــ الاتصال ــ التواؤم

وسأعرض لكل سمة منها بشىء من البسط مدللا عليها ببعض ما كتب الزيات ليستبينها القارىء ، ويتعرف من خلالها على جانب مهم من جوانب الأداء المتميز للزيات ، ولتكون معلما يستهدى به شداة الأدب .

صدق العاطفة :

مظاهر صدق العاطفة فى مقالات الزيات الاجتماعية ماثلة فى كتاباته كلها ، يلمسها القارىء فى نتاجه الحافل ، على الرغم من تعدد الموضوعات ، وتباين القضايا ، لأن الزيات كان يعيش موضوعه ، ويصدر فيما يكتبه عن قناعة أكيدة، وحماسة جارفة ، تنم عن إخلاص صادق ، وإيمان عميق ، وهمّة سامقة ، وعزم شديد ...

كان الزيات يستصحب بواعثه تلك فى ميدان رحب فسيح هو حياة الناس فى وطنه من زواياها المختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية . وكان هذا الميدان ماثلا فى فكر الزيات وشعوره ، وهو يرقبه من مرصده السامق بعين البصير ، وحس اليقظ ، وإدراك الخبير ، فيرى القُوىَ تتصارع والمشارب تتفاوت ، والنزوعات تتعدد . فيندفع الكاتب المصلح ويهب الأديب الشجاع يؤازر المظلوم ، ويصارع الباغى ، ويدفع عن الضعيف ، وينتصر للمهضوم ، ويزيل الغشاوة عن الضال ، ويرشد الغاوى ، ويقيل العاثر ، ويحنو على المخطىء ، ويربُت على كاهل العانى ، ويعرِّى قناع المزيف ، ويثنى عنان الجامح ، ويكسر صلف المتكبر ...

وبهذه المهام الجسام التى اضطلع بها الزيات فى نضاله الأدبى حفلت كتاباته بالعطاء الثر ، والعاطفة الصادقة ، والتطلع للإصلاح والنهوض ، ولا نكاد نجد للزيات ما يخالف هذه الأصول ، أو يخرج عن ذلك الإطار إلا فى النادر الذى لا يؤبه به أو الشاذ الذى لايعول عليه .

وفى مقال « كلكم حواريون فمن يهوذا ؟ » تتضح سمة صدق العاطفة على أوضح ما تكون . فقد صور الزيات فى المقال عاطفته ورسم فى براعة شعوره ، وهو يدور حول قضية الإصلاح والنهوض بالوطن بصفة عامة ، ولهجة الكاتب فيه صريحة ، وحيرته وقلقه ماثلان ، فقد ارتاع الزيات لظاهرة أوضحها من خلال مقاله، وهى الشكوى التى يرددها الناس فى مصر من سوء الأحوال وتردّى الأمور على كافة المستويات ، ولدى مختلف الطبقات ، حتى لدى أرباب السلطة وأصحاب الأمر والنهى ، وهى ظاهرة جد محيّرة ، أو على حد تعبير الزيات التهكمى: « إذا كنتم يا قوم جميعا حواريين فمن يهوذا الذى خان الوطن بدوانقه الثلاثين ؟ كلكم يلوم . فمن الملوم ؟ وكلكم يتهم فمن المجرم ؟! » .

والمقال يعكس رغبة كاتبنا القوية فى الإصلاح ، ويؤكد عاطفته الصادقة فى الولاء للوطن ، والتعاطف مع مشكلاته ، والتأمل العميق لأدوائه . وتلك أمور تتطلب البحث الدءوب ، والعمل المخلص والجهد الموصول ، لتجاوز التقصير ، وتخطى العقبات بغية تحقيق التقدم وتأثيل الرُّقِىّ . أما أن يكتفى الجميع بترديد الشكوى ، ويجمع الكل على تردّى الأحوال دون أن يبادروا إلى سلوك إيجابى فذلك هو الضياع المحير والضلال المبين . وهذا هو المغزى الذى هدف إليه الزيات من مقاله وأكده فى مقالات عديدة من أبرزها مقال « لا تقولوا أين الكتاب وقولوا أين القادة » الذى تقدم عرضه وتحليله .

قوة العاطفة :

وقوة العاطفة هى التى تجعل الباعث على التناول لدى الأديب عميقا غالبا ، والرغبة فى التعبير عن الشعور هدفاً منشوداً ، والقوة الدافعة للتجربة هائلة مؤثرة ، فلايجد الأديب مفرًا من إبراز عاطفته ، والتعبير عنها . وكلما كانت العاطفة قوية كان نتاجها آسراً معبراً ، لأنه يدع المتلقى وجها لوجه مع وجدان الأديب المبدع ، يحس نبضه ، ويلمس حرارة أنفاسه ، ويتابع وقع خواطره ، لانيدعنه من دخيلته شىء ، ولا يغيب عن إدراكه باعث .

وقوة العاطفة هى التى تضفى على الإبداع الأدبى بريقا ساحرا ، وألقاً وضاءً ، وضعف العاطفة أو خفوتها ينعكس على ما يكتبه الأديب فيحسه المتلقى غموضا وفتوراً ، ومواتا وتوزّعاً ، وحينئذ يمثل التكلف والتصنيع ، ويُلمس الضعف والتهافت، وتختفى حرارة الأداء وحيوية الشعور ، وإيقاع الشخصية المتميزة ..

ومن مقالات الزيات التى تبرز فيها قوة العاطفة الباعثة مقال « فدائيون وأنانيون » [1] . وفيه يعالج الكاتب المفارقة الصارخة فى عطاء المخلصين لوطنهم مصر ، والظلم البين والإجحاف البشع الذى يناله أولئك الفدائيون المضحون ، فى مقابل الاستحواذ الشره ، والاغتصاب الباغى لخير الوطن دون بذل أو فداء أو تضحية تُذكر من الخونة والأدعياء الذين ينتهبون ثروات الوطن ويستأثرون بها دون مستحقيها الأصلاء وحراسها الشرفاء .

وعاطفة الزيات فى المقال مزيج من مشاعر الغيرة الوطنية والاشفاق على المخلصين والنقمة على المستغلين ...

يقول أديبنا المبدع بأسلوبه المعبر ولهجته الصادقة وحماسه القوى :

« ما أشبه بنى آدم بنبات الأرض ، يتفق فى التربة والغذاء ويختلف فى اللون والطعم والمزية . فى الحقل الواحد تجد الطيب والخبيث ، والحلو والمر ، والنافع والضار ، والصلب والهش ، والمستقيم والمعوج ، والمنتج والعقيم . وهذا الاتفاق وذلك الاختلاف تجدهما فى بنى الإنسان على أوضح صورة ، ها نحن أولاء ، طينتنا من ثرى الوادى ، وغذاؤنا من خير النيل ، وهواؤنا من جو مصر ، ولكن فينا من يؤلم ولا يلذ كالعوسج ، ومن يروق ولا يثمر كالصفصاف ، ومن يضر ولا ينفع كالهالوك ، ومن يرتفع ولا يستحق كالعليق . أما المصطفون الأخيار فهم كالفواكه والرياحين قلة قليلة .. منا العيون التى تتجسس للعدو ، والأيدى التى تعمل مع العدو ، والألسن التى تدعو إلى العدو . ومنا الأوغاد الذين يقضون أيامهم اللاهية عكفا على الفحش ينفقون أموالهم التى استقطروها من الفلاح ودمه ، فى الخمر

(١) وحى الرسالة ٤ / ٥٧

والقمر والنساء ، وأبناؤنا الشباب يقاتلون العدو وجها لوجه وهم جياع ! ومنا الأنذال الذين كسبوا المال وخسروا الشرف ، وشروا الجاه وباعوا الضمير ، فظلوا بيننا تماثيل للؤم والبلادة ، يسمعون عن فظائع الفدائيين فى القنال ، وكأن القنال ليس من أرض الوطن ، وكأن الفدائيين ليسوا من شباب الأمة ! أما البررة الأطهار فهم صفوة الخير المغلوب بين هذا الشر الغالب ! هم أولئك الشباب الجامعيون الذين نذروا دماءهم الزكية لله ولمصر . يقتلون مستبسلين ، ويقتلون مستشهدين ، لا يبتغون عرض الحياة لأنهم يستقبلون وجه الموت ، ولا يطمعون فى جزاء الدنيا لأنهم يقنعون بثواب الآخرة .

هم أولئك الفدائيون المترفون الذين ربأوا بوطنهم أن يحتل ، وبشعبهم أن يذل ، فزهدوا فى نعيم العيش ، ورغبوا عن سلام الأمن ، وعاشوا مع الفلاحين فى قرى القنال ، يطعمون أغلظ الطعام ، ويشربون أكدر الشراب ، ويفرشون أخشن الفرش، ويستعيضون عن العطور والدهن بالشحم يطلون به أجسادهم المرهفة ليقيها برد الماء وقر الشتاء ، ثم يكمنون للعدو الباغى عراة فى قنوات الحقول وأخاديد الأرض ، حتى إذا شاء القدر أن يسخر من الإمبراطورية العجوز ، ساق قطعياً من أغنامها الحمر إلى المجزرة الفدائية الجائعة ، فيلتقى الإيمان والكفر ، والشجاعة والجبن ، والفداء والأثرة ، وتغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة بإذن الله ، فيفزع (أرســكين) ، ويجزع (تشرشل) ، وتسيل شوارع المدن ومسالك القرى بالدبابات والمصفحات والجنود ، ثم تكون عاقبة هذا الجيش العرمرم والعتاد الضخم هزيمة مخزية تشبه الصفعة على القفا العريض ، أو البصقة فى الوجه الصفيق! .

هؤلاء المجاهدون الأبطال الذين زعزعوا باطل انجلترا وأيدوا حق مصر ، لايرجون من قومهم غير السلاح ! فهل يستجيب أغنياؤنا الطافحون لهذا الرجاء ؟ إنك لاتحيى الموتى ولا تسمع الصم الدعاء ؟ »

اتصال العاطفة :

وهو مظهر من مظاهر معايشة الكاتب للقضايا الكبرى التى تستقطب فكره وتلح على وجدانه ، ثم هى دليل على ولائه وإخلاصه ، وشاهد على تفاعله مع ظواهر الحياة من حوله وتفانيه فى تحمل تبعات رسالته الإنسانية فى التعبير والتنوير وجهاده الدءوب فى سبيل المبادىء التى يؤمن بها ، والقناعات التى يصدر عنها . ومن ثم يعاود طرح موضوعاته ، ويتابع الطرق على أبوابها الصفيقة ، رغبة فى الظفر بما يرجوه من الكتابة حولها ، وأملا فى تنحيتها إن كانت سلبية ضارة ، أو تحقيقها إن كانت إيجابية نافعة .

واستمرارية العاطفة أو اتصالها يكشف عن توجه الأديب ، ويدل على أصالة موهبته ، وينم عن شخصيته المتميزة ، إذ هو أمارة على إيمانه الراسخ ، ويقينه الثابت بالأفكار التى يطرحها والمبادىء التى يصدر عنها ، فهو فيها مشدود إلى ثوابت لا تتزعزع ، ودعائم لا تهتز ، على خلاف غيره من الأدعياء الذين يرددون آراء سابقة ، أو يتطفلون على موائد الآخرين مختلسين خاطرة من هنا وفكرة من هناك .

وقد رأينا فى تحليلنا للقضايا التى عنى بها الزيات فى مقالاته الاجتماعية مبلغ حرص الزيات على معاودة الحديث عن كل منها ، وحدبه عليها ، ورصد مايجد حولها ، ومن ثم كثرت مقالاته التى تدور حول القضية الواحدة كما أوضحنا .

ومما تتأكد معه للقارىء خاصية « اتّصال العاطفة » فى كتابات الزيات الاجتماعية مقالا : « فى الحال الحاضرة »[1] و « لا إله اليوم إلا الهوى »[2] واكتفى هنا بأن أعرض لمظاهر هذا الاتصال .

ففى المقال الأول منهما يرصد الزيات أوضاع المجتمع فى مصر وتتملكه مشاعر الحسرة على سوء الأحوال وتردى الأمور فى شتى جنبات الحياة يقول مصوراً

(١) وحى الرسالة ١ / ١١٨ .

(٢) المرجع ٣ / ٢٤٤ .

جوانب تلك « الحال الحاضرة » التى لا تسر ولا ترضى :

حالنا الحاضرة محنة من محن الانتقال ، وخدعة من خدع الاستقلال ، وفتنة من فتن الباطل ! فهى راكدة ركود العفن ، واقفة وقوف الحيرة ، لاتستطيع أن تجد لها فى لغة التطور اسماً ولا صفة ! فلا هى سبيل نهضة ، ولا هى دليل يقظة ، ولا هى مظهر امتعاض . وكأنما تقطعت وشائج الاجتماع بين الطبقات والجماعات والأسر ، فتناكر الناس وتدابر الأهل ، ودار كل امرىء على نفسه ! .

فالفلاح كما كان منذ أجيال . يكاد لاينزع يده من الأرض ، ولايرفع طرفه إلى السماء ، ولا يتبين وجهة الدنيا ، ولا يتصور غاية الحكم ، ثم يحول عليه الحول فلايجد نقوداً فى جيبه ؛ ولا سروراً فى قلبه ! .

والعامل على أسوأ مما كان . يقاسى العطلة ويعانى الفاقة ويشكو الأمية ويستغله الأجنبى بما دون القوت ، ثم لايجد فى بلده العين التى تكلؤه ولا اليد التى تحميه ، ولا النور الذى يهديه ، ولا الروح الذى يسيره ! .

والشاب فى لبس من أمره يتعلم ولايعرف لأى عمل ، ويتقدم ولا يدرى إلى أى غاية ، ويقولون له كن عزيزاً فى بلدك ، سيداً فى دارك ، متصرفاً فى أمرك ، ثم يخضعونه للامتيازات فتكسر من نخوته فى المجتمع ، وتغض من كرامته فى القضاء ، وتهجم على ثروته فى التجارة ؛ ويفور شبابه الحين بعد الحين فيكفه الهوان الغالب والقيادة المترددة .

والأدب يعتمد فى سلطانه على الدعوى والوقيعة ؛ ويصدر فى أحكامه عن النكران والحقد ويتفرق شيعاً وطوائف ؛ لا ليعدد مذاهب القول ويجدد طرائق البيان؛ ولكن ليخلق الخصومة بين الكهول والشباب ؛ ويؤرث العداوة بين الشعراء والكتاب ! .

والسياسة تتراشق بالتهم وتتقاذف بالعيوب وتحكم إلى الخصم ؛ وتحول مجرى الجهاد ، وتزهق روح النهضة ، وتشوه آمال الأمة بالمطامع السود والأهواء الأثيمة.

والحكومة تنبعث من أدراج مكاتبها العليا [1] روائح كريهة تسور فى الأنوف وتأخذ بالأنفاس وتفسد الجو على هذه الأمة المسكينة ! » .

وفى المقال الآخر « لا إله اليوم إلا الهوى » تفيض أحاسيس الزيات الساخطة على تردى أحوال الإنسانية عموماً ليس فى مصر وحدها بل فى مختلف الأقطار والشعوب ، إذ يرى الكاتب استشراء الشر واتّباع الهوى وإغفال المعانى الإنسانية ، ومجافاة الأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة ، والتردى إلى دركات الحيوانية الخبيثة التى تلبس الباطل مسوح الحق ، وتحيل الرذيلة طهرا وفضيلة ، وتغلف أحابيلها الخوادع أقنعته البراءة يقول بعد أن بدأ مقاله بمقدمة صدرها بالآية الكريمة : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة »[2].

«أزِلْ عن عينك إن استطعت ما غشيها من رياء الإنسانية وخداع المدنية ، ثم انظر إلى حقيقة الإنسان فى نفسك ، وفى عشرائك فى البيت ، ورفقائك فى المدرسة ، وخلطائك فى القهوة ، وزملائك فى العمل ، ورؤسائك فى الديوان ، ونوابك فى البرلمان ، ووزرائك فى الحكومة ، فلا تجد إلا غرائز الحيوان الوحش تسمّت بأحسن الأسماء ، وتزيت بأجمل الأزياء ، وتجلت فى أبهى المناظر ؛ فالتفارس تنافس ، والأثرة محبة ، والطمع طموح ، والاستغلال تعاون ، والاستعمار تحالف ، والقوة حق ، والضعف عفة ، والحرمان قناعة ، والختل سياسة ، والشعوذة دين ، والعصبية وطنية ! .

قد يخدعك الغطاء الذهبى على الناب ، والقفاز الحريرى على المخلب ، فتحسب أن هذا الإنسان الذى هتك بعلمه أستار الطبيعة ، وكشف بعقله أسرار الوجود ، قد هذبه العلم وصقله التمدن ، فارتفع من الأرض إلى السماء ، وانتقل من الحيوان إلى الملك ، ولكن خلافاً يشجر بين الإخوة على ميراث ، أو شقاقاً ينشأ بين الزعماء على منصب ، أو نزاعاً يحدث بين الدول على بلد ، يستطيع أن

(١) إشارة إلى ما كان يشاع يومئذ من استغلال النفوذ فى الاختلاس والرشوة .

(٢) سورة الجاثية ، الآية ٢٣ .

يشق الذهب ويمزق الحرير فترى الوحش الآدمى على جبلته بادى النواجذ متقد العينين ، يتحلب الريق من أنيابه ، ويقطر الدم من أظفاره ! .

ها نحن أولاء ، كنا نظن لوفرة المساجد فى المدن والقرى ، وكثرة السُّبح فى الرقاب والأيدى ، وتنافس الفقراء فى إقام الصلاة ، وتسابق الأغنياء إلى أداء الحج ، أن الدين قد سيطر على القلوب وهيمن على الضمائر ... فلما ابتلانا الله بوباء الهيضة الجارف[1] ، ووقع الإيمان المزيف تحت المحك ، تمزقت الاغشية عن عفن فى نفوس أكثر الأغنياء والأطباء والمسئولين كان أزكى روائحه روائح الرشوة والشح والسرقة والتواكل والتخاذل والتفريط والقسوة ... وكل هذه الموبقات مشتقات من مصدر واحد هو الأثرة ! » .

توائم العاطفة مع التفكير والتعبير :

وهى خاصية لازمة للعمل الأدبى المتميز ، لأن الأديب الحاذق تمثُل مهارته فى الملاءمة بين فكره وشعوره وتعبيره ، وهذه الركائز الثلاث هى روافد الإبداع الفنى.

وقد كان الزيات أستاذاً للأدب ، وناقداً مؤصلا لقواعده ومفاهيمه ، فلم تكن تغب عن وعيه تلك الأسس ، ومن ثم طبقها فى براعة ، وصدر عنها فى اقتدار . والأديب الموهوب تصقل الثقافة موهبته ، وتسمو المعرفة بإبداعه .

ودلائل هذه الخاصية فى مقالات الزيات الاجتماعية كثيرة ، وشواهدها عديدة، أقتصر هنا على ذكر مثال واحد منها هو مقال « حلم ليلة صيف » [2] وفكرته تدور حول مساوىء التميز الطبقى الصارخ فى مصر ، والهوة الواسعة بين الأقوياء والضعفاء أو الأغنياء والبؤساء . وقد وزّع الكاتب مقاله على معرضين رئيسيين : الأول تصويرى أدّاه الكاتب بأسلوب السرد المباشر الذى يلائم تسجيل العاطفة ورسم الشعور ، والمعرض الآخر : طرحه الزيات بأسلوب غير مباشر اصطنع فيه أقصوصة رمزية تلائم احتدام الحنق فى نفسه وإلحاح الضيق بتلك المفارقات الظالمة

(١) يعنى الكوليرا .

(٢) وحى الرسالة ٢ / ٨٣ .

على وجدانه . وليس الفارق بين المعرضين فى الإطار الفنى فحسب ولكنه يتعدى ذلك من حيث حرارة العاطفة وحدة الانفعال فى كل . ففى الجزء الأول منهما وهو المعرض التصويرى يلمس القارىء عاطفة الزيات وقد بدت طبيعية هادئة أهابت به أن يلتمس لها الروح والجمام على ضفاف النيل بعد عناء يوم مرهق من أيام الصيف اللاهب ، ثم لم تلبث المرائى المحزنة التى قفزت إلى ساحتها والخواطر المكتربة التى تداعت عليها فى جولة الكاتب الحائرة أن حولت إحساسه من الهدوء المشوب بالضيق إلى ثورة عارمة وتصوّر مرعب للصدام الحتمى بين القوة والضعف بعد أن أخفقت جهود المصلحين فى التقريب بينهما وتمثّل ذلك فى المعرض الآخر للمقال فى صورة أقصوصة الحلم المزعج الذى صور الكاتب من خلاله احتدام مشاعر السخط فى نفسه ، وإلحاح خواطر الإحباط على مخيلته فلم تجد لها مراحا إلا فى ذلك الحلم الصاخب الذى تأخذ فيه الأقدار للبؤساء من المترفين ، وتجرعهم إلى حين مرارة الكأس التى تعاطاها المحرومون حتى مجَّتْها أفواههم وضاقت بها نفوسهم لطول ما دارت على أيديهم وأطارت صوابهم وذهبت بصبرهم وسكونهم.

الفصل الثالث

قيم التعبير
الكلمة ــ العبارة ــ الصورة

عرضنا فى الفصلين المتقدمين العناصر المعنوية للأسلوب ممثلة فى الفكرة ثم العاطفة ، ونعرض فى هذا الفصل للعناصر الشكلية للأداء الأدبى ممثلة فى اللفظة المفردة والعبارة أو الجملة المركبة ، ثم الصورة الأدبية التى تنتظم مجموعة من العبارات أو الجمل ، لنرى من خلال ذلك ملامح تعبير الزيات فى المقال الاجتماعى وسمات أدائه لفكره وعاطفته .

ومما هو من قبيل التقريرات التى فرغ منها المؤصلون للأدب أن الأديب المتميز له أسلوبه الخاص ونمطه المتفرد فى عرض فكرته والتعبير عن عاطفته ، ولم تكن تلك التقريرات غائبة عن فهم أديبنا ووعيه ، إذ كانت له فى ذلك الميدان جهود مذكورة فى التأصيل النقدى والبحث البلاغى فى كتابيه « دفاع عن البلاغة » و « فى أصول الأدب » كما نثر كثيرا منها على صفحات « الرسالة » ومن ثم كان الزيات ذوّاقة للأدب ، فاقها لأصول فنونه وأجناسه ، مميزا لحدود كل فن ، ومتطلبات كل لون ، فلا غرو أن نلمح استيفاء كتاباته لمقومات الأداء الجيد ، والعناية بمراعاة متطلبات ذلك الأداء ، والتضلع فى وسائل الصياغة وأفانين التعبير . هذا إلى ارتقاء موهبته المتأصلة ، وسمو ذوقه ، وعلوّ بيانه .

ويجمل بنا فى هذا المدخل أن نشير إلى بعض تأصيلات الزيات حول حقيقة الأسلوب الأدبى والعوامل المؤثرة فيه . ففى دفاعه عن البلاغة يحدد مفهوم الأسلوب بقوله : « فالأسلوب إذن هو طريقة خلق الفكرة وتوليدها وإبرازها فى الصورة اللفظية المناسبة . هو ذلك الجهد العظيم الذى يبذله الفنان من ذكائه ومن

خياله فى إيجاد الدقائق والعلائق والعبارات والصور فى الأفكار والألفاظ ، أو الصلة بين الأفكار والألفاظ ، ولهذا الجهد جهتان : جهة موضوعية تتصل بالنظام وهو حسن الترتيب ، وصحة التقسيم وإحكام وضع القطع فى رقعة الشطرنج التى نسميها جملة أو فقرة أو فصلا أو مقالة ، وجهة أخرى شكلية تتصل بالحركة ، وهى خلق الكلمات والصور والتأليف بينهما على نمط يحدث الحياة والقوة والحرارة والبروز والأثر » (١) .

فلنقترب من أداء الزيات ، ونتفرس من كثب ملامح تعبيره لنرى كيف راعى الأصول التى قررها ، والحدود التى وضعها للأسلوب الأمثل بجانبيه الموضوعى والشكلى . وسأتناول المكوّنات الشكلية محللا جزئياتها : الكلمة والعبارة والصورة لتتضح بصورة مقاربة خاصية كل منها .

* * *

الكلمـــة :

للزيات طريقة خاصة فى انتقاء ألفاظه ، وله قدرة فائقة على وضع الكلمة الملائمة للسياق ، وهو إضافة إلى ذلك له اجتهاد بارز فى اشتقاق المفردات الأصيلة ، واستخدام كلمات تكاد تكون قاموساً خاصاً به ، لا يشبهه فى استخدامها كاتب ، ولا يضارعه ضريب ، ثم إنه يراعى فيما يختار من المفردات مقتضيات الدلالة القوية والأداء الواضح المؤثر ، فحسّه اللغوى دقيق ، ووعيه لإيحاء اللفظ متميز ، ومن ثَمَّ أتت ألفاظه فى نسق عباراته مكوّنة نسيجاً محكما ، لا أثر فيه لقلق ، ولا موضع لنبوّ أو غموض .

وعلى الرغم من تضلع الزيات فى اللغة العربية الأصيلة وفقهه لدلالاتها وخصائصها ودعوته إلى الالتزام بالفصحى وزرايته على دعاة العامية — نراه يجنح فى مقالاته الاجتماعية إلى استخدام بعض الكلمات الدارجة ويترخص فى الاستعانة

(١) دفاع عن البلاغة ٦٢ .

ببعضها فى حين نجده يضع إلى جوارها فى المقال الواحد ألفاظا دقيقة ومفردات جزلة . وقد لفتت هذه الظاهرة أنظار المقومين لنتاجه والدارسين لفنّه . وقد أشار الدكتور مهدى علام فى حفل تأبين الزيات بمجمع اللغة العربية إلى تلك الظاهرة بقوله : « إن هذا العبقرى الحَفِىَّ باللغة الذى يبلغ الذروة فى أسلوبه تتسع به سماحته فيستعمل عدداً وفيراً من الألفاظ العامية والدخيلة التى تجرى على الألسنة فى الحديث العادى ، وأحيانا يفصلها بين قوسين ... وليس لَدَىَّ ما أفسر به هذه الظاهرة إلا ما كتبه الفقيد ونادى به فى المجمع من تقريب العامية من العربية »[١] .

وللدكتور محمد رجب البيومى تعليل مقنع للتناقض الذى يتبادر إلى الأذهان فى موقف الزيات من العامية ، إذ نراه فى أول الأمر يتجنب استخدام الألفاظ العامية ولايسمح أن تتسلل إلى أسلوبه ، ويحمل حملة عنيفة على دعاتها فى دفاعه عن البلاغة [٢] وفى أصول الأدب [٣] وعلى صفحات الرسالة [٤] . ويعلل الدكتور البيومى ذلك بأن آراء الزيات فى اختيار بعض الألفاظ العامية قد تطورت فى حلقات حياته ، « فهو قبل مزاولة الصحافة كان يحارب كل لفظ عامىّ فلايسمح له أن يجد السبيل إلى أسلوبه ، ثم وجد نفسه بعد إصدار الرسالة كاتبا اجتماعيا يعالج شئون الحياة كل أسبوع ، بعد أن كان مقصورا على الترجمة والأدب الوصفى فحسب »[٤] .

وصفوة القول أن الزيات مجتهد فى قضية اللغة يؤصل بطريقة عملية لمبدأ التقريب بين الفُصحى والعامية ، وهو مبدأ تبناه الزيات مع فريق من أعضاء مجمع اللغة العربية الذى اختير عضوا فيه وكانت له جهود مذكورة فى ذلك المجال .

فمنهج الزيات إذاً فى اختيار الكلمة يقوم على أساس تقدير دورها فى الإبانة

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٤ ص ٣٣١ .

(٢) دفاع عن البلاغة ١٤٩ .

(٣) فى أصول الأدب ٢٣٨

(٤) وحي الرسالة ٤ / ١٢٣ مقال « شباب وشيوخ أو عامية وفصحى »

(٥) الزيات بين البلاغة والنقد الأدبى / ٣٢١ .

عن الفكرة وشرح العاطفة وإيضاح المعنى . فهو يرسل الكلمة الجزلة فى موضعها فتبدو فى سياق عبارته مألوفة مفهومة ، ويستخدم الكلمة العامية حيث لايدل غيرها دلالتها ، ولا يؤدى أداءها ، فالأداء القوى والعرض المؤثر هو الأساس عنده . ولعل قوة إحساس الزيات بمعانيه ، وإلحاح أفكاره ومثول خواطره ، إضافة إلى طول مرانه بأساليب الفن المقالى هى التى دفعته إلى إنتهاج هذا المنهج المحكم .

وسأكتفى فى الإشارة لسمات أسلوب الزيات فى اختيار الكلمة باستعراض فقرات من إحدى مقالاته محللا إياها تحليلا نوعيا حتى لايطول بنا القول وتتشعب دروب البحث .

فى مقال « صحة الفقير وثروة الغنى » [1] الذى تدور فكرته حول ظاهرة التعويض الإلهىٰ الذى يمنحه الفقراء ممثلا فى الصحة والقناعة عوضا عن الحرمان المادى فى حين يَحْرِمُ الأغنياء — إلا من شاء — من تلك النعم ويمنحهم المال والثروة . وقد بسط الزيات فكرة المقال من خلال سرد وصفى وحوار أجراه مع الشيخ « منصور » أحد القراء المنكرى الصوت ، ومما سرده من أوصافه ما جاء فى قــوله :

« رآنى بالأمس جالسا فى مكان ضاح من القهوة أنقع فى أشعة الشمس جسدى المقرور وعلىّ من ثياب الشتاء لفائف فوق لفائف ، فأقبل إلىّ يطفر طفور الظبى بين المناضد المصفوفة وليس على جسمه غير غلالة بيضاء من التيل ، وعباءة سوداء من الصوف ، قد رفع ذيلها إلى عاتقه ، ثم جلس متهلل الوجه متماسك البدن ، مكتنز اللحم رفاف البشرة يكاد إهابه من فرط الرِّىّ وسورة المرح ينشق . فلما تكلم وجدته على ما عهدته من فراغ البال ، وسلامة الصدر ، وقلة المبالاة ، فلم أتمالك أن بَدَهْتُه بهذا السؤال : أفى هذه السّن وفى هذه الأيام لا أرى للخبز المخلوط أثرا على وجهك ، ولا أسمع للمجاعة المتوقعة ذكرا على لسانك ؟ .

(١) وحى الرسالة ٢ / ٣٢٤ .

قال الشيخ منصور بلهجة الخلىّ وضحكته : والله يا سيدى ما أكلت الخبز نقيا من قبل حتى أشكو خلطه اليوم. ومن تعوّد أن يأكل الخبز مخلوطا بالحصى والتراب لايصعب عليه أن يأكله مخلوطا بالذرة والرز . أما المجاعة التى يتوقعها الناس فلا تختلف عما أنا فيه . وإذا جاز لى أن أشكو شكوت إلى الله طغيان الصحة ، فإن للصحة الطاغية تكاليف أقلها النهم والقرم وتحلب الريق وسُعار الجوف وسرعة الهضم ... إنى أسأم الصحة كما يسأم غيرى المرض. وفى ساعة من ساعات الشره يقوم فى نفسى أن الله قد منح الفقراء الصحة ليزيد ألمهم من الحرمان ، ولكننى حين أسكن أطيط أمعائى بفطيرة من الذرة وطبق من المش ورأس من البصل وحزمة من السريس ينمحى ما صوّره الخيال فى ذهنى من أطيب الآكال وأعذب الأشربة ، ثم تنتشر على بدنى حرارة العافية فأرى الجمال فى كل منظر والنعيم فى كل شيء ، واللذة فى كل عمل ، وأدرك بمشاعرى السليمة القوية ما انبثّ فى عالم الحس من كل متاع . ويخيل إلىّ من فرط الشعور وفيض السرور أن الهواء الذى أنشقه هو مدد من الروح الخالق يبعث فى جسمى النشاط وفى نفسى الغبطة ... » .

ولو تأملنا هذه الفقرة من حيث طبيعة الكلمات التى استخدمها الزيات فى صياغتها لرأيناها تتوزع على أنماط ثلاثة متميزة هى :

١ ــ نمط فصيح جزل

٢ ــ نمط عامى مبتذل .

٣ ــ نمط فصيح شائع .

ومما يدخل فى النمط الأول الكلمات :

ضاح ــ المقرور ــ يطفر ــ طفور ــ غلالة ــ رفاف ــ إهابه ــ سورة ــ بدهته ــ الخلىّ ــ النهم ــ القرم ــ تحلُّب ــ سُعار ــ الشره ــ أطيط ــ متاع ــ فرط ــ فيض ــ الغبطة .

فهذه الألفاظ ليست مما يشيع على الألسنة أو يتردد على الأقلام وإن كانت فى

أعمها الأغلب مفهومة فى سياق الكلام ، وبعضها يحتاج إلى مراجعة المعاجم من مثل قوله : طفور — سورة — أطيط — وقد فسر الزيات بعضها فى الهامش مثل كلمة أطيط التى فسرها الزيات بقوله : أطيط الأمعاء : قرقرتها من الجوع .

ومما يدخل فى النمط الثانى وهو العامى المبتذل الكلمات :

الرز — المش — رأس البصل — حزمة السريس .

أما النمط الثالث فينتظم سائر كلمات المقال عدا ماذكرته من الكلمات التى تمثل النمطين الأول والثانى .

ولعل هذه الموازنة التحليلية تطلعنا على ضآلة حجم المفردات العامية التى يستخدمها الزيات ، وتوضح لنا أنه إنما يستخدمها لما لها من إيحاء خاص فى التعبير عن المعنى ، حاجة السياق إليها على أساس أنها جاءت فى المقال على لسان الشيخ منصور الذى برع الزيات فى رسم خواطره وشرح وجهته فى قضية الصحة والحرمان .

وبذلك يتأكد لنا أن الزيات يستخدم الكلمة بمهارة ويضعها فى السياق ببراعة بحيث لايغنى غيرها عنها ولا يسد مرادفها مسدها .

ثانياً العبـــارة :

للزيات فى هندسة العبارة وتركيب الجملة وتأليف الفقرات باع طويلة ومقدرة فذة ، ولعله أول كتّاب جيله براعة فى ذلك المضمار . وقد أتاح له أمتداد عطائه فى فن المقال على صفحات الرسالة الذى اتصل عشرين عاما أن يتمكن من أفانين الأداء ، ويتمهر فى الصناعة ، ويتسنّم ذروة التعبير المؤثر ، ويبتكر فى صياغة الجملة . وتركيب العبارات على نحو لايدانيه فيه غيره ولا يجرى معه فى مضماره منافس .

ومكمن البراعة فى أداء الزيات يتمثل فى الصدور عن طبع فيّاض ، وفكر نابه ، وإحساس صادق ، وشخصية متيمزة ، وثقافة جامعة ، ودراية بأصول الفن ،

وخبرة بوسائط التأثير والإقناع والتصوير والامتاع .

وباحتشاد هذه القدرات الفنية أتت كتابات الزيات المقالية معارض إبداع ، ومجالى إتقان ، ومعالم بلاغة ، ومنازه إمتاع وإشباع .

* * *

وبعد هذه الإلماحة لمكمن الإجادة فى عباراته وتراكيبه أستطيع أن ألخص أبرز سمات تأليف العبارة عنده فى الجوانب التالية :

١ ــ حرص الزيات فى عباراته على وضوح الدلالة وقرب المأتى ، وهو مطلب جوهرى للفن المقالى الناجح ، لأن كاتب المقال يجول حول موضوعه ولا يخوض فى دقائقه ، إذ هو فى مقام تعبير عن خواطر محتشدة ، وعاطفة متقدة ، وآمال جياشة ، فلا موضع فى أدائه لتفلسف ولا مجال لتعمق .

وأمثلة هذه الخاصية كثيرة فى مقالات الزيات وقد مرّ بنا قدر كبير منها فلا حاجة لتكرارها .

٢ ــ افتن الزيات فى إخراج مقالاته على إيقاع متناغم فى كثير من الأحيان ، وكان لايلبث ــ إذا اطمأن إلى أن معناه غدا مفهوما ــ أن يفيض فى تنغيم الفقرات وتوقيع الجمل ، فيمثل معناه بفضل تلك التنغيمات حيًّا نابضاً ، ويعظم وقعه فى نفوس قرائه فتتجاوب مع إيقاعاته صيحات الإعجاب ، وهزات الطرب ، وتتهادى على موسيقيته الأثيرة فيوض التواصل ، وتمتد جسور التعاطف ، بين الكاتب وقرائه فينخرطون فى موكبه ويسيرون فى ركابه ويجاوبون هتافه ، فتذيع أنشودته وتغدو مسموعة فى كل مكان ومحكية على كل لسان ...

ولعل من دلائل مهارة الزيات واكتمال موهبته أنه لم يكن ممن تأسره تلك التنغيمات ــ على الرغم من امتلاكه ناصيتها ــ أو تشغله عن فكرته التى يهدف إلى إبرازها . فلم يكن كغيره من الكتاب والشعراء الذين يدفعهم سعار السجع والتجنيس إلى التكلف والرهق وتشويه السياق بإقحام الكلمة القلقة طلبا للإيقاع الرتيب فتشيع تلك الكلمة الغموض وتودى بالنسق المعنوى المتصاقب .

ومن شواهد هذه الخاصية فى عبارات الزيات وجمله الفقرة التالية وهى من مقال « إلى القرية يا بك » [1] وفيه ينحى الكاتب باللائمة على نمط من أبناء الريف الأصلاء الذين يتشبثون بحياة المدن عندما ينبه شأنهم فيهجرون إلى غير عودة قراهم على الرغم مما قد يتعرضون له فى المدن من تحلل وتنكب سبل الرشاد ومايننزل بمصالحهم وأملاكهم فى الريف من ضياع وخسران . يقول الزيات فى نهاية المقال مخاطبا الـ « بك » رب الأسرة المنسلخة عن بيئتها الأولى :

« ... أنت يا سيدى عميد أسرة مجيدة لها فى سياسة الأمة صحائف مشرقة ، وفى ثروة البلاد جهود موفقة ، فافزع إلى ماضيك واستصرخ عزيمة الجنس فيك ، واستعد سلطانك على أهلك وبنيك ، ثم عد إلى مسقط رأسك ، ومهبط نفسك ومنبت عواطفك ، ومنشأ هواك ، ومرتع صباك ، وموطن مجدك ، ومدفن جدودك !! عد إلى القرية يا « بك » !! » .

ففى هذه الفقرة توازن دقيق بين الجمل ، وتوافق بديع بين الفواصل ، وهندسة بارعة فى تنسيق العبارات وزخرفتها ، وكأنها قطعة من قطع الفن الإسلامى الرائع بخطوطه المتناسقة ، وتعادُلِيَّته الآسرة .

وتوازن الجملة مع توافق الفاصلة يتضح من هذه الفقرة فى ثلاثة أنساق متنوعة :

النسق الأول فى الجملتين الأوليين بين قوله :

لها ... فى سياسة الأمة صحائف مشرقة
و ... فى ثروة البلاد جهود موفقة

ففيه توازن لفظى ومعنوى واضح بين كل كلمة فى الجملة الأولى وما يقابلها فى الجملة الثانية ، ثم هناك توافق الفاصلتين فى كل منهما فى قوله : مشرقة فى الأولى وموفقة فى الثانية .

(١) وحى الرسالة ١ / ١٨٠ .

النسق الثانى :

ويتمثل فى الجمل الثلاث التالية للنسق الأول وهى :

فـ ... افزع إلـــى ماضيك

و ... استصرخ عزيمك الجنس فيـــك

و ... استعد سلطانك على أهلك وبنيك

والتوازن واضح بين نوعيات الكلمات فى أقسام هذا النسق وقد راعى الزيات فيه التركيز على التوازن فى صيغة القسم الأول افزع ـ استصرخ ـ استعد ـ كما راعى توافق الفواصل فى نهاية كل جملة .

النسق الثالث :

ويشمل قوله :

ثم عد إلى ... مسقط / رأسك

و ... مهبط / نفسك

و ... منبت / عواطفك

و ... منشأ / هواك

و ... مرتع / صباك

و ... موطن / مجدك

و ... مدفن / جدودك

والتوازن واضح بين الكلمات الأولى فى بديات النسق فكلها صيغ اسمية مبدوءة بالميم على وزان مفعل بفتح العين أو كسرها وبين بعضها وبعض توافق دقيق ، فبين مسقط ومهبط ومنبت تماثل فى الأولين وتقارب مع الثالثة ، وبين منشأ ومرتع تقارب ، وبين موطن ومدفن تماثل . وكذا الحال فى الكلمات التى تنتهى بها عبارات النسق ففيها تطابق فواصل وتناغم داخلى على النحو الذى وضحته فى القسم الأول .

وأبادر فأؤكد للقارىء أن الزيات لم يكن يقصد إلى هذه التعادلية وإنما هى نتاج الحس الموسيقى الفطرى الذى هو سر من أسرار الإبداع الأدبى والموهبة المركوزة فى أعماق أولى العزم من الملهمين .

والحق أن هذا الجانب من البحث التحليلى لعبارات الزيات يطلعنا على أفانين شتى من هندسة العبارة وتركيب الجمل ، وهو كما أقرر وأؤكد ليس مقصوداً من الأديب ولا متكفا بل فى تقديرى أن الكاتب — أى كاتب — لو قصده قصدا ما بلغ منه الذى يريد . ولكنه يأتى تابعا للعاطفة الدفاقة والحس البيانى النفاذ ، فهو نتاج طبيعى غير مجتلب وحسن ممنوح غير مكتسب . ومن أمارات ذلك أن الزيات لاينحو فى عبارته التى تتألف منها مقالاته هذا المنحى ضربة لازمة ، بل يلّون وينوّع ويوقع ويترسل ويوجز ويشرح كل ذلك حسب مقتضيات المقام ، وتبعا لطبيعة العاطفة الباعثة ، فقد تكون تلك العاطفة هادئة منسابة ، وقد تكون عجلى وثابة ، أو حادة ثائرة ، أو قلقة ناقمة ، أو فرحة منتشية ...

وإذا كنا ألمحنا فى بداية هذه الخاصية إلى نمط من كتابات الزيات فى إيقاع متناغم وتوافق منضبط فيجدر بنا ألا ندع هذا الجانب دون أن نشير إلى نوعتين أخريين من نوعيات عباراته وتراكيبه :

أولاهما : تتمثل فى تحقيق توازن الجملة دون توافق الفواصل ومثالها هذه الفقرة من مقال « جمعية نهضة القرى » [(١)] الذى يشيد فيه الزيات بجهود نخبة من شباب مصر النابه ممن أحسوا بعمق الهوة التى تردى فيها سكان القرى المصرية فهبوا يجاهدون البؤس فى عرينه ويقاومون الجهل فى مناقعه ، ويقرعون آذان المترفين وأرباب السلطان بقوارس الكلم وفوادح اللوم مطالبين بضرورة العناية بالقرية ، والاهتمام برعاية سكانها .

يقول الزيات فى جزئية من جزئيات ذلك المقال :

« ... راع الشباب — وهم موضع الحس الرهف من الأمة — ماجره تفشى

---

(١) وحى الرسالة ١ / ٢٢٦

الأمية على القرى المصرية من انقطاع السير ، وانخزال الحركة ، وانتشار العلل ، وانفجار الأحداث واغبرار العيش ... » .

وتأمل معى مكونات هذه العبارات المتتابعة :

انقطاع / السير
انخزال / الحركة
انتشار / العلل
انفجار / الأحداث
اغبرار / العيش

فستجدها مكونة كلها من متضايفين أولهما مصدر على وِزان « انفعال » كالأول والثانى والرابع ، أو « افتعال » كالثالث أو « افعلال » كالأخير . وهى صيغ متقاربة فى صورتها البنائية من حيث ابتداؤها بهمزة وصل يليها حرف ساكن ووجود ألف مد قبل حرفها الأخير . كما أن ثانى المتضايفين فى كل منها اسم مقترن بـ « أل » . ونلحظ أن الزيات لم يُعن فى هذه الأنساق بتوافق الفواصل بل عنى فقط بتوازنها .

الأخـــرى :

هى نوعية العبارات ذات الترسل الهادىء وقد استخدمها الزيات فى المواقف التى تتطلب السرد الوصفى الشارح ودلل بذلك على مهارته فى الأداء وبراعته فى توظيف إمكاناته التعبيرية فى مواضعها الملائمة دون أن يخضع لقوالب ملزمة أو رواشم متجحرة ، بل يصدر فى كل ما يكتب عن معين ثرّ ، فيه لكل صورة من صور الأداء رافد ، ولكل مقام من مقامات القول مقال يبرزه وإطار يناسبه .

ومن أمثلة ذلك تلك الفقرة من مقال « على الشاطىء »[1] وفيها يصف مشهد الشاطىء بما فيه ومن فيه يقول :

(١) وحى الرسالة ١ / ٤٦ .

« أكشاك أنيقة الصنع والوضع ، تدرجت طبقاتها الثلاث على حضن الشاطىء ، ومظلات شتى الألوان قد ركزت هنا وهناك في منحدر الساحل ، وجمع حاشد عار كسوق الرقيق في ألف ليلة وليلة قد بعثر أمام الأكشاك وتحت المظلات وفوق الرمال ، وبين المياه . وصراع لذيذ عنيف بين أفواج البر وأمواج البحر ، تتخلله صيحات وضحكات كرنين الفضة المصفاة ، وأحاديث كهمس الأوتار ، تطير من بين الشفاه البواسم ، كما تطير أنفاس الصبى الحالم : ولكنها لاتصعد إلى حيث يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح ... » .

والمسحة الهادئة بادية على صفحة العبارات ، وإن كان لها عند التأمل إيقاعها الخاص ، ولكنه لايشبه النوعيات التى عرضنا أمثلة لها فيما تقدم .

٣ ــ عنى الزيات كذلك بنوع آخر من الإيقاع المعنوى تمثل فى تقابل الجمل الذى يوضح المعنى ويعمق الإحساس به ، ويكشف عما ينطوى من مفارقات عنيفة ، وتناقضات حادة . ومن أمثلة ذلك قوله فى مقال « عيد الفقير »[١] يحكى قصة عامل « كان يشتغل مياومة فى مصلحة من مصالح الحكومة فلما قلّ عليه العمل استغنوا عنه ، ولكنه لسوء حظه لم يستطع أن يستغنى عن الأكل ، ولا أن يقنع أولاده بالصوم » .

وفى مقال « فتون وجنون »[٢] يصور الزيات مأساة أسرة من أصل ريفى ، أبطرها الغنى ، وأسلمت قيادها للبذخ والسرف ، حتى فقد عائلها كل ما يملك من ضياع ، وتعلق أمل الأسرة كلها بابنها الوحيد فعنيت بتعليمه ، وكانت الأم قد ورثت عددا من الأفدنة باعتها كلها على نفقات الابن وحاجات البيت . ولنتأمل تصوير الزيات لهذا الجانب من القصة المؤلمة بقوله :

« ... وكانت الأم تبيع كل سنة من سنىّ دراسة ولدها فدانا من أراضيها ، تنفق نصفه على المدرسة ونصفه على البيت **حتى خرج هو من كلية « حقوقه »** ، **وخرجت هى من كل حقوقها** » .

(١) وحى الرسالة ٢ / ٨ .

(٢) المرجع ١ / ٤٨٦ .

والتقابل المعنوى واضح من الفقرتين بين الجمل الموضحة .

٤ ـــ يبدو من تأمل إبداعات الزيات الأدائية أنها تعبر عن عاطفة قوية ، وخاطرة ملحّة . ومن ثم فهو يأتى بها رديفة للجملة أو الجمل الأولى الموضحة للمعنى ، ثم تكون هذه القطع المنغمة التى ترد بعد سابقتها الموطئة للفكرة فتشيع التأثير الساحر ، وتحشد النفوس وتستولى على الألباب . ومن دلائل ذلك الفقرة التالية وهى من مقال بعنوان « شيطان » [١] يبين فيه الكاتب خطر الاختلاط غير المحسوب بين الرجال والنساء ، وما يترتب عليه من فساد وهدم لصفو البيوت ، وعلائق الزوجية . يقول فى معرض تصويره لحياة الزوجين قبل أن يتسلل ذلك الشيطان إلى عشهما الوادع :

« عرفت زوجين شابين تعارفا بالجمال ، وتآلفا بالحب ، ثم عاشا على اختلاف الدار والجنس معيشة أهل الجنة : صفاء غير مشوب ، وولاء غير مكذوب ، ورخاء فى ظلال النعيم والأمن يبسط المشاعر ، وينشر الأنس ، ويجمل الحياة . كان الزوج مثلا فى الإخلاص والرعاية لزوجه ، فلا يفكر إلا فيها ، ولا يسعى إلا لها ، ولا يفهم وجوده إلا مضافا إليها أو متصلا بها . وكانت الزوجة آية فى الوفاء والطاعة لزوجها تقاسمه همّ العمل ، وتساهمهُ دعة المنزل ، وتبادله رجاء المستقبل ، وتتقلب معه فى الشدة والخفض غير متبرمة ولا متجهمة ... » .

فالجمل الموطئة للفكرة تبدأ من مطلع هذه الفقرة إلى قوله « .. معيشة أهل الجنة » والجمل التى أتت بعد ذلك علت فيها نغمة التوقيع والتوازن لتعمق إحساس القارىء بطبيعة العلاقة الحميمة بين الزوجين وتشرح مبلغ الصفاء والألفة والتفانى الذى نعما فى كنف ظلاله الوارفة ... وذلك كله تهيئة ذكية من الكاتب لتعميق إحساس القارىء بخطورة ما حدث لحياتهما من تغيير بعد أن مكّنا لوافد السوء ، فأحال صفوهما كدرا ، وهناءتهما تعاسة وشقاء .

٥ ـــ لم تقف عناية الزيات بهندسة العبارة عند حد الجملة أو الجمل المتتابعة

---

(١) وحى الرسالة ١ / ٤٦٤ .

فى الفقرة الواحدة، بل تجاوزت ذلك ـــ فى بعض مقالاته ذات الايقاع العاطفى الصاخب ـــ بمراعاة هندسة الفقرات التى يتألف منها المقال جميعا .

ومن أمثلة ذلك مقال « هبى يا رياح الخريف »[1] وهو من النمط الرمزى الذى يناجى فيه الزيات الطبيعة وهو يرمى من ورائه إلى تصوير إحساسه بإرهاصات التغيير التى بدت فى الأفق بعد أن استحكم الداء واستفحل الخطب وعم السخط قبيل ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ م . وفيه يقول :

« هبى يا رياح الخريف هبى ! هبى وحطمى هذه الأشجار الغلاظ التى تأكل خير الأرض ، وتحجب نور السماء ، وتقطع سبيل الناس ، ولا تحمل إلا شوكاً من غير ثمر ، وخشباً من غير نفع ، وخضرة من غير جمال ! .

هبى يا رياح الخريف هبى ! .. هبى واهدمى هذه الأوكار القباح التى اتخذت أشكال القصور وانتحلت أسماء الأندية ، فباض فيها الشر باسم السياسة ، وفرخ فيها الفُجر باسم الرياضة ، وأوت إليها أبابيل من البوم التى تعلن الخراب ، والخفافيش التى تمج الظلام ؛ والغربان التى تذيع الفرقة ، فلا نرى فيها ولا نسمع منها إلا خمراً تعربد ، وقماراً يصطرع ، وترفاً يفسق ، وسرفاً يدمر ! .

هبى يا رياح الخريف هبى ! .. هبى واكسحى هذا الغثاء العفن الذى زكم الطرق وسد المسالك مما فنى من الجذوع ، وبلى من الفروع ، وذيل من الأوراق ، فأصبح شوهاً فى الأعين وثقلاً فى الأرجل، ثم لايكون إلا إذا عطنه الماء وإلا قذى إذا أثاره الهواء ، وإلا لظى إذا مسته النار ! .

هبى يا رياح الخريف هبى ! هبى واقشعى هذا السحاب المتراكم الذى ارتفع ارتفاع الدخان ، وانتفش انتفاش العهن ، فحجب الشمس ، وحصر الأفق ، وأحر الأرض ، ثم لا نجد من ورائه مطراً يدفع الجدب ، ولا ظلاً يمنع الحرور ! .

هبى يا رياح الخريف هبى ! .. هبى واقلعى ذلك النبات الدنىء الذى يتطفل على أشجار الوادى ، فيتغذى على أصولها ، ويتسلق على فروعها . حتى إذا أدرك

(١) وحى الرسالة ٤ / ٤٤ .

الهواء والضياء والرفعة ، التف بعساليجه وكلاليبه على أعاليها التفاف الأفعوان ، فيكظم أنفاسها فلا تبسم ، ويشل حركتها فلا تميس ، ثم يقول مشيراً بأطرافه الرخوة إلى كل عابر : انظر ! ألست أنا الأمير وهذا الشجر هو الفلاح ؟ وإذا لم يسخر الله لى الشجر فكيف أنمو ؟ وإذا لم يسخر الفلاح للأمير فكيف يسمو ؟

هبى يا رياح الخريف هبى ! .. هبى واعصفى بما ذكرت وما لم أذكر من زبد يقول إنه زُبد ، وسراب يزعم أنه شراب ، وحطام مختلف من بقايا الشعوب والخطوب والعقائد والحضارات والأساطير يدعى أنه أمة ! » .

وبتأمل نسق الفقرات فيه نجد أن كلا منها يبدأ بعبارة : هبى يا رياح الخريف هبى .. هبى .. ثم تلى هذه اللازمة المتكررة فى بداية كل فقرة جملة فعلية أمرية فعلها مسند لياء المفْردة المخاطبة . وكل فعل منها يعطى معنى التغيير والإزالة . فجميعها تتعاون على التعبير عن السخط على الواقع الكئيب ، والرغبة الغالبة فى تغييره . وذلك واضح فى قوله :

هبى وحطمى .. هبى واهدمى .. هبى واكسحى .. هبى واقشعى .. هبى واقلعى .. هبى واعصفى ..

* * *

ثالثاً : الصـــــورة

الصورة فى التعبير الأدبى هى نفحة الخيال المبدع الذى يلوذ به الأديب ليحمل عنه رسالته الشعورية الملحّة ، ودفقاته العاطفية القلقة .. والكاتب المجيد تعود براعته إلى أنه يتقن التحليق بخياله فى آفاق الرؤى الشفافة ، فيجمع بين المتَباعدات ويلمّ شتات الخواطر ، ويربط بين الأحداث والمواقف ، مؤلفاً من نثارها المتفرق لوحات وجدانية متآلفة ، تفسر الظواهر ، وتصارع المشكلات ، وتحلّق فَوق ركام الواقع الممضّ ، وتتجاوز زحام الحياة الصاخب ، فى طفرات متأبية تستعصى على الرضوخ والسكون ، وتصبو للتحرر والانطلاق .

لقد وظّف الزيات فى مهارة ملكة التخيّل اللاقطة عنده ، وقد أشرنا فى حديثنا عن « الزيات وأدب المقالة » إلى أن كاتبنا كان دقيق الحس لكل مايحيط به من صور الحياة ، شفيف الرؤية ، لمّاح البصيرة ، وقلنا إن المرائى التى تفتحت عينه عليها منذ نشأته الأولى ، والصور التى اختزنها فى قرارة مخيلته كانت رصيداً هائلا أَمَدَّ قلمه المفتن ، وموهبته المعطاءة بفيوض من الصور وغرائب معجبات من البيان .

وللزيات فى مجال التصوير الفنى ابتكارات وأفانين أبدع فيها وبلغ الغاية فى الأداء القوى عن طريقها . وجريا على منهجنا المعهود فى الإيجاز والإبراز ألخص مالاحظته على الصور فى أسلوبه فى النقاط التالية :

١ ـــ أبدع الزيات وافتن فى إيراد الصور الجزئية المقتضبة التى تنتشر فى عباراته فتشع فيها الحيوية والنضرة ، وتضفى على الجملة فى سياق مقالاته مسحة فنية آسرة ، وطابعا أدبيا أخّاذاً . ولا تكاد تخلو مقالاته الكثيرة من تلك الصور النابضة حتى فى أكثر جوانبها تقريراً وموضوعية .

من ذلك على سبيل المثال الفقرة التالية وهى من مقال « **فقهاء بيزنطة** »[١] وينحى فيه الكاتب **باللائمة** على بعض أدعياء الفقه والعلم بالدين الاسلامى من أهل عصره ممن شغلوا أنفسهم بتوافه لا غناء فيها ، ولا منفعة ترجى من ورائها ، فشوّهوا حقائق الدين فى أذهان الناس وكانوا كمتفلسفة بيزنطة جدلهم عقيم ، ومنهجهم سقيم . يقول :

« وفقهاء بيزنطة هم الذين يجادلون اليوم فى محراب المسجد بعد ألف ومائتى عام . أهو سنة فيبقى ، أم بدعة فيزول ، وفى محمل شجرة الدرّ[٢] أهو موافق للشرع فيسير ، أم هو مخالف له فيقف ! يجادلون فى هذا وفى ذاك بين أعمدة الجرائد والمساجد ويسرفون فى الجدال حتى يتشعب الخلاف ويتمادى ويتقسم الرأى

(١) وحى الرسالة ٢ / ١٧٥ .

(٢) يعنى كسوة الكعبة المشرفة التى كانت تصنع فى مصر وترسل للحجاز فى موكب حاشد وأول من فعل ذلك شجرة الدرّ .

ويتعادى ، فيكون لكل شيخ شيعة ولكل شيعة عصبية جاهلة تمزّق ما وصل الدين به القلوب من وشائج الإخاء والمودة » .

فهذه الفقرة على الرغم من أدائها المباشر وتقريريتها البادية لم تخل من بعض الصور الجزئية المعبرة مثل التشخيص التصويرى للمعنويات والتعبير عنها كما يعبر عن المحسّات فى قوله « أهو موافق ... فيسير ، أم هو مخالف ... فيقف » وفى قوله « يتقسم الرأى ويتعادى » وقوله : « تمزق ما وصل به الدين بين القلوب من وشائج الإخاء والمودّة » .

٢ — أجاد الزيات أيما إجادة فى تركيب الصور الحاشدة ، ورسم اللوحات الحافلة بالألوان والظلال والأضواء . وتتشعب هذه الصور المؤلفة ، والمشاهد الموحية إلى أنواع شتى منها :

(ا) الصور الموحية التى تبرز الشعور وتنشر حرارة العاطفة وحدتها . مثل هذه الفقرة من مقال « يا أذن الحقّ اسمعى » [1] وفيها يصور شقاءه بانصراف المترفين الموسرين عن دعوته النبيلة التى جهد من خلالها فى لفت الأنظار إلى ألوان البؤس والمعاناة التى يرزح المحرومون تحت نيرها الظالم .. يقول :

« ... ولكنى علمت واحسرتاه بعد شهرين مضيا فى الشكوى والاسترحام أن بين أبناء الذهب وأبناء التراب أطباقا من اللحم والشحم والحديد والاسمنت ، ترتدّ عنها أصوات الضارعين أصداء خافتة ، ثم تتجاوب هذه الأصداء فى أكواخ المساكين ، ثم تتهافت على بريد « الرسالة » تهافت الأرواح الهائمة على الشعاع الهادى تتلمس فى ضوئه الطريق إلى الله وائل الضعيف وعائل المعدم ! » .

فتأمل هذه الصورة التى بلغت الغاية فى الروعة والدقة صورة أصوات الضاجين بالشكوى من سوء ما هم فيه ولكن شكواهم تحجبها عن أسماع المترفين موانع صفيقة من « اللحم والشحم والحديد والأسمنت » تحول دون وصولها فترتد عائدة من حيث أتت . هائمة تطلب القرار ، يجاوب بعضها بعضا لدى أكواخ

(١) وحى الرسالة ٢ / ١٤ .

المساكين فيبدو لها شعاع « الرسالة » تلك المنارة السامقة التى تبنت قضايا البؤساء ، ونثرت على الأسماع والأبصار ألوان الحرمان فتتعلق تلك الصرخات الشاكية بذلك الشعاع الهادى عساها تجد بعد رحلتها الحائرة مرفأ تلوذ به ، وقد بلغت ما أمّلت ، فمع أنها لم تصل إلى أسماع المترفين فحسبها أنها لاذت بحمى رب العالمين « وائل الضعيف وعائل المعدم » .

وفى مقال « الطفولة المعذبة » [1] نجد صوراً عديدة تشبه ماتقدم منها الصورة التى رسم فيها الزيات مصير الأطفال المشردين فى نهاية تَطْوافهم اليومى العاثر ، وكيف يبيتون عرايا متطرحين على الأفاريز وفى جنبات الشوارع يقول :

« فإذا أغلقت القهوات ، وهجعت المدينة تساقطوا من السغوب واللغوب على العتبات وفى الحنايا ، وتحت الجدر ، فيقضون آخر الليل يتداخل بعضهم فى بعض كما تتداخل خراف القطيع إذا عصفت الريح أو قرس البرد » .

وللزيات مقدرة عجيبة على تصوير البؤس وتشخيص المعاناة ، وفى ذلك أبين دليل على بلوغه الغاية فى ميدان الإصلاح الاجتماعى ، فهو بهذا الإلحاح الدافق والتصوير المعبر يجعل من قضية هؤلاء المحرومين سُبَّة فى جبين كل مسئول وعاراً على هامة كل شحيح غارق فى الترف .

(ب) أتت صور الزيات فى كثير من الأحيان منبعثة من الخيال المجمع الذى يربط الظواهر ويلتقط العلائق ، ويتفرس الدقائق المتشابكة ، التى يغفل عامة الناس عن إدراك وشائجها وجمع نثارها ، بيد أن بصيرة الأديب اللماحة تهتدى إلى أطراف خيوطها ، وتجمع فى مهارة بينها ، فى حركة موصولة ، وجهد دءوب ، لتشخيص أدواء المجتمع ، وتلمّس الدروب المؤدية إلى أجواز المستقبل الأمثل .

وتأمل معى هذه الفقرة من مقال « على الشاطىء » [2] الذى تقدمت الإشارة إليه وفيه يعالج الزيات ظاهرة العرى على الشواطىء ويقرر فيه أن الخطأ فى ذلك

(١) وحى الرسالة ٢ / ١٧ .

(٢) وحى الرسالة ١ / ٤٦ .

التصرف لايقتصر على المرأة وحدها بل يشركها الرجل فى الإثم والتقصير . يقول فى ختام المقال مصوراً فكرته موحيا برأيه ، منهيا حواره مع تلميذته التى صادفها على الشاطىء :

« أستودعك الله يا آنستى وأُسلّم على أبيك وأخيك ، ثم أخذت طريقى على الشاطىء الشهوان وفى نفسى كلام حبسته . على أن من الظلم الموروث أن الرجل يشارك المرأة فى الذنب ثم يفردها بالعقوبة !! فالأب يقود ابنته عارية إلى الشاطىء ، والزوج يجلس مع زوجته عارية على المقصف ، والأخ يتعرى مع أخته فى « الكشك » وفى البحر ، ثم يندلع لسان النقد على المرأة وحدها ، فيتهمها بخنق الفضيلة ، ويرميها بذبح الخلق ! .

يا قوم لقد فتّشتم فى الشواطىء كثيرا عن حياء المرأة ففتّشوا فيها ولو قليلا عن نخوة الرجل !! » .

فى هذه الفقرة ألوان من التصوير : منها الصور الجزئية البارعة مثل قوله : « يندلع لسان النقد » ، وقوله : « ... خنق الفضيلة ... وذبح الخلق » ، ومنها الصورة التعريضية الدالة فى قوله : « وأسلم على أبيك وأخيك ... وفى نفسى كلام حبسته » فهى تلمح إلى اتهام الكاتب لأبيها وأخيها بالتقصير ، وتشعر بأن الكلام الذى حبسه الكاتب فى نفسه فحواه اللعن والتحقير للأب والأخ اللذين سمحا للفتاة بهذا السلوك الشائن . وأخيرا منها الصورة البارعة فى قوله : « فتّشتم ... كثيرا عن حياة المرأة ، ففتشوا .. ولو قليلا عن نخوة الرجل » وهى التى عنيتها هنا فى هذه الجزئية ، إذ تربط فيها مخيلة الزيات ببراعة بين حياء المرأة المضيّع ، ونخوة الرجل الغائبة ، وتفسر جانبا من رأى الكاتب فى مشكلة تبذل المرأة على الشاطىء ، ورؤيته لأبعاد المسئولية عن ذلك السلوك المنافى لآداب الدين ، وتقاليد البيئة ، وفضائل الفطرة .

(جـ) اتسمت بعض صور الأسلوب عند الزيات بالرسم الساخر والتصوير التهكمى اللاذع ، وبهذه الخاصية تبرز مواطن الخلل فى الشخصات التى ترسمها

الصورة أو المواقف التى تشخصها ، فتغدو النقائص ماثلة ، والرذائل مكبرة ، وتتضح من خلال ذلك كله أبعاد الانحطاط .

ففى مقال « من مخلَّفات الحرب »[1] يصور أديبنا سلوك « الطبلاوى أفندى » أحد أغنياء الحرب الأدعياء ، مبرزاً كيف أفسد الغنى حياته ، وبدد شمل أسرته ، وأبان وضاعة أصله ، وسفولية معدنه . فيقول ــ بعد أن سرد خبر ماضيه الناطق بالبؤس والهوان مصوراً حاضره الناضح بالبطر والإتلاف :

« ... ومنذ رحلت جيوش الحلفاء خلع « الطبلاوى » رداء العمل ، وحشر نفسه فى صفوف المترفين والعلية فلفف جسمه بالحرير ، وختّم أصابعه بالماس ، وعدّد الألوان الفاقعة فى بدلته وحذائه ، ثم خلّى جسمه المنهوم يضخم ويسترخى وينبعج جانباه ، وترك شاربه الخشن يغلظ وينتفش ويطول سبالاه ، ثم اقتنى الضياع والعقار ، وركب « الرولزرايز » و « البكار » . وكان يطلب الأغلى من كل صنف ، والأعلى من كل شيء . حتى تحدث الظرفاء عنه بأنه استشار الطبيب فى مرضه فأشار عليه باستعمال فيتامين بيه (B) فقال له ولم لاتشير على باستعمال فيتامين باشا ؟ وأنه طلب إلى مصور أن يرسمه فسأله : أتريد الصورة بالزيت ؟ فقال له : كلا . بل أريدها بالسمن . وأن طبيب الأسنان أراد أن يصنع لأحد أضراسه المنخورة غلافا من الذهب فطلب إليه أن يصنعه من الماس ! ... » .

ونغمة السخرية واضحة فى هذه الفقرة ، وقد عمد الزيات من خلالها إلى إبراز ألوان الانحطاط وسوء الخلق وصنوف الفساد والإفساد الذى تخلفه الحروب وتتمخض عنه ، إذ تدفع بطغمة من المنحرفين والجواسيس ، ممن كانوا يتصلون بالانجليز ويشتركون معهم فى أعمال مشبوهة ويستغلون الضائقة التى ألمت بجمهور الشعب ليحققوا ثروات طائلة يبددونها فى العربدة والعبث فى حين يشقى بويلات الحرب الشرفاء العارقون وهم السواد الأعظم من أبناء مصر الأوفياء .

(١) وحى الرسالة ٣ / ٨٣ .

الفصل الرابع

مقالات الزيات الاجتماعية فى الميزان

أشرت فى تقديمى لهذا الكتاب إلى أن أهم ما حفزنى لتناول هذا الموضوع ما لاحظته على معالجات الزيات الإصلاحية من أصالة وموضوعية رأيت أنها ضرورة تفتقدها كثير من كتابات المقاليين فى عصرنا الحاضر ، وهدفت من تجلية منهج الزيات فى تناول قضايا الإصلاح الاجتماعى لفت الأنظار إلى ذلك النمط المتعقل والمنهج القويم والخطة القاصدة .

ولعلى بما قدمت أكون قد وُفقت فى إبراز هذه الميزات وتجليتها للقراء ، وإذا كان لى أن أعقب على هذا الجهد الكبير الذى بذله الزيات فى معالجة قضايا الإنسان والمجتمع فإنى أوجز ذلك فى هذا الفصل الأخير وسيرى القارىء أن التعقيب يتوزع على أفكار رئيسية ثلاث هى :

١ ــ تقويم أداء الزيات وإلقاء الضوء على دوره فى الإصلاح .

٢ ــ إبراز الملامح العامة لإجادته فى طرح موضوعاته وبث أفكاره .

٣ ــ استعراض آراء وأعلام الفكر والأدب فى مقالاته . ومناقشة الانتقادات التى وجهت إلى أسلوبه .

* * *

أولاً :

أستطيع أن ألخص هنا للقارىء مجمل ما أراه حول قيمة كتابات الزيات الاجتماعية ودوره فى الإصلاح والتوجيه فى النقاط التالية :

١ — اتّسمت كتابات الزيات بالموضوعية ، وارتكزت على دعائم صلبة قوامها : الإخلاص لقضايا الأمة ، والتفانى فى البذل رغبة فى تحرير العقول ، والجهد المذكور فى ملاحقة العيوب ، والحملة على السلبية فى مختلف الميادين .

٢ — الترفع عن صغائر الأمور والاستشراف للمعانى العليا والأهداف السامية بعيدا عن الدوافع الذاتية الضيقة أو المآرب الشخصية .

٣ — التواضع الجم والعزوف عن الادعاء والمكاثرة بما يكتب ويبدع — على الرغم من نفاسته وبعد أثره — فلا موضع فى كتاباته للطنطنة الفارغة ، ولا أثر فيه لحب الظهور أو الرغبة فى الشهرة ، أو العمل على اكتساب الأمجاد الشخصية .

٤ — اعتمد الكاتب فى نتاجه على حصيلة ضخمة من المعرفة ، ورصيد هائل من الثقافات ، ودراية محيطة بأبعاد المشكلات ، وتأمل عميق لجذورها ، واستنباط واع دقيق لوسائل العلاج .

ولا ريب أن نبل الغَاية ، وشرف المقصد ، ووقدة الحماس ... كل ذلك لاينهض بالمهمة العظمى التى تناط بالاصلاح عن طريق الكلمة المؤثرة ، إذ لابد أن يواكبها — بل يسبقها — تحرير أصيل للمشكلات ، وفكر رشيد يرصد أبعادها وتداخلاتها ، وقد امتلك الزيات مفاتيح تلك الميزات كلها فأتت معالجاته قمة فى بابها ، وعلامة بارزة فى مجالها ، على نحو لم يسبق إليه — فى اجتهادى — ولم يلحق فيه حتى وقتنا الحاضر .

٥ — حدد الزيات فى كتاباته الإصلاحية هدفه ، وكان موضوعياً فى تقدير مهمته ومعرفة دوره ، فهدفه كما يستشف من معالجاته الكثيرة . الإصلاح والتنوير ، وسبيله إلى ذلك : النضال الأدبى ، وسلاحه : الفكرة الصحيحة ، والرأى السديد ، والكلمة المؤثرة ، وقد رأينا أنه امتلك أزمّة هذه الأدوات ، وأدى دوره المنشود على أكمل وأروع ما يكون الأداء ، أما انعكاس ذلك النضال على واقع الحياة وأثره فى القضاء على السلبيات فلم يكن من مقاصد الزيات أن يتعجل له النجاح أو يلتمس لتحقيقه السبل ، فهو داعية إصلاح لا زعيم ثورة ، ورسالته

تتمثل فى التوجيه والتبصير . ولعلنا لمسنا ذلك من تحليلنا لبعض مقالاته إذ رأيناه يلح على ذلك المعنى فى مقال : « لا تقولوا أين الكتاب وقولوا أين القادة » ومقال : « يا أذن الحى اسمعى » فلم تكن الكتابة لديه هى الغاية وإنما الغاية هى الاصلاح والنهوض وتجاوز السلبيات ، وقد أكد الزيات كثيرا فى كتاباته على أن علة العلل فى سلوكنا واتجاهاتنا هى كثرة الكلام وقلة الأفعال ، والولوع بالنقد والشكوى والسخط دون أن نسعى حثيثا للعمل المثمر الذى نغير به واقعنا المؤلم ، وأوضاعنا المتداعية .

وفى ذلك أبين دليل على أن الزيات كان يحمل بين جنبيه روح المصلح ، وهمة المناضل ، وبلاء المجاهد ، ولم تكن تشغله نجاحاته الشخصية عن غاياته الكبرى التى استهدفها من كتاباته وبخاصة فى ميدان الاصلاح الاجتماعى .

٦ ـــ حرص الزيات انطلاقا من قناعته بأهمية دوره وتحديد مجال نضاله على الاضافة المستمرة ، والتجديد الدائب فهو على الرغم من استواء فكره ونضج آرائه كان مشغولا دوما بالإتيان بالجديد من الفكر والرأى ، يثرى به كتاباته ، ويشحذ به همم قرائه ، فى محاولات جادة للبحث عن أطواق النجاة التى يرجى أن تتخلص الأمة بوساطتها من وهدة الضياع ، وغفوة الهمود .

ولم يقتصر جهد الزيات فى ذلك على ما يكتبه هو فى الرسالة بل جعل الجديد هدفا منشوداً فى سائر ما ينشر على صفحاتها ويقبل ممن يكتبون فيها ، مهما بلغت شهرتهم ومكانتهم لدى الناس ، وقد ذكر الدكتور محمد رجب البيومى أن الزيات فى إدارة مجلة الرسالة كان كالمعلم فى حجرة الدراسة يقوم بتصحيح مايقدمه للقراء ، ولم يكن يعتمد على الصيت المدوّى والشهرة الذائعة فى تيسير النشر ، وتقبّل ما يكتب على غيْر وجهه ، وقد شكا الدكتور زكى مبارك فى حديثه ذى الشجون من رقابة الزيات وذكر أن صنيعه معه يذكّره بعهد التلمذة وكان الزيات لايرضى بالمقالة التى يقتصر كاتبها على الجمع الحاشد دون أن يضيف الجديد ... » [1] .

(١) أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد الأدبى . ص ٢٣٦ (بتصرف واختصار)

٧ ــ صدر الزيات فى نضاله الأدبى عن قناعة بدور المعالجة الأدبية الصادقة فى النهوض وأهميتها البالغة فى التغييرات الكبرى التى تحدث فى حيوات الأمم ، وفى تقديرى أن الشعلة الإصلاحية التى حملها الزيات على امتداد سنوات العطاء قد أثمرت ثمرات مذكورة ، وأشاعت مزيدا من الأضواء الهادية ، وكوّنت رأيا عامًّا قويا مؤمنا بضرورة التغيير ، مقتنعا بالأفكار التى طرحها الكاتب . ومن ثم فإن بإمكاننا أن نقرر فى اطمئنان أن جهود الزيات لم تذهب سدى ، ولم تضع صيحاته بددا .

ومن أبرز الشواهد على ذلك أن مجمل مبادىء الثورة المصرية التى غيّرت وجه الحياة فى مصر والعالم العربى وأفريقيا مع بداية النصف الثانى من القرن العشرين ــ كانت من أهم ما حرص الزيات على الدعوة إليه فى كتاباته الاجتماعية وجهد فى تقريره وإقناع الناس به ، وحث الهمم على تحقيقه . ويتضح ذلك ــ بصفة خاصة ــ فى مقالات كثيرة توحى بتوقع كاتبنا العبقرى لبوادر التغيير وإرهاصات الثورة منها المقالات التالية : « تغيير » ــ « ربيعك فى نفسك » ــ « متى يثور الفلاح » « هبى يا رياح الخريف » .

ثم تتأكد هذه الحقيقة فى مقالات الزيات المنتشية التى بارك فيها الثورة وأشاد بإنجازاتها فى تحطيم الاقطاع والقضاء على الطبقية ، والتخلص من السيطرة الأجنبية ومنها مقالات : « ثورة فيها روح النبوة » ــ « نصيب قريتى من الثورة » ــ « تجلد يا قارون » . وغيرها .

وإذا كانت سجلات ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ م لم تثبت اسم أحمد حسن الزيات بين زعمائها فهو فى تقديرى من أهم جنودها « المجهولين » !! .

ثانياً : البراعة فى طرح الموضوعات وبث الأفكار :

عالجت فى الفصول الثلاثة المتقدمة من هذا الباب دقائق أسلوب الزيات ، وخصائص أدائه فى فكره وعاطفته وألفاظه وعباراته وصوره ... وتبقى بعد ذلك كله ميزات عامة أرى أنها من الأهمية بحيث لايصح أن أطوى هذه الصفحات

دون الإشارة إليها . وسألخصها هنا فى جانبين :

الجانب الأول : تنويع الإطار العام للمقالات .

الجانب الآخر : دلالة العنوان .

(ا) تنويع الإطار :

من الظواهر التى تستلفت النظر فى مقالات الزيات — بصفة عامة — أنه حرص على إبقاء الأداء الفنى فيها حيًّا متجدداً فعلى الرغم من أن المقال يمثل فنا من فنون النثر قائما بذاته ، كالأقصوصة والقصة والرواية والمسرحية — إلا أن الزيات كان يمزج فى مقالاته بين طرائق هذه الأجناس ، فنراه يستعير لمقالاته فى بعض الأحيان إطار الأقصوصة أو الحكاية وأحيانا يستخدم إطار الحوار الذى هو خاصة المسرحية وقد ساعده هذا التراسل الذى أجاده وبرع فى توظيفه على جدَّه الأداء وطرافة التناول وابتعدت مقالاته بذلك عن الإملال والرتابة . ولعله وجد أن من حسن الرأى ألا يسير فى مقالاته على نمط أوحد لايتعداه لكثرة ما كان يعالج الكتابة وامتداد سنوات العطاء .

وقد وضحت لنا تلك السمة من خلال استعراض بعض مقالاته فيما تقدم . وتكفينا هنا الإشارة إليها . ففى مقال « منطق الغنى » نجد إطاره العام حوارى من بدايته إلى نهايته ، ومقال « على الشاطىء » أكثره بأسلوب الحوار ومقالات : « داء الوظيفة » — « مثل من الشباب الصالح » — « حلم ليلة صيف » — « من مخلفات الحرب » — « شيطان » إطارها العام هو إطار الأقصوصة . هذا إضافة إلى مقالاته الأخرى التى يصطنع فى بعضها إطار الوصف وفى بعضها الآخر إطار السرد المباشر ، وكأن الزيات بذلك التنّويع يجمع فى كتاباته بين الميزات الفنية للمقال وميزات الفنون النثرية الأخرى كالقصّة والمسرحية .

(ب) دلالة العنوان :

وهى ميزة بارزة فى مقالات الزيات . تؤكد فلسفته الخاصة التى أوضحها فى

مقال له بعنوان « وللأمم أيضاً من رجالها عناوين »[1] بقوله :

« ... واختيار العنوان نصف الموضوع ، لأن الكاتب لايسمى موضوعه إلا إذا تولد فى ذهنه ، وتحقق فى خياله ، وتشخّص فى نفسه . وأنا بالذات أدخل الموضوع من عنوانه ، فهو بابه ولُبابه ... » .

ويحلل الزيات فى بحث طريف أساليب القدماء والمحدثين حتى عصره فى اختيار العنوان وعلاقة ذلك بأنماط الفكر وطابع الحياة يقول :

« ولعناوين الكتب فى تاريخ الأدب فصل طريف .. كان العلماء والأدباء فى القرون الثلاثة الأولى من العصر العباسى يتوخون فى عناوين كتبهمُ الوجازة والبساطة والوضوح ، فيقولون مثلا . الموطأ . البخلاء ، الأغانى ، الكامل . فلما أقبل القرن الخامس كان العرب قد استبد بهم سرف العيش وترف الحضارة فتأنقوا فى الزينة وتفننوا فى الزخرف وسرى ذلك إلى الكتاب فبالغوا فى توشية الأسلوب بالسجع والجناس ، وتمويه المعانى بالزيف والبهرج ، ورسموا بألوان البيان والبديع صوراً من النثر والنظم عجيبة ، فيها المادة وليس فيها الروح ، وفيها الصنعة وليس فيها الفن ، ونفضوا من تلك الأصباغ على عناوين الكتب فقالوا : الشعور ، بالعور . مشتهى العقول ، فى منتهى النقول . نكت الهميان ، فى نكت العميان . تبييض الصحيفة ، فى مناقب أبى حنيفة ، الشماريخ ، فى علم التاريخ . الجواهر المفتخرة من الكنايات المعتبرة . فتح المقال فى وصف النعال . وانتقلت عدوى هذا الداء من الأدب إلى العلم فقالوا : التفاحة ، فى علم المساحة . نخبة الأذكياء ، فى علم الكيمياء ، الآيات البينات ، فى علم النباتات . المصباح الوضاح ، فى صناعة الجراح . الاستكشاف العصرى ، فى الدمّل المصرى . وجمع بعض المتأخرين من فقهاء الأزهر بين التكلف والسخف فى عناوين كتبهم فقالوا : ألف سيخ ، فى عين من حرم أكل الفسيخ . القول المحقق ، فى تحريم البن المحرق . أكل الرز ، فى حل اللغز ! .

(١) فى ضوء الرسالة ص ٩٠.

وكان صديقنا المغفور له محمود زناتى مولعا بتتبع هذا الضرب من العناوين ، يحكيه ويحاكيه على سبيل لتفكه كأن يتهكم أو يهجو أو يهدد بعنوانيضعه على ذلك النمط لمشروع كتاب فيكون العنوان نفسه خلاصة رأيه ومنطوق حكمه . فمن عناوينه التى يجوز أن تنشر فى صحيفة أن معابثة وقعت بيننا وبين صديقنا طه حسين فى يوم من أيامنا بالأزهر ، فقال له محمود مهددا : سنؤلف نحن الاثنين رسالة فى ذمك نجعل عنوانها : أرسلاها ، فى طه » .

ولم تبرأ عناوين القصص المترجمة من علة السجع والجناس فقد عنون المرحوم عثمان جلال قصة (بول وفرجينى) بهاتين الفقرتين : تمر حنة ، فى قبول وورد جنة يريد بقبول (بول) وبورد جنة (فرجينى) . ورأى بعض الصحف فى العهد الماضى أن من جمال الإخراج الصحفى أن تلتزم السجع فى عناوين الأخبار . وأخذت جريدة (مصر) نفسها بهذا الالتزام أخذا شديدا ، فكانت تبذل من الجهد فى تسجيع العناوين ، أكثر مما تبذله فى تسقط الأخبار نفسها من الأقاليم والدواوين .. يحضرنى منها على سبيل المثال قولها : مجلس الوزراء يجتمع فى السادسة من المساء . بقايا حكم الكرباج ، فى مديرية سوهاج . دعاه إلى تناول الفطور ، ثم انهال عليه بالساطور . زرّاع القصب ، فى منتهى الغضب ، يسرقون البقر والأغنام ، ولايخافون عين الرب الذى لا ينام ! .

ثم تخفف أسلوب العصر رويدا رويدا من أثقال الزخرف الكاذب حتى عاد أشبه بمنبعه الأول فى صفاء لفظه وخلوص بيانه ، فذهبت عن العناوين تلك الغثاثة وأصبحت فى الكتب والصحف نوعا من الكلم الجوامع تجمع بين الايجاز والتشويق والبساطة » .

* * *

ومن أهم الدلالات التى تستفاد من عناوين مقالات الزيات ما يلى :

١ ـ التعبير عن المضمون والإيحاء القوى به .

ويتمثل ذلك فى أكثر مقالاته ، إذ يجد القارىء فى عناوينها رسما دقيقا لفكرتها ، بحيث يغدو العنوان سمة مميزة للأفكار التى يعالجها الكاتب فى نطاقه ، ويصير مقدوداً على قدرها معبرا عنها مصورا لأبعادها ، لصيقا بها .

من ذلك ـ على سبيل المثال ـ مقال : داء الوظيفة الذى سبق عرضه فى أكثر من موضع . فالعنوان يدل دلالة قوية على مضمون المقال ، ويلخص رأى الاتب فيه ، ففى رأى الزيات أن الولوع بالوظائف الحكومية والحرص عليها ونيل الشهادات من أجلها مرض من الأمراض التى استقرت فى أفهام كثيرين من المصريين ، والمرض أو الداء كما عبر الزيات يرجى له الشفاء ويبحث له عن الدواء . وهذا ما يؤكده المقال إذ يبين مساوىء الوظيفة الحكومية وقيودها وآثارها المدمرة على مستقبل الموظف من قتل الطموح وتقييد الحرية الشخصية ووأد بواعث الابتكار ، وإخماد جذوة النشاط والانطلاق .

ومن المقالات التى تندرج تحت هذا الأصل مقالات : « لا تقولوا أين الكتاب وقولوا أين القادة » ـ « قروية فيلسوفة » ـ « فدائيون وأنانيون » ـ « تجلد ياقارون» .

٢ ـ التساؤل الحائر :

وهو يخلص المشكلة ويعطف القارىء نحوها ويوحى برأى الكاتب فيها ، ويتضمن إلى ذلك عنصر التشويق وإثارة الاهتمام . ومن أمثلة ذلك عناوين مقالات : « كلكم حواريون فمن يهوذا ؟؟ » ـ « هل لأغنيائنا وطن ؟؟ » ـ « ضحية من هذا ؟؟ » ـ « هل خصب الأرض يستلزم جدب القرائح ؟؟ » ـ « متى يغضب الفلاح ؟؟ » .

٣ ــ الصورة الموحية :

وقد يصوغ الزيات عنوان مقاله فى إطار تصويرى معبر ، يكشف عن رغبة ملحة لدى الكاتب فى التخلص من ظاهرة مقلقة أو تحقيق مطلب إصلاحى غالب . ومن أمثلة ذلك عناوين مقالات : « ليت للأوقاف عينا ! » ــ « بل ليت للأوقاف قلبا ! » ــ « شيطان » ! ــ « الطابور الخامس فى حرب الكوليرا ! » .

٤ ــ التلويح لمعنى مستوحى من التراث :

وفى تلك الحالات يستعين الكاتب بدلالة تلك العبارة التراثية المعروفة للقارىء ، فيسهم ذلك فى تجلية الفكرة والإقناع بها . ومن أمثلة ذلك عنوان مقال : « يا أذن الحى اسمعى » فهو مأخوذ من البيت الشعرى المشهور :

لقد أسمعت إذ ناديت حيا　　ولكن لا حياة لمن تنادى

والمقال كله يشعر بهذا المعنى ويؤكده ، إذ لم يعد هناك من يسمع شكوى الكاتب المتكررة حول معاناة البؤساء فى المجتمع وضرورة مواساتهم . ويدخل فى هذا عناوين المقالات : « لا إله اليوم إلا الهوى » ــ « يا أغنياءنا قولوا أسلمنا ولا تقولوا آمنا » وهما مقتبسان من نصوص قرآنية معروفة .

ثالثاً ــ آراء النقاد وأعلام الفكر والأدب فى المقالات :

لم يكن لنتاج إنسانى متميز على النحو الذى لمسناه فيما تقدم أن تخفى ميزاته على أرباب الفهم الثاقب والنظر الصحيح من النقاد ، وأعلام الأدب والفكر ، الذين يدركون قبل غيرهم ــ بحكم المعاناة والتمرس ــ أنماط الأدب العالى ، والمعالجة المثلى لقضايا الفكر ومشكلات المجتمع ، فلا غرو أن يَقْدُر هؤلاء للزيات قدره ، ويشيدوا بما أبدعه .

وحسبى أن أسجل فى ختام هذا الكتاب ما أُمتُدح به نتاج الزيات بأقلام روّاد

جيله ، ورفاق دربه ، ملخّصاً فى السطور التالية ، مذيلا بأسماء من شهدوا به وقرروه [1] :

١ ــ مهارة التصوير لعيوب المجتمع وآلام الحياة ، وإبراز خفايا النفوس ، والإحاطة بما يعرض له الكاتب من موضوعات .

(محمد مصطفى المراغى)

٢ ــ التزام سلامة العربية وفصاحتها مع جعلها قريبة إلى التناول ، وجعله بلوغ الغاية فى ذلك رسالة للزيات وأعظم بها من رسالة .

(خليل مطران)

٣ ــ إتقان صيغة فى غير ظهور ولا ادّعاء ، واستحياء يخفى مزاياه ، ولايفوته شىء بأن يخفيها لأنها أثبت من أن يحجبها الإخفاء ، وسلاسة تطوّع العصىّ ، وتملك الزمام فى السهل والوعر على السواء ، وتلك هى الأساليب التى تضاف إلى لغة العرب ، فيقال معنى إنسانى فى كلام عربى .

(عباس محمود العقاد)

٤ ــ سموّ الأسلوب وبلاغة التعبير ، واتساع أفق الخيال . فى مجموعة دراسات عميقة ناضجة للمجتمع ، وتصوير بارع للتطورات الخلقية والنفسية ، وإشارات دقيقة ، وجولات موفقة فى الأدب والحياة .

(توفيق الحكيم)

٥ ــ معاناة البلاء بمحنة المجتمع والشقاء فى الطب لأمراضه .

(زكى مبارك)

٦ ــ تنويع الأسلوب فى كل موضوع ، فالزيات يشتق للقارىء ما يكتبه من حُرّ نفسه ، فيضْنيها ويهلكها مخلصا صابرا لايمل ، وهو كاتب لايزيّف لك ولا يقبل الزيف ، وهو يعطيك ولا يسألك ، ويبذل لك ولا يمنّ عليك ، ويعلمك ولا يدعى

---

(١) لخصت هذه الآراء مما أثبته الزيات فى نهاية الجزء الأول من وحى الرسالة ص ٤٩٤ وما بعدها .

لك أنه أعلم منك ، فهو مِلْكُ قارئه وليس القارىء ملكا له ، وهو مرشد لا مسيطر ، يشعر معه القارىء أنه الأخ الذى يناقله الحديث وإن كان بمنزلة الأب وهو بقية أصحاب الأقلام العربية التى لا تخلّط ولا تتقمم من هنا وهنا .

(محمود محمد شاكر)

٧ ــ « للأستاذ الزيات أسلوب يتميز به على كثير من كتاب العصر ، وسياقة لن تجدها لكاتب من أهل هذا العصر ، وتفتقدها من لدن ازدهرتْ اللغة وعمت آدابها فى العصر العباسى حتى الآن ، فلا تجد إلا نفحات مبعثرة فى تاريخ أدبها ... فذلك كاتب وقعت له عبارة جزلة ، وهذا خطيب اتفق له معنى فحل... ولكن قلما وقَعْتَ على كاتب وُفِّق فى الغايتين ، فامتلك ناصية العبارة ، وبرّز فى خلق المعانى ، فأنت إذن حين تقرأ للزيات إنما تجتمع لك حلاوة العبارة وجمال المعانى ، وتلك هى الغاية التى تنتهى عندها آداب الكتّاب ، وتقف دونها ملكات المبَّرزين من أرباب الأقلام » .

(مصطفى الصباحى)

٨ ــ « صاحب مذهب التنسيق التعبيرى ، ذلك المذهب المتفرع عن المنفلوطى صاحب مذهب الابتداع التعبيرى . الذى يجعل للتعبير وتنسيقه أهمية كبرى فى الفن ، بل الذى يجعل أساس العمل الفنى هو هذا التنسيق التعبيرى »[1] .

(سيد قطب)

٩ ــ « أسلوب الزيات ... يمتاز بالرشاقة والأناقة والإيقاع الموسيقى المتزن ، مما يأخذ بألبابنا ، هذا الأسلوب الفنى الرصين قد افتقده الأدباء بعد وفاة المنفلوطى ، وكان عليهم أن ينتظروا عشر سنوات كاملة حتى ظهرت « الرسالة » وكتب الزيات ، فإذا أسلوب الزيات أكثر إبداعاً وأكثر أناقة ورصانة من أسلوب المنفلوطى »[2] .

(زكى المهندس)

---

(١) كتب وشخصيات ٢٧٣ .

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية ٢٤ / ٣١١ .

الانتقادات ومناقشتها :

لم يسلم أسلوب الزيات من النقد ، ولم يكن لكاتب بهذه المنزلة من غزارة الانتاج ، وتنوع العطاء ، أن يسلم من العائبين ، أو ينجو من اتهام المغرضين .

ولا أجد بعد الذى قد متُّهُ من براعاته ، وألوان إجادته بُدّا من الإشارة إلى تلك الانتقادات وهى قليلة متهافتة ، ضعيفة متهاوية ، تدخل فى مجملها فى إطار مغزى القول العربى : « لن تعدم الحسناء ذاما » الذى يخلص موقف الناس من النوابغ فى شتى مجالات الحياة .

وجلّ ما عيب به أسلوب الزيات أنه من أنصار اللفظ ، وشداة التأنق ، والمولعين بالصنعة اللفظية المتقنة ...

وفى اجتهادى أن هذا الاتهام الجزافى صدر عن فريق من متحذلقى النقاد الذين يجعلون همهم الأوكد تعميم الأحكام ، وإرسال النعوت جزافاً دون بحث صحيح ، أو تروٍّ بصير وهم فئة ابتليت بهم الحركة الأدبية الحديثة فى عالمنا العربى يزعمون لأنفسهم الإحاطة بكل فنّ ، والخبرة فى كل شأن ، ويضعون للدارسين قوالب ثابتة ، وتصنيفات منسّقة ، يدخلون فيها من شاءوا ، فإذا قرأ لهم الشداة ومَنْ ليسوا على دراية بحقائق ما يذيعونه فيهم — راقهم ذلك التصنيف وعظم فى نفوسهم لأنه لا يحوج إلى جهد ولا يتطلب أكثر من الاستظهار ، فيزعمون لهم — على سبيل المثال — أن المنفلوطى والرافعى والزيات وأضرابهم من أنصار اللفظ وأسلوبهم جاحظى ... ، وأن المازنى والعقاد والحكيم من أنصار المعنى وأسلوبهم خلدونى ... وهكذا ...

وهو منهج عقيم ، واستقراء ناقص .

ويبدو أن تهمة اللفظية هذه قديمة فيما يتعلق بأسلوب الزيات فقد دفعها عنه زكى مبارك فى كلمته التى قرّظ بها الجزء الأول من « وحى الرسالة » عند صدوره فى طبعته الأولى سنة ١٩٤٠ م بقوله :

« ... هذا وقد قال بعض الناس إنك كاتب متأنق ، وذلك باطل يراد به حق ، فالكتابة الرفيعة فن جميل لاينفع فيه الارتجال ... » [1] .

ودافع عنه الدكتور مهدى علام فى خطبته الجامعة فى حفل تأبينه بمجمع اللغة فقال :

« ... وأرانى وقد عرضتُ وفيرا مما كتب فى غير حاجة إلى أن أدفع عنه (الزيات) التهمة الباطلة التى تقول : إنه يعنى باللفظ دون الفكرة ، بل إنه كما رأينا لايعنى باللفظ أكثر مما يعنى بالفكرة . كان الزيات رجلا أنيقا فى حياته ولكنها لم تكن أناقة جوفاء ، كان أنيقا فى ثيابه ولكن كان بين بُرْدَيْه العلم والأدب والسماحة وعزّة النفس ، كذلك كان أنيقا فى اختيار لفظه ولكن يعبّر به عن أدق معنى وأوضح فكرة » [2] .

ويردد الدكتور محمد يوسف نجم هذا الاتهام الفج بقوله : « وأسلوب الزيات يعتمد على الصنعة المحكمة ، والتكلف المرهق وتوفير القيم اللفظية ، والتوازن الموسيقى ، ولو أدى ذلك إلى هدم المعنى ، والافتئات على الفكرة ، فهو ضفيرة منسقة من الألفاظ الموسيقية المجلجلة ، أو قطعة من الفسيفساء أبدعتها يد فنان صناع ، أو هو قوالب جاهزة يلبسها لكل فكرة ويلقيها على كل موضوع دون أن يحاول الخروج على النسق المعتاد ، أو السنّة المقررة ، ودون أن يعنى بتحوير القالب وتهذيبه بحيث يلائم الشكل المطلوب ، وهو بهذه اللفظية المحكمة يتنكر للبلاغة ، مادامت البلاغة ملاءمة الكلام لمقتضى الحال » [3] .

وأكثر ما زعمه هذا الكاتب حول أسلوب الزيات يُحسب لكاتبا لا عليه ، وذلك لأن الانتقاد الذى وُجّه إليه أغفل إيجابيات الأسلوب واكتفى بالعموميات والشكليات دون النفاذ إلى جوهر الأداء ، وتواؤم الشكل مع المضمون . وسأوجز مناقشة هذه الاتهامات فى النقاط التالية :

(١) وحى الرسالة ١ / ٤٩٩ .

(٢) مجلة المجمع ٢٤ / ٣٢٨ .

(٣) فن المقالة ٨٤ .

أولاً : فيما يتعلق بالصنعة والتوازن الموسيقى أرى أن هذه ميزات وليست عيوبا إذا راعينا أن الزيات لم تكن صنعته خالية من المضمون ، ولم تكن قوالب جوفاء كما استبان لنا من تحليل أسلوبه ، وقيم تعبيره ، ولعل القارىء بعد أن تابع ما كتبناه فى الباب الأخير ليس بحاجة إلى أن نبدىء ونعيد حول تقرير تلك الحقيقة .

ثانياً : أما الادعاء بأن أسلوب الزيات قوالب جاهزة يلبسها الكاتب لكل فكرة ، ويلقيها على كل موضوع دون أن يحاول الخروج على النسق المعتاد ودون أن يعنى بتحوير القالب وتهذيبه بحيث يلائم الشكل ... فقد اتضح لنا نقيض هذا الحكم فيما رأيناه من تنويع الإطار العام للمقال عند الزيات آنفا . وإطلاق الحكم على هذا النحو الذى فعله الدكتور « نجم » يدل دلالة واضحة على قصور الاستقراء ونقصه ، واعتساف الحكم دون إجالة نظر فى نتاج الزيات المقالى كله ، لأننا رأينا للزيات فى كتاباته الاجتماعية استخدام إطار الحوار وإطار الأقصوصة وإطار السرد كما سبق أن شرحنا .

ثالثاً : أما النتيجة التى انتهى إليها صاحب هذا الانتقاد الظالم وهى أن الزيات يتنكر للبلاغة فهى نتيجة فاسدة لفساد القياس الذى نتجت عنه ، وكيف لصاحب « دفاع عن البلاغة » أن يتهم بالتنكر للبلاغة ؟! وقد قال فى دفاعه عن البلاغة :

« والحق أن أظهر الدلالات فى مفهوم البلاغة هى أناقة الديباجة ووثاقة السرد ، ونصاعة الايجاز ، وبراعة الصنعة ، فإذا كان مع كل ذلك المعنى البكر ، والشعور الصادق كان الإعجاز . وليس أدل على أن الشأن الأول فى البلاغة إنما هو لرونق اللفظ ، وبراعة التركيب من أن المعنى المبذول أو المرذول أو التافه قد يتسم بالجمال ويظفر بالخلود إذا جاد سبكه وحسن معرضه » [1] .

رابعاً : لم يعتمد الزيات فى أسلوبه عامة على الصنعة المحكمة والتكلف المرهق، وقد وضُح لنا أن الزيات كان يلجأ إلى توازن الجمل وتوافق الفواصل ـــ على النحو

(١) دفاع عن البلاغة / ٢٥ .

الذى حللناه وبيّنا طرائقه ــ عندما يريد أن ينقل شعوره بالمعنى قويا مؤثرا ، وذلك بعد أن يتسق له وضوح الفكرة وظهور المعنى ، وأنه فى كثير من كتاباته كان يعتمد أسلوب السرد الوصفى المباشر دون التزام بنمط أوحد لايتعداه أو قالب رتيب لايتجاوزه إلى غيره .

خامساً : ولعل من أهم الدلائل التى تنقض ما اتهم به أسلوب الزيات هو العودة إلى رواياته التى ترجمها ومؤلفاته التى أفرغ فيها خلاصة فكره ورأيه ففيها يتجلى أسلوبه الناصع ، وبيانه الدقيق ، الذى لا مظهر فيه لتأنق ، ولا أثر لتكلف كما يزعم المتنقصون لأسلوبه ، فهو فى تلك المؤلفات يشغله المضمون الفكرى ، والبحث الموضوعى الصِّرف عن تزيين اللفظ ، وموسيقية العبارة .

ولعل من أقوى الردود على اتهام أسلوب الزيات ما قرره الزيات نفسه فى تأصيله الدقيق لمشكلات الأدب العربى فى العصر الحاضر حينما طرح قضية الأسلوب فى معرض إيضاح حقيقة الأمر حول الخصومة بين أنصار الأسلوب العلمى وأنصار الأسلوب الأدبى وهو تأصيل يجمل بنا أن نختتم به بحثنا عن الانتقادات التى وجهت إلى طريقته فى الأداء .

طرح الزيات هذا التأصيل فى حديث له بعنوان « حاضر الأدب العربى » ألقاه فى المؤتمر الثقافى العربى الثانى بالإسكندرية سنة ١٩٥٠م . عرض فيه للمخاطر التى يُخْشَى على الأدب العربى فى العصر الحاضر منها ، وحددها فى خطرين أساسيين الأول : العامية فى اللغة ، والثانى : العلمية فى الأسلوب . وأكتفى هنا بتلخيص ماذكره عن الخطر الثانى إذ هو الذى يعنينا هنا يقول :

« وأما العلمية فى الأسلوب فلو كان الغرض منها اقتباس الروح العلمى فى تحديد الفكرة ، وتصحيح القياس ، وتدقيق العبارة ، ونبذ الفضول وتوخّى الفائدة لقلنا نعم ونعام عين [1] ، ولكنهم يقصدون بالعلمية بخس القيمة الجمالية للأسلوب ، وخفض المستوى الرفيع للبلاغة ، فيكون الكلام جاريا على نهج العلماء

(١) نعام عين : عبارة تقال فى مقام الموافقة وفعل الشىء إكراماً للآمر به .

فى تأدية المعنى المراد فى اللفظ السهل ، أو على سنن التجار فى ضغط المعنى المحدد فى اللفظ المختزل ، ولا عليهم بعد ذلك من الروح الذى يبعث الحياة فى المعانى فتؤثر ، ولا من الفن الذى يلقى الألوان على الصور فتمتع ، ولا من الشعور الذى يشيع الهمس فى الجمل فتوحى .

إن الأسلوب العلمى أسلوب من أساليب التعبير لا هو كلها ، ولا هو خيرها ، وإنما هو أسلوب تقتضيه حال كما تقتضى غيره أحوال . فالسعى لتغليبه على غيره من الأساليب مخالفة للطبيعة ومجافاة للطباع . والمعروف فى تاريخ الآداب أن المذاهب الأدبية والأساليب الفنية هى التى تتنافس فى الشيوع ، وتتفارس على البقاء . أما الأسلوب العلمى فله مجال آخر ورجال أخر . مجاله العلوم ورجاله العلماء والعلوم والعلماء إنما يتخذون من اللغة أداة ضروريّة للفهم والإفهام ، لا وسيلة كمالية للجمال والإلهام . فأساليبهم فى فن الكلام أشبه بالصور الجغرافية والخطوط البيانية يقصد بها البيان لا الزخرف ، ويراد منها الحق لا الجمال . فإذا صح أن نقول للرسامين اقتلوا فى أنفسكم ملكة التصوير الجميل لتصبح صوركم كلها جغرافية أو هندسية ، صح بالقياس أن نقول للكتّاب اقتلوا فى أنفسكم ملكة التعبير الجميل لتصبح أساليبكم كلها علمية أو فلسفية » [٢] .

---

(١) وحى الرسالة ٣ / ٢٠٦ إلى ٢١١ (بتصرف) .

الخاتمـــة

لا أجد غضاضة بعد الذى قدمت فى التأكيد على أن جوانب نتاج الزيات فى المقال الاجتماعى من السعة بحيث لا أزعم لنفسى أننى أحطتُ بها ، أو فرغت من تناولها جميعا . وإن كنتُ قد حددت معالمها الأساسية ـــ حسب اجتهادى ـــ وألقيت الضوء على منهجه فى التناول وطرائقه فى الأداء .

وحسبى أننى أُلفِتُ بهذه الدراسة أنظار المعنيِّين بمثل هذا النوع من النتاج الأدبى ذى المنحى الاجتماعى إلى منهج من أمْثَل مناهجه ، اكتملت له مقومات الأصالة والموضوعية ، وحشد له الأديب الكبير أحمد حسن الزيات قدراً كبيراً من فكره الثاقب ، وعاطفته الوطنية الصادقة . فهو دليل ماثل على الأدب الهادف ، والكتابة الاجتماعية الجادة التى يضع فيها الكاتب صالح الأمة فوق كل غاية ، ويجعل نهضة الوطن ، وحرية المواطن ، وكرامة الإنسان ، ورقىّ الأمة ـــ هدفه المنشود ، وأمله المرتجَى ، فيكرّس من أجل تلك المعانى النبيلة إمكاناته كلها ، ويوظف خبراته ومواهبه ودرايته بالأساليب العالية ، والأدوات الفنية المؤثرة لتحقيق تلك الرسالة الثقافية الإنسانية التى ينبغى على كل من يملك وسائلها أن ينهض بها ، ويعتد ذلك عملا من أجل الأعمال ، وهدفا مقدسا يستأهل أن يجاهد فى ميدانه الشريف كل ذى نفس أبيّة ، وولاء وطنى صحيح ، « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » .

المصادر والمراجع

عنوان الكتاب	المؤلف	الطبعة وتاريخها
« آلام فرتر »	« جيته » ترجمة أحمد حسن الزيات	الثامنة مطبعة الرسالة
« أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد الأدبى »	د . محمد رجب البيومى	
الأسلوب	أحمد الشايب	السابعة ١٩٧٦م مكتبة النهضة المصرية
الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر	د. محمد محمد حسين	الثالثة ١٩٨٠م مكتبة الآداب بالقاهرة
جنة العبيط	د. زكى نجيب محمود	الثانية ١٩٨٢م دار الشرق ببيروت
دفاع عن البلاغة	أحمد حسن الزيات	مطبعة الرسالة ١٩٤٥
رفائيل	« لامرتين » ترجمة أحمد حسن الزيات	الرابعة ١٩٤٨ م
فن المقالة	د. محمد يوسف نجم	الرابعة دار الثقافة بيروت
فنون الأدب	د . زكى نجيب محمود	الثانية ١٩٨٢ لجنة التأليف والترجمة والنشر
فى الأدب الحديث	عمر الدسوقى	السابعة دار الفكر العربى
فى أصول الأدب	أحمد حسن الزيات	١٩٣٥ م لجنة التأليف والترجمة والنشر
فى ضوء الرسالة	أحمد حسن الزيات	أولى ١٩٦٣ م مكتبة نهضة مصر
كتب وشخصيات	سيد قطب	الثانية دار الشروق بيروت
مجلة مجمع اللغة العربية		ج ٢٤ يناير ١٩٦٩ م
المقالة الأدبية ووظيفتها فى العصر الحديث	د . عطاء كفافى	الأولى ١٩٨٥م القاهرة
من الأدب الحديث	د . على صبح	الأولى ١٩٨١ م دار المريخ الرياضى
النقد الأدبى	أحمد أمين	الرابعة ١٩٧٢ م مكتبة النهضة المصرية
وحى الرسالة	أحمد حسن الزيات	التاسعة ١٩٧٢ م دار الثقافة بيروت

الفهرس

